تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

مجلة
فصلية علمية
دينية سياسية
تعنى بشؤون حوزتي
النجف الأشرف
وقم المقدسة

الحوزة

مجلة علمية فصلية

تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

العدد الرابع والاربعون/ السنة الحادية عشر/ ١٤٤٦ هـ

المشرف العام

السيد قاسم هاشم مولى

رئيس التحرير

أ. عباس النوري

هيئة التحرير

حيدر النجار

إبراهيم الأسدي

التصميم والإشراف الفني

أحمد الهاشمي

info@markazalhuda.net

www.markazalhuda.net

دعوة للكتّاب

تود هيئة تحرير مجلة الحوزة ان ترحب بالأخوة والأخوات الباحثين والمتخصصين في الدراسات الدينية الحوزوية والذين يرغبون بنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية والاكاديمية في مجلة الحوزة وفق المعايير التالية:

- ❖ أن تتناول البحوث والدراسات الشؤون الحوزوية المعاصرة وكل ما له علاقة بتطوير الحوزة والدفاع عنها وعكس صورتها المثلى
- ❖ تعتمد المجلة الأساليب العملية الراهنة في الكتابة والتوثيق والحيادية والموضوعية والدقة والإشارة إلى المصادر حسب القواعد العلمية المتعارف عليها.
- ❖ أن لا تكون البحوث قد نشرت في مجلات أخرى
- ❖ تقدم البحوث إلى المجلة مطبوعة وعلى (CD) مع موجز خالي من الأخطاء الطباعية.
- ❖ تخضع البحوث والدراسات إلى التحكيم العلمي المتعارف عليه أكاديميا ولا تعاد البحوث إلى أصحابها في حالة الاعتذار عن نشرها
- ❖ تنشر البحوث والدراسات وفق خطة هيئة التحرير والنشر

لا تمثل بالضرورة آراء الباحثين والكتاب رأي مجلة الحوزة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الامام الخامنئي دام ظله

التراجع غير التكتيكي في الميادين العسكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة يستتبع الغضب الإلهي

بحوث تخصصية

❖ **تداخل علم الأصول مع علوم القرآن**

أ. د. فاضل مدب متعب ٨

❖ **تطور البحث الأصولي وسمات المنهج العلمي عند الوحيد البهبهاني**

الشيخ د. محمد الغراوي ٢٠

ملف العدد: النهضة الحسينية والمنبر الحسيني الأهداف والضرورات

❖ **الأهداف السياسية والحركية في ثورة الإمام الحسين** عليه السلام

الشيخ محمد حسّان العامري ٦٠

❖ **دور الشباب في نهضة الإمام الحسين** عليه السلام

د. الشيخ عبد الله احمد اليوسف ٨٩

❖ **المنبر الحسيني وضرورة تقنين المعلومات**

د. الشيخ أسعد السلمان ١٢٣

❖ **ضوابط الخطابة ومقوماتها في ضوء النصوص الشرعية**
د. الشيخ علي العبادي ١٥٤

❖ **الحضور القرآني في بيانات الإمام الحسين عليه السلام**
الشيخ صباح عبّاس الساعدي ١٨٧

✍ مطالعات معرفية:

❖ **الخلفيات المعرفية للمستشرقين في ترجمة القرآن ـ دراسة نقدية ـ**
السيّد محمّد الموسوي ٢١٨

❖ **مظاهر التوحيد والنبوة في خطبة السيدة الزهراء عليها السلام**
أ. د. محمد كاظم حسين الفتلاوي ٢٤٠

الامام الخامنئي ظِلَّهُ

التراجع غير التكتيكي في الميادين العسكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة يستتبع الغضب الإلهي

التقى أعضاء المؤتمر الوطني لشهداء محافظة «كهكيلويه وبوير أحمد»، يوم الأربعاء ١٤/ ٠٨/ ٢٠٢٤، قائد الثورة الإسلاميّة، الإمام الخامنئي. وقال سماحته أنّ الأعداء أوهموا الشعب الإيراني بأن عليه الخشية من أمريكا، بريطانيا والصهيونية. وقال أنّ هدف العدوّ من الحرب النفسيّة في الميدان العسكريّ بثّ الخوف والتراجع، وأنّ الغضب الإلهي يستتبع التراجع غير التكتيكي في شتى الميادين.

أكّد قائد الثورة الإسلاميّة، الإمام الخامنئي، في لقائه اليوم مع القيّمين على

المؤتمر الوطني لشهداء محافظة «كهكيلويه وبوير أحمد»، أنّ تضخيم قدرات الأعداء هو أحد المرتكزات الأساسيّة للحرب النفسيّة التي تُشنّ ضدّ الشعب الإيراني العزيز والمسلم، وتابع قائلًا: «منذ انتصار الثورة الإسلاميّة، أوهموا شعبَنا بشتّى الأساليب أن عليكم الخشية من أمريكا، وبريطانيا، والصهاينة».

ولفت سماحته إلى أنّ الإنجاز العظيم للإمام الخميني ﵀، تمثّل في طرد الخوف من قلوب الشعب، ومنحِهم الثقة بالنّفس، وأضاف: «لقد شعر شعبُنا بقدرته على إنجاز الأعمال العظيمة من خلال الاعتماد على طاقاته وقدراته الذاتيّة، وأنّ يد العدوّ ليست مملوءة، كما يوحي ويتظاهر».

وأوضح قائد الثورة الإسلاميّة أنّ هدفَ العدوّ من الحرب النفسيّة في المجال العسكري يتمثّل في بثّ الرعب والتراجع، ثمّ قال: «وفق تعبير القرآن الكريم، يستتبع التراجع غير التكتيكي، في أيّ ميدان عسكري، أو سياسي، أو إعلامي، أو اقتصادي، الغضب الإلهي».

وعدّ سماحته الشعورَ بالضّعف، والعزلة، والاستسلام لإرادة العدوّ، من آثار تضخيم قدراته في المجال السياسي، وأردف قائلًا: «لو اعتمدت الحكومات، المستسلمة اليوم لإرادة المستكبرين، على شعوبها وقدراتها، وعرفت حقيقة قدرات العدوّ بعيدًا عن هذا التّضخيم، سيكون بمقدورها عدم قول «سمعًا وطاعةً» لمطالبهم».

وأشار الإمام الخامنئي إلى أنّ الشعور بالارتباك، والانجذاب نحو ثقافة العدوّ، واستحقار الثقافة الذاتيّة، من نتائج تضخيم قدرات العدوّ في ميدان الثقافة، مضيفًا: «نتيجةُ مثل هذا الارتباك هي الموافقة على نمط عيش الطرف المقابل، وكذلك استخدام المفردات والتعابير الأجنبيّة».

ولفت قائد الثورة الإسلاميّة إلى أنّ الشهداء والمجاهدين هم الصامدون في وجه الحرب النفسيّة للعدوّ، وتابع قائلًا: «يجب تكريم الشباب الذين صمدوا بوجه الحرب النفسيّة دون الشعور بالخوف، أو التأثّر بكلام الآخرين».

وأكّد سماحته على إصدار الأعمال الثقافيّة والفنيّة حول الشهداء والدفاع المقّدس، وأضاف: «إنّ شهادةَ شّبابِ أيّ شعب، وتقديمهم التضحيات، ذخيرةٌ وركيزةٌ كُبرى تُخوّل البلاد التقدّم، لذا ينبغي المحافظة عليها، وصونها من التحريف أو النسيان».

بحوث تخصصية

أ. د. فاضل مدب متعب
كلية الفقه/ جامعة الكوفة

تداخل علم الأصول مع علوم القرآن

إن من واجبات أهل العلم في هذا العصر، إعادة روح التكامل المنهجي بين العلوم الشرعية، أنموذجه في ذلك وحدة الوحي ومحورية القرآن لكريم، وتفتق العلوم والمعارف الإسلامية عنه، خادمة له فهماً وبياناً.

فتقديم (المعرفة في نمط وظيفي على صورة مفاهيم متدرجة ومترابطة تُغطي الموضوعات المختلفة دون أن يكون هناك تجزئة أو تقسيم للمعرفة إلى ميادين مفصلة)[1]، يُفيد في إبراز وحدة العلم بشكل عام، والعلوم الشرعية على وجه الخصوص، ما يقف سداً منيعاً أمام محاولة تفكيكية العلوم[2].

وما يُحاول الباحث إثباته في هذا المقام، هو إمكانية تداخل علم الأصول مع علوم القرآن، وصولاً إلى التكاملية المنشودة في العلوم الشرعية، ما يُعيد وحدتها وحيويتها وشموليتها.

إذ بعد أن أشار البحث فيما تقدَّم إلى أن موضوع علوم القرآن هو القرآن الكريم نفسه، وموضوع علم الأصول، سواء كان الأدلة الأربعة، أو كان الحجة

في الفقه، أو كان عدم الموضوع المحدد لـه[٣]، يسمح كل ذلك باتحاد موضوعهما، فالكتاب العزيز أحد الأدلة الأربعة وأول مصادر التشريع في علم الأصول، والحجة في الفقه يُمكن أن يكون القرآن الكريم حجة في استنباط الحُكم الشرعي، وأكثر فسحة القول بعدم الموضوع، إذ لا مانع من أن تكون علوم القرآن موضوعاً لعلم الأصول تُسهم في إبراز الحُكم الشرعي وتُعين في استنباطه لوقوعها صغرى في عملية الاستنباط.

وعلى هذا الأساس يمكن القول: أن علم أصول الفقه مع مجموع علوم القرآن، جزء لا يتجزأ من علم أصول التفسير وقواعده، على الرغم من حصر تعريف علم الأصول بأنه (القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية)[٤]، فجميعها تشترك في غاية واحدة: هي فهم الشريعة بمعناها الجامع، أو فقه القرآن الكريم، فهذا إمام الشافعية ينص على إن ما يؤسسه في كتابه (الرسالة) هو لفهم القرآن الكريم، إذ يقول: (كل ما أُنزل في كتابه ـ جلَّ ثناؤه ـ رحمةً وحجة... وليست تنزل بأحد من أهل الدين نازلة، إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها)[٥].

ولا شك في ان ابتداء أمر الأصول والقواعد ونشأة الآليات والضوابط، كان بسبب الحاجة إلى بناء منهاج نظري لبيان ما يحتاج إلى البيان في القرآن الكريم، ولم يزعم أي علم من العلوم الشريعة استقلاله بقواعد البيان، مستغن بنفسه عن غيره. ويظهر ـ من خلال الاستقراء ـ أن عوامل اجتماعية وبيئية وفكرية معينة هي التي خصصت أصول البيان، بعد أن تأسست أصولاً لفهم القرآن الكريم بما اصطلح عليه بأصول الفقه بمباحثه ألمعروفه، وهي بالتأكيد لا تكفي في الكشف عن مراده

ـ سبحانه وتعالى ـ من كلامه، فضلاً عن فقر علوم القرآن مستقلة عن ذلك البيان والكشف[٦].

ولعلّ الذي ساعد على تداخل علم الأصول مع العلوم الأخرى عامة، وعلوم القرآن خاصة، هو خصوبته، فهو غزير في مادته بعيد عن الجفاف، فإذا ما أدرك الدارس أبعاد هذا العلم، يجده متصلاً بجميع العلوم الشرعية وغير الشرعية. فهو بتركيبته الخاصة يأخذ دارسة إلى ميادين تلك العلوم المختلفة، فلا يتمكن منه إلا بولوجه أبواباً مختلفة وفنوناً متنوعة يسير أغوارها، ويخوض غمارها، فعلم الأصول هو الأساس للنظام المتكامل لحياة الإنسان من خلال الوصول للأحكام التي تنظم حياة الإنسان[٧].

ولا يخفى أن دراسة منابع الأحكام تتطلب أول ما تتطلب دراسة القرآن الكريم بعدّه المنبع الأول للأحكام، الذي يشتمل على أحكامٍ تفصيلية وأخرى تُعدُّ قواعد عامة تندرج تحتها بقية الأحكام، فضلاً عن معرفة الناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد والخاص والعام... ونحوها، مما تُعدّ علوماً في القرآن الكريم، ومباحث أساسية في علم الأصول. وفي هذه النقطة بالأساس يلتقي علم الأصول مع علوم القرآن، من حيث دراستهما للقرآن الكريم وعنايتهما به، الذي يُعدّ بلا شك موضوعاً لعلوم القرآن جميعها، ومصدراً أساسياً من مصادر علم الأصول.

وربما كان التمايز بين علوم القرآن وعلم الأصول لفظياً، فظواهر القرآن الكريم يدرسها علم الأصول من خلال إثباته الحُجية لها، بينما تدرسها علوم القرآن في المُحكم من آيات الكتاب المجيد.

ويُمكن أن نلحظ هذا التداخل بين علوم القرآن وعلم الأصول من خلال تسليط الضوء على ظواهر القرآن

الكريم[٨]، التي هي من العلوم المهمة في علوم القرآن، وهي في الوقت نفسه من المباحث المهمة أيضاً في علم الأصول.

فالمعلوم أن القرآن الكريم قطعي الصدور عن النبي ﷺ لتواتر نقله عنه ﷺ تواتراً يوجب العلم بصدوره، وقطعي الصدور عن الله تعالى للجزم بعصمة المرسَلْ والمرسل به. ولما كان الهدف المنشود في عملية تفسير القرآن هو: فهم مراد الله تعالى من كلامه، فلا ريب في ضرورة العناية بظواهر القرآن الكريم، إذ هي المبدأ في فهم كل آية في القرآن، مع قطع النظر عن وجود آية أُخرى، فما يظهر من الآية الثابت بدليل الظهور فهو الحجة، ما لم توجد قرينة على خلافه، نعم إذا قام دليل أو وجدت قرينة صارفة عن الظاهر أوجب التمسك به.

والمراد بالظهور القرآني: (هو المعنى الذي يبرز ويظهر من ألفاظ القرآن مع قطع النظر عن اية قرينة، إذ لا شبهة في لزوم إتباع ظاهر كلام الشارع في تعيين مراده؛ لاستقراء طريقة العقلاء على إتباع الظهورات في تعيين المرادات، مع القطع بعدم الردع عنها، لوضوح عدم اختراع طريقة أُخرى في مقام الإفادة لمرامه من كلامه)[٩]، فالقرآن الكريم إنما أُنزل على رسول الله ﷺ ليبين للناس معانيه، وليتدبروا آياته ويجعلوا أعمالهم مطابقة لأوامره ونواهيه، وإلا كان قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً...﴾ (النساء / ٨٣)، لغواً[١٠].

وكثيراً ما يستدل المفسرون على المعنى المراد من الآيات الكريمة بظاهر النص القرآني، ففي قوله تعالى: ﴿..**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ (البقرة / ١٨٤)، اتفقت كلمات المفسرين على وجوب القضاء لمن كان مريضاً أو مسافراً، ولكنهم اختلفوا فيما إذا كان الإفطار في السفر

رخصة أم عزيمة؟ أي: الإفطار مُباح للمسافر أم واجب؟

فالذي عليه أغلب مفسري العامة، انه رخصة فان شاء أفطر وان شاء بقى صائماً[١١]. بينما ذهب مفسروا الامامية إلى وجوب الإفطار، واحتجوا بظاهر الآية على أن المرض والسفر لا يصح معهما الصوم ويجب معهما الإفطار ثم القضاء، ولا مجال لتقدير كلام خارج عن نص الآية[١٢].

مع كونهم جميعاً متفقون على ضرورة الأخذ بظواهر الآيات المباركة نحو قوله تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا**..﴾ (البقرة / ٢٨٦) وقوله تعالى: ﴿.. **وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ**...﴾ (الأنعام / ١٥١)، ونحوها...

وحجية الظواهر مما أقرّها الأصوليون أيضاً، وعملوا بها فهي من توابع البحث عن حُجية الكتاب والسُنة، ولم يكن إثباتها دليلاً مستقلاً في مقابلهما، أي: إثبات حُجية الظواهر إنما هو لغرض الأخذ بالكتاب والسنة، وإنما يتم البحث عن الظهور لإثبات حُجيته في مقامات ثلاثة:

الأول: في إمكان الظهور لكلام الشارع.

الثاني: في إثبات ظهور بعض الألفاظ، كالأوامر والنواهي، والعموم والإطلاق وغيرها.

الثالث: في حُجية الظهور المحرز من الألفاظ[١٣].

ولا يتسع المقام لبسط الكلام عن هذه المقامات الثلاثة، إذ قد كفتنا كتب الأصول مؤونة ذلك[١٤]، ولكن ينبغي الإشارة إلى خلاصة كلامهم فيها وهو إثبات حُجية الظواهر على سبيل الجزم عند الشارع على المُكلفين، وضرورة عمل المُكلفين بها، ما يُصحح لهم ـ إذا عملوا بها ـ احتجاجهم، إذا ما خالف عملهم الواقع، فيكون معذراً لهم، وهو ما يؤكده صاحب درر الفوائد بقوله: (إذا كنا نعلم بأن المُتكلم يكون في مقام

البيان وتفهيم المراد، ونعلم أيضاً انه لم ينصب قرينة ـ مع الالتفات ـ تصرف اللفظ عن ظاهره، نقطع بأن مراده هو ما يُستفاد من ظاهر اللفظ)[١٥]، لأن الأصل في عبارات الشرع ونصوصه (أنها قوالب لمدلولاتها الظاهرة، والواجب العمل بهذه الظواهر)[١٦]، مع مراعاة الدليل أو القرينة.

والآية نفسها جاءت في أبحاث الأصوليين، شاهدا على حجية ظواهر القرآن الكريم، وكان الاختلاف نفسه في حُكم الصوم بالنسبة للمسافر والمريض، فقد أورد ألشاطبي (ت: ٤٧٩هـ) قوله: (فالذي يظهر من نصوص الرخص بمعنى رفع الحرج لا بالمعنى الآخر وذلك ظاهر في قوله تعالى: ﴿.. **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً**...﴾ (الآية)[١٧]. ويرى صاحب كشف الأسرار[١٨] أن هذه الآية جاءت لبيان الترخيص بالفطر، مع انه يورد حديث النبي ﷺ: «الصائم في السفر كالمفطر في الحظر»[١٩] فيما يدعي الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) أن (السياق يفهمنا إضمار الإفطار ومعناه من كان مريضاً أو على سفر فافطر فعدّة من أيام أُخر)[٢٠]. وفي هذا المدعى تجوّز واضح وتكلّف صريح؛ إذ أن سياق الآية لا يدل على ما ذهب إليه الغزالي، فسياق الكلام لا سيما في قوله تعالى: ﴿.. **فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**..﴾ (البقرة: من الآية١٨٥)، يدل على أن من لم يشهده بسبب المرض أو السفر لا يصوم.

وأما اصوليو الامامية فقد اجتمعت كلمتهم على أن حُكم المُسافر والمريض هو وجوب الإفطار، مُستدلين بظاهر الآية الكريمة[٢١].

ويظهر مما تقدَّم أن ظواهر القرآن الكريم التي هي من علوم القرآن يبحثها الأصولي ليثبت بعد إثبات حُجيتها حُجية الأخذ بكتاب الله العزيز، ويستدل بها المفسر عند إرادته كشف المعنى وإزالة الخفاء عن النص القرآني

الذي يروم تفسيره، ما يسمح للباحث بالقول بتداخل علم الأصول مع علوم القرآن الكريم. هذا من جهة.

ومن جهة أُخرى فان حُجية ظواهر القرآن الكريم مما كادت كلمة علماء المسلمين أن تتفق عليها[٢٢].

ومن جهة ثالثة يُمكن ملاحظة منهج المفسر والأصولي من خلال تعاملهما مع النص القرآني، فالمفسر يُحاول تفسير النص القرآني على ما هو من حيث بيان معاني ألفاظه، ومقصود الرحمن منه، مع مراعاته لأسباب النزول والمناسبة التي ورد فيها ذلك النص.

بينما يُعنى الأصولي بالآيات القرآنية المشتملة على أحكام شرعية تتعلق بأفعال المكلفين، فيستنبط منها قاعدة يُمكن أن يستند عليها الفقيه في إصدار الحُكم الشرعي، من حيث الحرمة أو الوجوب، أو الندب، أو الكراهة، أو الإباحة. من دون مراعاة لأسباب النزول أو مناسبته.

وقد يعتمد المفسر ـ أي مفسر ـ على تلك القواعد المستنبطة من النص القرآني وغيره، التي أعدها وتوصل إليها الأصولي.

ففي قوله تعالى: ﴿وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (النساء / ٢٢)، يستند المفسر على مبحث لفظي في علم الأصول، هو (المشترك)[٢٣]، ليكشف عن مراد الله تعالى في هذه الآية، وعلى الخصوص بيان معنى لفظ (النُكاح) الوارد فيها، والذي يشترك في معنيين هما: الوطء والعقد[٢٤].

والجدير بالذكر أن الاشتراك اللفظي[٢٥] مما اختلفت فيه كلمات عُلماء الأصول، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ومفاده وجوب وقوع الاشتراك في الألفاظ، ويُمثله الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) بقوله: (إن المعاني غير متناهية.. وان المتناهي إذا

وزع على غير المتناهي حصل الاشتراك فهو معلوم بالضرورة)[٢٦].

وعلى هذا الأساس يرى الرازي عند تفسيره لهذه الآية إن (النكاح) لفظٌ مشترك بين العقد والوطء، وهو حقيقة في العقد مجاز في الوطء، فيكون على هذا المبنى حرمة عقد ووطء منكوحة الأب من الحلال أو من الزنا ـ والعياذُ بالله ـ[٢٧].

ويرد على الرازي في كلامه المتقدّم: إن المشترك يعني أن اللفظ الواحد وضع لمعنيين أو أكثر على نحو الحقيقة لا المجاز وفي قوله: (حقيقة في العقد مجاز في الوطء) خروج عن الاشتراك الذي بحثه الرازي وأيّد وقوعه[٢٨].

القول الثاني: وهو نقيض الأول، ومفاده استحالة وقوع الاشتراك في الألفاظ[٢٩]، وإنما استعمل لفظ (النُكاح) في القرآن الكريم ليدل على الوطء تارة، والعقد تارةً أُخرى. فيكون (النكاح) في هذه الآية حقيقة في القدر المشترك بين (الوطء والعقد)، وهو (الضم)[٣٠]، وإذا كان كذلك فلا اشتراك في هذه اللفظة، مع الاستنتاج بأن النهي الوارد في هذه الآية الكريمة، هو نهي عن كل واحد من القسمين ـ الوطء والعقد ـ معاً[٣١].

القول الثالث: ومفاده: إمكان الاشتراك؛ (إذ لا ينبغي الإشكال في إمكان الترادف والاشتراك، بل وقوعهما في اللغة العربية، فلا يُصغى إلى مقالة مَنْ أنكرهما)[٣٢]. ويبدو أن هذا القول هو المشهور عند العلماء[٣٣].

ويمكن تعيين المراد من المشترك اللفظي في كل معانيه، بمعاينة القرينة التي تعين في توضيح المراد، فلفظ (العين) يظهر في الباصرة عند القول: أبصر بعينه. وفي الجاسوس حين القول: أرسلت عيناً.. وهكذا في معاني اللفظ الأخرى.

وفي هذه الآية يترجح قول من قال: ((ان لفظ النكاح هو حقيقة في

الـوطء مجـاز في العقـد)) بملاحظـة القرينة في أمرين:

الأول: التبـادر، إذ أن المتبـادر مـن النُكاح عرفاً هو الوطء، وحينئذ يكـون أحـد المعنيـين صـحيحاً والآخـر غـير صحيح[٣٤].

والآخر: الوصف المذكور في ذيـل الآية لمن قام بهذا الفعل في قوله تعالى: ﴿**فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَـاءَ سَـبِيلاً**﴾، إذ لا يُمكن أن يوصـف مجـرد العقـد بهـذه الأوصـاف الدالـة عـلى قُـبح الفعـل. فيلزم أن يكون المراد منـه هـو الـوطء على الحقيقة، وهو قبيح ومستقبح عند العرب (إذ كانت تقول لولـد الرجـل مـن امـرأة أبيـه: مقتـى، وذلـك لأن زوجة الأب تُشبه الأُم، وكـان نُكـاح الأُمهـات مـن أقـبح الأشـياء عنـد العرب)[٣٥] لا أعظم فُحشاً من نُكـاح الأُمهات وما شابهها.

ولقـد عضَّـدَ المفـسرون رأيهـم بملاحظة سبب نزول هذه الآيـة فقـد أجمعوا أن سبب نزولها هو أنهـم كـانوا يتزوجون بأزواج آبـائهم، وان سـبب نزول الآية لا بُدَّ من ان يكـون داخـلاً تحت الآية[٣٦].

ومناط الحُكم الـذي توصـل إليـه المُفسرون والأصوليون في هذه الآيـة هو تحريم الزواج من منكوحـة الأب، زوجة كانت أم مزنية[٣٧].

ويبـدو ممـا تقـدَّم أن الأصـولي يؤسـس قاعـدة مـن الـنص القـرآني وغـيره، وعليهـا يكـون إسـناده في استنباط الحُكم الشرعي.

بينما يُفيد المفسر مما توصـل إليـه الأصولي من قواعد ليُعطي رأيه الـذي يُحاول به الكشف عن مـراد الله تعـالى من كلماته، مع مراعاة سـبب ومناسـبة نـزول الـنص القـرآني، مـا يُشـير إلى عموميـة مـنهج المفـسر وخصوصـية منهج الأصولي.

وفي ذلك كله ما يسـمح للباحـث إثبـات القـول بتـداخل العلمـين فـيما

بينهما وتداخلهما مع العلوم الأُخرى، فالعلوم الإسلامية من فقه وأصول ونحو وعلم لغة وعلوم بلاغة..... وغيرها تُمثل سلسلة مُتصلة الحلقات، لا يستغني ببعضها عن بعضها الآخر؛ لأن جميعها تهدف إلى خدمة كتاب الله تعالى وتنير السبيل إلى فهمه وحُسن تأويله وطرق الاستفادة منها. وسيأتي في تضاعيف البحث تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

الهوامش:

[١] استخدام الأسلوب التكاملي، عبد الكريم الخياط / ١٠١.

[٢] التفكيكية: تعني اللعب بالنصوص لبيان أنها لا تملك معنى، فتفكيك الشيء: تمزيقه إلى أجزاء، وهو مصطلح ظهر أول ما ظهر على يد الفرنسي (جاك دريدا) اليهودي الأصل عام (١٩١٥) م، (ظ) الأصول المعرفية لمفهوم التفكيك، جيمس فالكونرا، المعنى الأدبي من الظاهراتية التفكيكية، وليم راي / ٩.

[٣] (ظ) ص ٨ من الأطروحة.

[٤] أصول الفقه محمد أبو زهرة / ٧.

[٥] الرسالة، الشافعي / ١٩.

[٦] (ظ) الاتجاهات الفكرية في التفسير، د. الشحات/ ٣ـ١٣.

[٧] (ظ) اصول الفقه وقواعد الاستنباط، آية الله الصفار: ١/ ٧ـ١١.

[٨] ذكر الفيومي في المصباح المنير، مادة: ظهر، إن الظهور لغة: هو البروز بعد الخفاء. وفي اصطلاحات الأصول، للمشكيني / ٢٢٣، (الظاهر هو اللفظ الذي له ظهور قابل للتأويل بسبب القرائن)، فالظهور هو عبارة عن بروز المعنى من اللفظ الظاهر مع قطع النظر عن القرينة، وأما إذا ظهر بقرينة، فيكون من قبيل النص.

[٩] كفاية الأصول، الآخوند / ٢٨١.

[١٠] (ظ) مدخل التفسير، محمد اللنكراني / ١٦١.

[١١] ذكر الطبري في تفسيره البيان: ٣/ ٤٧٢، أن: الإفطار رخصة لا عزيمة. وتابعه على ذلك جُلّ مفسري العامة ومنهم: (ظ) الكشف والبيان، الثعلبي: ١/ ٢٥٢، مفاتيح الغيب، الرازي: ٣ / ٢٤، ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود: ١ / ٢٨٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢ / ١٣٥، المنار، محمد رضا: ٢ / ١٢٤.

[١٢] (ظ) التبيان، الطوسي: ٢/ ١٦٣، مجمع البيان، الطبرسي: ٢ / ٤، فقه القرآن، الراوندي: ١ / ١٦٣، الميزان، الطباطبائي: ٢ / ٥.

[١٣] (ظ) أصول الفقه، المظفر: ١ / ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

[١٤] (ظ) كتب أصول الفقه، إذ لم تذكر الكتب السُنية مثل هذه المباحث لِحُجية الظهور، وأهمها: عدّة الأصول، الطوسي: ١ / ٢٩٠، فوائد الأصول، النائيني: ٢ / ٧٢، تسديد الأصول، المحقق القمي: ١ / ٣٦٠، أصول الفقه، المظفر: ١ / ٣٧٢، المعالم الجديدة، الصدر: ١/ ٧ وما بعدها.

[١٥] درر الفوائد، عبد الكريم الحائري / ٣٥٩.

[١٦] أصول التفسير وقواعده، خالد عبد الرحمن العك / ٥١.

[١٧] الموافقات، ألشاطبي: ١ / ٣١٨، و (ظ) أصول السرخسي، السرخسي: ١/ ٤٥، أصول الفقه، البزدوي: ١ / ١٤٢.

[١٨] (ظ) كشف الأسرار، البخاري: ١ / ٣٦٧.

[١٩] أخرجه النسائي في سننه: ٤/ ١٨٣ بسند طويل عن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال: (الرواية)، البيهقي في سننه: ٤/ ٢٤٤ بالسند واللفظ نفسيهما.

[٢٠] المستصفى، الغزالي: ١/ ١٨٩، و (ظ) الضروري في أصول الفقه، ابن رشيد الحفيد: ١ / ٢١.

[٢١] (ظ) على نحو الأنموذج مفتاح الوصول إلى علم الأصول، شيخنا العلامة الدكتور البهادلي: ٢ / ٢٤ ـ ٢٥.

[٢٢] لولا أن خالف بعض الإخباريين في إسقاطهم لحجية القرآن بحجج عديدة منها: أن فهم القرآن مختص بمن خوطب به، وهم أئمة أهل البيت عليهم السلام، مستدلين بمرسلة شُعيب بن أنس، ورواية زيد الشحام، (ظ) وسائل الشيعة، الحر ألعاملي: ٢٧ / ٤٧ باب / ١٦، ٢٧ / ١٩٥، باب / ١٢. وقد ناقش السيد الخوئي إنكارهم هذا نقاشاً بيناً مما ينبغي لكل دارس وباحث إهماله. (ظ) البيان، الخوئي / ٢٦٥ ـ ٢٧١.

[٢٣] المشترك: (ما وضع لمعنى كثير بوضع كثير) التعريفات، الجرجاني / ١٧٤.

[٢٤] (ظ) العين، الفراهيدي: ٣/ ٦٣، الصحاح، الجوهري: ١/ ١٢١، معجم مقاييس اللغة. ابن فارس: ٥/ ٤٧٥.

[٢٥] ينقسم المشترك على نوعين: الاشتراك المعنوي، وهو: (كون اللفظ موضوعاً لمعنى واحد، وهذا المعنى الواحد ينطوي على معانٍ متعددة) استناداً إلى المناسبة، كما في أولاد الحسين عليه السلام، فان كل واحد منهم مسمى (عليٌ) والتمييز بينهم بالأكبر والأوسط والأصغر. (ظ) مفتاح الوصول إلى علم الأصول، أستاذنا الشيخ د. البهادلي: ١ / ٢٥٢، والاشتراك اللفظي وهو: (ان يوضع

اللفظ لمعنى ثم يوضع لمعنى آخر وربما يوضع بوضعٍ ثالث أو أكثر، لمعنى ثالث أو أكثر)، كما في وضع عين للجارية والجارحة..... وغيرها (ظ) مقتنيات الدرر، الحائري: ١ / ٢٥٢، رسالة الماجستير للباحث / ٢٤٥.

[٢٦] المحصول في علم الأصول، الرازي: ١ / ٢٦٢.

[٢٧] (ظ) مفاتيح الغيب، الرازي: ١٠ / ١٧ـ ٢٢.

[٢٨] (ظ) معالم الدين في الأصول، جمال الدين الحسن: ١ / ٢٤.

[٢٩] (ظ) عدة الأصول، الطوسي: ١ / ٤١، مصابيح الأصول، تقرير بحث الخوئي، للسيد علاء الدين بحر العلوم: ١ / ١٤٤، وفيه: (أن حمل المشترك على إرادة جميع المعاني خلاف التعهد والالتزام)، والتعهد عنده هو: (التزام الواضع على نفسه انه متى جاء باللفظ الخاص فلا يريد إلا معنى مخصوصاً)، والقول بالاشتراك لا يتلاءم مع تعهده ثانياً، انه متى جاء بذلك اللفظ الخاص فهو يريد منه آخر غير الأول. (ظ) م. ن: ١ / ١٤١.

[٣٠] (ظ) العين، الفراهيدي: ٧/ ١٦.

[٣١] (ظ) المحصول في علم الأصول، الرازي: ٢/ ١٠٠، الرسائل التسع، المحقق الحلي: ١٦٦، هداية المسترشدين، محمد تقي / ٥٧، إذ يقول: (أن الغالب في الألفاظ المستعملة في المعنيين أن يكون حقيقة في القدر المشترك).

[٣٢] أصول الفقه، المظفر: ١/ ٣١، و (ظ) إرشاد الفحول، الشوكاني: ١٨ـ١٩.

[٣٣] (ظ) المستصفى، الغزالي/ ٢٦، المحصول، الرازي: ١/ ٢٦٧، الاحكام، الامدي: ١/ ٢٢، الفصول الغروية، الحائري/ ٣٨، الكفاية، الاخوند/ ٣٥. مقتنيات الدرر، ميرعلي الحائري: ٣/ ٢٣.

[٣٤] (ظ) محاضرات آية الله فاضل الصفار، شرح أصول المظفرالقيت على طلبة البحث الخارج حوزة ابن فهد الحلي- كربلاء.

[٣٥] مفاتيح الغيب، الرازي: ١٠ / ٢٢.

[٣٦] (ظ) من كتب التفسير: تفسير العياشي، العياشي: ١/ ٢٣٠، تفسير القمي، القمي: ١/ ١٣٤، حقائق التأويل، الشريف الرضي/ ٣١٤، التبيان، الطوسي: ٣/ ١٥٤، الكشف والبيان، الثعلبي: ٣/ ٢٨٠، أسباب نزول الآيات، الواحدي/ ٩٨، روح المعاني، الآلوسي: ٥/ ١٢.

[٣٧] ذهب أبو حنيفة إلى حُرمة نُكاح مزنية الأب، (ظ) الدر المختار، الحصكفي: ٣/ ٥، بينما قال الشافعي بجوازه (ظ): الام، الشافعي: ٥/ ٢٦.

الشيخ د. محمد الغراوي
باحث إسلامي/ النجف الأشرف

تطور البحث الأصولي
وسمات المنهج العلمي عند الوحيد البهبهاني

المطلب الأول: تطور البحث الأصولي قبل عصر الوحيد البهبهاني.

إذا أردنا أن نتعرف على ما قدّمه الوحيد البهبهاني وما غيّره أو جدّده في علم الأصول، يلزم علينا مقارنة كتاباته بالكتب والمناهج والأساليب السابقة عليه، وخاصة تلك الكتابات المقاربة لعصره، لأنها تمثل آخر ما وصل إليه تراثنا العلمي من تطور في المطالب والمناهج.

وقد حاولت أن أتعرف على ما أحدثه الوحيد من تغيير في البحث الأصولي، فكان من الضروري مراجعة الكتب الأصولية المقاربة لعصره، لما ذكرت من أنها تمثل خلاصة ما وصلت إليه البحوث الأصولية من عمق وتطور، وأقارنها بما قدّمه الوحيد في (فوائده الحائرية) من بحوث أصولية ظلّت تحتفظ بحيويتها حتى عصرنا الحاضر.

فأثر الصراع العلمي الذي بدأه محمد أمين الاسترابادي (ت١٠٣٣هـ) ظهر في

سماء علم الأصول علماء كبار ساهموا باثراء هذا العلم وتحكيم أسسه ومبانيه، من خلال ما قدّموه من بحوث وتحقيقات ساهمت في تقنين هذا العلم وإيجاد تغييرات على صعيد المنهج وأساليب البحث الأصولي.

وكان لهذا الحراك العلمي الذي نهض به جملة من العلماء دور كبير في إنعاش البحوث الأصولية وتنشيطها من جديد.

وهنا ينبغي الإشارة إلى الدور الذي قام به علماء كبار قدّموا جهوداً علمية على صعيد التحقيق والتأليف في مجال علم الأصول، كان لها الدور الكبير في انضاج مدرسة الوحيد البهبهاني ودعمها ومن بعده الشيخ الأنصاري، أمثال: (سلطان العلماء)[1]، والفاضل التوني[2] الذي سبق معاصريه، ومحمد صالح المازندراني[3]، والمحقق الخوانساري حسين بن محمد بن الحسين (ت١٠٩٨هـ)[4]، ومن الذين أسهوا في هذا المجال محمد بن الحسن الشيرواني (ت١٠٩٨هـ)[5]، وهو أستاذ والد الوحيد البهبهاني، وله حاشية على قواعد العلامة، وتعليقة على (معالم الأصول)، كما له تعليقة على مختصر ابن الحاجب.

وكذا الفاضل الهندي[6].

وأخيراً نشير إلى الجهود العلمية التي قدّمها صدر الدين القمي (ت١٠٧٠هـ) تلميذ الشيرواني وأستاذ الوحيد البهبهاني، له شرح على (الوافية)[7] للفاضل التوني.

إن القرن الحادي عشر الهجري هو عصر المعارضة المدروسة بشكل علمي لمدرسة الاجتهاد الامامي كما أشرنا إلى ذلك.

والذي يقارن بين (الوافية) و (الزبدة) للشيخ البهائي (ت١٠٣٠هـ) في المنهج والأسلوب بالرغم من تقاربهما في التأليف، إذ فرغ

الفاضل التوني من تأليف الوافية عام ١٠٥٩هـ، بينما فرغ الشيخ البهائي من تأليف (الزبدة) عام ١٠٠٥هـ، يجد أنّ (معالم الأصول) للشيخ حسن بن الشهيد الثاني (ت١٠١١هـ) من أهم الكتب التي لمعت في القرن العاشر الهجري، وقد تمثلت فيه المنهجية والنضج للمدرسة الأصولية آنذاك، فقد جمع المباحث الأصولية كلها في تسعة مطالب وخاتمة.

فخصّص المطلب الأول: لنبذة من مباحث الألفاظ كالحقيقة والمجاز، والاشتراك، واستعمال اللفظ في أكثر من معنى[٨].

والمطلب الثاني: بالأوامر والنواهي، بما فيها مباحث مقدمة الواجب، والضد، والمفاهيم، واجتماع الأمر والنهي، ودلالة النهي على الفساد[٩].

بينما جعل المطلب الثالث والرابع في العموم والخصوص، والمطلق والمقيد والمجمل والمبيّن[١٠].

والمطلب الخامس: في الإجماع[١١].

والمطلب السادس: في الأخبار[١٢].

والمطلب السابع: في النسخ[١٣].

والمطلب الثامن: في القياس والاستصحاب[١٤].

والمطلب التاسع: في الاجتهاد والتقليد[١٥].

والخاتمة: في التعادل والتراجيح[١٦].

أما (الزبدة) للشيخ البهائي فقد جعلها في خمسة مناهج:

المنهج الأول: في المقدمات والمبادئ المنطقية واللغوية والأحكامية[١٧].

المنهج الثاني: في الأدلة الشرعية من الكتاب، والسنة، والإجماع، والاستصحاب، وأنواع القياس[١٨].

المنهج الثالث: في مشتركات الكتاب والسنة، وهي:

الأوامر والنواهي، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل

والمبيّن، والظاهر، والمنطوق، والمفهوم، والنسخ[١٩].

المنهج الرابع في الاجتهاد والتقليد[٢٠].

المنهج الخامس: في الترجيحات[٢١].

بينما نجد (الوافية) وهي ثالث الكتب الأصولية في القرن الحادي عشر الهجري، والذي امتاز بخصائص دعت المعاصرين من أعلام ذلك القرن والمتأخرين منهم إلى الاهتمام بها شرحاً ونقداً وتأليفاً[٢٢].

فقد امتاز الفاضل التوني بوضوح التعبير وسلامته، والتهرب من التعقيد في طرح المطالب التي يريد إيصالها إلى الطالب، إضافة إلى الإحاطة بالآراء والأدلة لجميع المذاهب الإسلامية سنية وشيعية، والقاء النظرة الشمولية على ما هو مطروح في ساحة الصراع العلمي آنذاك.

والذي يطالع كتاب (الوافية) يلمس أيضاً الموضوعية التي يتحلّى بها الفاضل التوني وعدم التحيز إلى فئة أو مذهب، حتى انه خالف المشهور (مشهور الامامية) في مبحث خطاب المشافهة، فقال:

(إنها ليست مختصة بالموجودين في زمن الوحي... ولا مختصة بحاضري مجلس النبي ﷺ خلافاً للأكثر ممن صنّف من الشيعة)[٢٣].

ومن هنا ظهرت لصاحب الوافية ميزة أخرى، وهي جرأته في مخالفة المشهور، وعدم السير وراء كل ما هو معروف.

لقد قسّم الفاضل التوني كتابه (الوافية) إلى مقدمة وستة أبواب، اشتملت المقدمة على التعريف بأصول الفقه، وأصول الفقه، والحقيقة والمجاز، وأقسام الحقيقة، وتردد اللفظ بين الحقيقة والمجاز والنقل والتخصيص والاشتراك والإضمار[٢٤].

وستة أبواب: حيث انعقد الباب الأول: للحديث في الأمر والنهي[٢٥].

أما الباب الثاني: فخصصه للبحث في العام والخاص[٢٦].

والباب الثالث: في الأدلة الشرعية، وجعله في فصول:

الأول: في الكتاب.

الثاني: في الإجماع.

الثالث: في السنة[٢٧].

والباب الرابع: في الأدلة العقلية، وجعله أقساماً:

١. فيما يستقل بحكمه العقل.

٢. استصحاب حال العقل.

٣. أصالة النفي أو البراءة الأصلية.

٤. الأخذ بالقدر المتيقن.

٥. التمسك بعدم الدليل.

٦. استصحاب حال الشرع.

٧. التلازم بين الحكمين[٢٨].

والباب الخامس: في الاجتهاد والتقليد[٢٩].

والباب السادس: في التعادل والتراجيح[٣٠].

لقد اهتم الفاضل التوني بالجانب التربوي وطرح البحوث بنحو يقود الطالب إلى التدبر والاجتهاد والاعتماد على النفس لفهم جملة من البحوث، والتمرن على تقوية الجانب العقلي، حيث لا نستبعد أن يكون الجمود الفكري والانغلاق على النفس عاملاً مهماً في تشجيع حالة التبعية والتقليد الملازمة للكسل وعدم النشاط العقلي، والذي أدّى إلى نشوء الاتجاه الاخباري، منعكساً في حالة التخوف من الابتعاد عن النص بزعم الخوف من الخروج عن صراط الدين، على الرغم من أنّ النصوص الدينية تؤكد أهمية العقل وتحث على التعقل والتفكير والتدبر.

فقد قام الفاضل التوني بتقسيم الأدلة:

إلى شرعية: وهي، الكتاب،

والسنة، والإجماع.

وعقلية، والعقلية إلى مستقلات، وغير مستقلات.

وقام بإدراج مباحث مقدمة الواجب، والضد، والمنطوق غير الصريح، والمفاهيم، والقياس في الأدلة العقلية، بينما أدرجها معاصروه في المباحث اللفظية.

كما أدرج جملة من المباحث التي عرفت فيما بعد بـ (الأصول العملية) ضمن الأدلة العقلية باعتبار أن الاعتماد فيها كان على الجانب العقلي الذي يدعمها لا النص الشرعي كمبحثي حال العقل واستصحاب حال الشرع، وكمبحثي أصالة النفي والأخذ بالقدر المتيقن.

وقد ميّز جملة من المباحث وأخرجها من علم الأصول فنياً بالرغم من حاجة الأصولي إليها، مثل: التكليف مع العلم بانتفاء الشرط، والواجب الموسّع، وتعلق الأمر بالمعدوم، وتكليف الغافل، والمكره، وتعلق الأمر والنهي بشيء واحد.

والبحوث التي اعتبرها غير مفيدة هي: مبحث خطاب المشافهة، والنزاع في تحريف القرآن.

والبحوث التي اعتبرها قليلة الفائدة هي مباحث الحقيقة الشرعية، والواجب التخييري، وبقاء الجواز بعد نسخ الوجوب، والبحث عن التواتر.

وهناك بحوث لم يتطرق لها أصلاً، وهي: الصحيح والأعم، وكثير من بحوث الفعل والتقرير من باب السنة، وكثير من مباحث الإجماع، وكثير من مباحث المطلق، والمقيد، والمجمل والمبيّن، والاشتراك، واستعمال اللفظ في أكثر من معنى وبعض مباحث النهي والتخصيص والنسخ.

كما يلمس المتتبع لكتاب (الوافية) تركيز الفاضل التوني على الأدلة العقلية وانتهاج المنهج العقلي في

المحكمة والنقد والتأييد، والذي تجلّى في مواجهته للحركة الاخبارية والتصدّي لما طرحه الاسترابادي في مجال إدانة العقل، وفي مجال الاجتهاد والتقليد، والحاجة لتصحيح الأخبار اعتماداً على علمي الدراية والرجال، وتحديد الحاجة الواقعية لكل مبحث من المباحث الأصولية والكلامية واللغوية وغيرها من العلوم التي يتوقف الاجتهاد والاستنباط عليها.

من كل ما تقدم نستخلص أن الفاضل التوني كان أصولياً مبدعاً في المنهج والمادة والأسلوب، فكان من أولئك الأوائل الذي أسهموا في تحقيقاتهم في إحكام بناء على الأصول وتقنيته واحداث تغييرات جوهرية هامّة في بنائه، بالرغم من أنه لم يكن له دور حاسم في تطويق الاتجاه الاخباري الذي كان الخصم العنيد لعلم أصول الفقه، حيث استطاع أن يهيمن على الجو الديني للشيعة، ومن ثم يوقف تقدم هذا العلم.

لكن سرعان ما تغيَّرت الأجواء في الثلث الأخير من القرن المذكور بظهور الوحيد البهبهاني (ت١٢٠٥هـ)، إذ استطاع بما بذله من سعي جاد وجهد حثيث من نشر الفكر الأصولي وإشاعته ومواجهة نمط الفكر الاخباري أن يعيد إلى العلم حياته ورونقه ويساهم في انتشاره بسرعة، أما طريقة الوحيد البهبهاني في ترتيب هذه البحوث فقد اختلفت في (الفوائد الحائرية) بعض الشيء عن الهيكل العام لتبويب من تقدّم عليه.

فإذا عدنا إلى الوحيد وجدناه قد قسّم (فوائده الحائرية) إلى الفوائد القديمة والفوائد الجديدة، وهي ما استدركه على فوائده القديمة، فقد تناول في الفوائد القديمة ستاً وثلاثين فائدة:

تكلم في الفائدة الأولى عن خطورة مقام الفقاهة وعظمته مستعرضاً جملة

من الآيات والروايات الواردة في الفقه[٣١].

أما الفائدة الثانية: فأفاض الحديث فيها عن توقيفية الأحكام الشرعية، وجواز أخذ عنوان المعاملات من غير الشارع[٣٢]، موضحاً أن طريقة الاستدلال في العبادات مغايرة لطريقته في المعاملات.

والفائدة الثالثة: في بيان عدم ثبوت مجموع الأجزاء الواجبة وشروطها من النص إلاّ نادراً[٣٣].

والفائدة الرابعة والخامسة: في أن الحقيقة الشرعية ثابتة أم لا؟ متناولاً الأقوال في ذلك ذاكراً الأدلة على جواز أخذ عنوان المعاملات من غير الشارع[٣٤].

أما الفائدة السادسة فكرّسها للحديث عن عدم جواز العمل بالظن مطلقاً إلاّ ظن المجتهد الحي المستجمع لشرائط الفتوى والمقلَّد في المسائل الاجتهادية[٣٥].

وفي الفائدة السابعة: بعد أن أثبت حجية الظن الشرعي لا مطلق الظن، توجه إلى الاخباريين الذين أدّعوا لزوم العلم في الأحكام والعبادات وتنزلهم عن ذلك إلى الظن لعدم إمكان تحصيل العلم، موضحاً أن الاخباريين يعملون بالظن الذي يتوهمونه علماً، فمثلاً شهادة العدلين حجة ولكن لا من جهة افادتها الظن، بل من جهة أن دليل حجيتها يقيني، ولو لم يكن دليلها يقينياً لما حصل فرق بين هذا الظن والظن الحاصل من شهادة فاسقين، فالحجة ليس نفس الظن وشهادة العدلين بل الدليل الدال على حجية هذه الشهادة، وهكذا فإن عمل المجتهد بخبر الواحد ينشأ من الدليل العلمي على حجيته[٣٦].

الفائدة الثامنة: في الرد على الاخباريين الذين قالوا بعدم جواز التقليد لغير المعصوم عليه السلام[٣٧].

أما الفائدة التاسعة: في حجية

الظهور القرآني[٣٨].

الفائدة العاشرة: في حجية خبر الآحاد[٣٩].

الفائدة الحادية عشرة: في حجية القياس المنصوص العلة[٤٠].

الفائدة الثانية عشرة: خصصها للحديث فيما إذا خوطب جماعة هل يعم غير المشافهين[٤١].

الفائدة الثالثة عشرة: في مدلول الأمر والنهي[٤٢].

الفائدة الرابعة عشرة: إذا وقع النهي عن شيء فهل يقتضي ذلك فساد الشيء فيكون الفساد مدلولاً التزامياً أم لا؟[٤٣].

الفائدة الخامسة عشرة: في النهي عن المعاملات[٤٤].

الفائدة السادسة عشرة: في ورود الأمر في مقام الخطر[٤٥].

الفائدة السابعة عشرة: في مفهوم الشرط وغيره[٤٦].

الفائدة الثامنة عشرة: في دلالة المحلّى باللام على العموم[٤٧].

الفائدة التاسعة عشرة: في عدم جواز العمل بالعام قبل الفحص عن المخصص[٤٨].

الفائدة العشرون: في تعارض الخبرين[٤٩].

الفائدة الاحدى والعشرون: في المرجحات المنصوص عليها[٥٠].

الفائدة الثانية والعشرون: في المرجحات التي اعتبرها الفقهاء زائداً عمّا في النصوص[٥١].

الفائدة الثالثة والعشرون: في الجمع بين الخبرين المتعارضين[٥٢].

الفائدة الرابعة والعشرون: في أصالة البراءة[٥٣].

الفائدة الخامسة والعشرون: في تمسك المجتهد بأصل البراءة[٥٤].

الفائدة السادسة والعشرون: في مناقشة رأي المقدس الأردبيلي في

عبادات الجاهل[٥٥].

الفائدة السابعة والعشرون: في الاستصحاب[٥٦].

الفائدة الثامنة والعشرون: في حجية القرآن[٥٧].

الفائدة التاسعة والعشرون: في التعدّي عن مورد النصوص في الفقه[٥٨].

الفائدة الثلاثون: في طرق ثبوت الأحكام الشرعية[٥٩].

الفائدة الحادية والثلاثون: في أقسام الإجماع[٦٠].

الفائدة الثانية والثلاثون: ما هو الأصل في فعل المعصوم[٦١].

الفائدة الثالثة والثلاثون: في تعارض الأدلة والنصوص[٦٢].

الفائدة الرابعة والثلاثون: في علامات الحقيقة والمجاز[٦٣].

الفائدة الخامسة والثلاثون: في المشتق[٦٤].

الفائدة السادسة والثلاثون: في ذكر شرائط الاجتهاد على سبيل الاجمال[٦٥].

الخاتمة: وختم فوائده القديمة بالحديث عن خطورة الاجتهاد[٦٦].

أما في الفوائد الحائرية الجديدة فقد تناول خمساً وثلاثين فائدة تناول في:

الفائدة الأولى: في إخلال ما يثبت جزئيته أو شرطيته للعبادة[٦٧].

الفائدة الثانية: في مناط كون الحكم تقية[٦٨].

الفائدة الثالثة: هي الغاية داخلة في المغيّى أم لا؟[٦٩].

الفائدة الرابعة: تأخير البيان عن وقت الخطاب جائز[٧٠].

الفائدة الخامسة: المطل يرجع إلى العموم بشرطين[٧١].

الفائدة السادسة: في الحسن والقبح العقليين[٧٢].

الفائدة السابعة: في الرد على

الأشاعرة في كون العبد فاعلاً لفعله[٧٣].

الفائدة الثامنة: ردّه على من أنكر حجية الاجماعات المنقولة[٧٤].

الفائدة التاسعة: في التكليف بالمجمل[٧٥].

الفائدة العاشرة: رده على بعض الاخباريين في إنكار إجماع الفقهاء[٧٦].

الفائدة الحادية عشرة: في اشكال القول بوجوب الغسل لنفسه[٧٧].

الفائدة الثانية عشرة: في وجوب حمل المطلق على المقيد[٧٨].

الفائدة الثالثة عشرة: الأصل بقاء حكم الشريعة السابعة[٧٩].

الفائدة الرابعة عشرة: في عدم معذورية الجاهل[٨٠].

الفائدة الخامسة عشرة: في إجراء أحكام المبدل منه على البدل[٨١].

الفائدة السادسة عشرة: في الاستدلال على صحة العقود الخلافية[٨٢].

الفائدة السابعة عشرة: فيما إذا تعذر بعض أجزاء الواجب[٨٣].

الفائدة الثامنة عشرة: هل الواو تفيد الترتيب أم لا؟[٨٤].

الفائدة التاسعة عشرة: فيما لو شك في جزئية شيء أو شرطيته[٨٥].

الفائدة العشرون: في تحصيل البراءة بالظن الاجتهادي[٨٦].

الفائدة الحادية والعشرون: في الفرق بين الاحتياط ووجوب تحصيل البراءة اليقينية[٨٧].

الفائدة الثانية والعشرون: في عدم دلالة الأمر على الغور والتراخي[٨٨].

الفائدة الثالثة والعشرون: في حجية القياس المنصوص العلة وما هو بمنزلته[٨٩].

الفائدة الرابعة والعشرون: في المستثنى الواقع عقيب الحمل المتعددة[٩٠].

الفائدة الخامسة والعشرون: في تقليد المجتهد[٩١].

الفائدة السادسة والعشرون: في بيان معنى اعطاك من جراب النورة[٩٢].

الفائدة السابعة والعشرون: في بيان أن الأئمة عليهم السلام[٩٣] كانوا يتكلمون على طريقة المحاورات العرفية.

الفائدة الثامنة والعشرون: في الفرق بين مقام ثبوت التكليف ومقام الخروج من عهدته[٩٤].

الفائدة التاسعة والعشرون: في هل المعاملات كالعبادات توقيفية[٩٥].

الفائدة الثلاثون: في عدم جريان الأصل في لغات العبادة وغيرها[٩٦].

الفائدة الحادية والثلاثون: في حجية خبر الواحد الضعيف المنجبر[٩٧].

الفائدة الثانية والثلاثون: في عدم جواز التقليد في أصول الدين[٩٨].

الفائدة الثالثة والثلاثون: في الوظائف المحوّلة للمجتهد[٩٩].

الفائدة الرابعة والثلاثون: ردّ شبهة المانعين عن وجوب الاجتهاد[١٠٠].

الفائدة الخامسة والثلاثون: في أصالة الطهارة[١٠١].

لقد حاول الوحيد البهبهاني بحسب رأيه وضع كل بحث موضعه الطبيعي، واضافة بعض البحوث والمسائل وحذفها بما يتلائم ودورها في عملية الاستنباط، وترتيبها وتدرجها من حيث استفادة الفقيه منها.

فلم يتعرّض إلى مجرّد الأدلة النقلية، بل تعرّض للأدلة العقلية، وبذلك ساهم في ترتيب الأدلة الأصولية وتنسيقها بحسب الخطوات الأصولية، والأدلة المثمرة في ذلك.

والذي يظهر من خلال مراجعة المطالب الأصولية التي طرحها الوحيد في (الفوائد الحائرية) انه كانت تعتمل في ذهنه أفكار ومشاعر كثيرة في

مجال تهذيب الأصول وتغيير بحوثه بما يكون أكثر جدوى للفقيه في عملية الاستنباط، وأكثر اشتمالاً على المطالب الأصولية المحضة، وإعادة صياغتها وترتيبها بالصورة المنشودة بعدما رأى في الكتب السابقة والمعاصرة له من اختلاط في البحوث أو نقص أو زيادة فيها، أو تأكيد على النقل فحسب، أو العقل وحده مما دفعه إلى إحداث تغييرات في المطالب الأصولية.

المطلب الثاني: سمات المنهج العلمي عند الوحيد البهبهاني.

قبل الحديث حول سمات المنهج العلمي عند الوحيد وجدت لزاماً عليّ أن أتعرّض ولو بلمحة خاطفة عن منهج البحث في العلوم وخاصة في الفقه والأصول ليتسنى لي الدخول إلى منهج الوحيد في بحوثه الأصولية للكشف عمّا تملكه هذه البحوث من عمق وقوة وتوسع وآراء فاعلة في مختلف المجالات.

فالمنهج:

ومعناه في اللغة: الطريق الواضح[١٠٢].

وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي بعض التعاريف واختار هذا التعريف:

(الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة)[١٠٣].

وعُرِّف أيضاً بأنه: (طريقة يصل بها الإنسان إلى الحقيقة)[١٠٤].

وقد انتهى الدكتور عبد الأمير زاهد بعد ذكره لطائفة من التعاريف إلى أن المنهج:

(هو الموجِّه المعياري لأي نشاط فكري مكوّن من قواعد خاصة مبرهن عليها متناسبة مع طبيعة العلم المبحوث)[١٠٥].

والذي يبدو من هذه التعاريف أنها تدور حول محور واحد مع اختلاف في التعبير فالمنهج هو الطريقة التي ينظم الباحث بها أفكاره ليصل من خلالها إلى النتيجة المطلوبة، أو هو البرنامج الذي يحدد لنا مسالك للوصول إلى الحقيقة، أو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم.

أقسام المنهج: يقسم المنهج تقسيماً أولياً إلى قسمين:

١ـ **المنهج التلقائي**: وهو النمط العفوي من التفكير العقلاني المنظم ـ ولو بأبسط صوره ـ ونلحظه عند أكثر الناس، فإنهم لا يسيرون في أفكارهم إلاّ على وفق قواعد معينة (وذلك أن الإنسان في تفكيره قد ينظّم أفكاره فيما بينها، حتى تتأدّى إلى المطلوب على أيسر وجه وأحسنه، على نحو طبيعي تلقائي ليس فيه تحديد ولا تأمل قواعد معلومة من قبل)[١٠٦].

فصاحب العقل السليم قد ينظّم أفكاره بصورة صحيحة يصل من خلالها إلى النتيجة المطلوبة، دون أن يكون عارفاً بالقواعد المعيِّنة للتفكير الصحيح.

وقد أشار إلى هذا المنهج مناطقة بورث رويال بقولهم: (إنّ عقلاً سليماً يستطيع أن يصل إلى الحقيقة في نطاق البحث الذي يقوم به بدون أن يعرف قواعد الاستدلال)[١٠٧].

٢ـ **المنهج التأملي**: وهو المنهج المرسوم من قبل بطريقة تأملية (وإنما جاء نتيجة التأمل في المنهج الذي سرنا عليه في تحصيلنا لمعارفنا العلمية، وتحديد قواعده وأصوله، حيث نتوصل بذلك إلى طائفة من القواعد الكلية التي تخضع لها في المستقبل طرائق بحثنا)[١٠٨].

ويظهر من ذلك أن المنهج التأملي يعني اعتماد القواعد التي تسير عليها العقول السليمة، لاكتشاف المعارف المجهولة، وهذا المنهج هو الذي

نبحث عن سماته هنا، وهو المعنى الشائع المفهوم عادةً حين البحث عن المنهج، ففي ظل هذا المنهج يكون الباحث ملتفتاً إلى القواعد التي عليه أن يتبعها في بحثه من أجل الوصول إلى الحقيقة.

وقد قُسِّم المنهج التأملي إلى:

١ـ المنهج النقلي.

٢ـ المنهج العقلي.

٣ـ المنهج التجريبي.

٤ـ المنهج الوجداني[١٠٩].

المنهج النقلي: ويستخدم هذا المنهج في الدراسات التاريخية والأدبية عادةً وكل مرجعيته النص والأثر، ولذلك يستخدم كثيراً في الدراسات الفقهية والأصولية والتفسير وأصول الرواية وعلم البيان والكلام، والروايات الصادرة عن المعصومين عليهم السلام ويُعرَّف بأنه (طريقة دراسة النصوص المنقولة)[١١٠].

وعلى الباحث في هذه المجالات أن يمرّ بالمراحل التالية في سبيل الافادة أو نقد النصوص سواء خارجياً أو داخلياً.

المرحلة الأولى ـ توثيق النص: ومعنى توثيق النص: (التأكد من صحة صدور النص من قائله)[١١١]، ففي الروايات المنقولة عن المعصوم عليه السلام يجب أن نتأكد من صحة صدورها عنه، إذ لا معنى للبحث عنها واستنباط الحكم منها والتعبد بمدلولها ما لم تكن صادرة عن المعصوم، وقد ذكر الباحثون[١١٢] قواعد وبحوثاً في توثيق النصوص سميت بمباحث الاسناد وعلم الدراية.

المرحلة الثانية ـ تحقيق النص: والمقصود به عدم تعرض النص للتحريف، أو التصحيف، أو الزيادة، أو النقيصة وغيرها، بمعنى فحص المتن للتأكد من سلامته بعد التأكد من أنه منسوب إلى مؤلفه[١١٣] وتسمى مباحث المتن إذ يلاحظ فيها مدى

تطابق المضمون الروائي مع النص القرآني أو النص المتواتر أو المعنى المعقول المتداول.

وقد درس علماؤنا هاتين المرحلتين بصورة موسَّعة وعميقة في علم الرجال والدراية كما تعرّضوا لذلك خلال بحوثهم الأصولية والفقهية خاصة.

ويمكن أن نضيف للمرحلة الثانية صورة التأكد من جهة النص في مصطلح الوحيد البهبهاني ويعني به التأكد من عدم صدور الرواية تقية[١١٤]، أي صدور الرواية لا على سبيل العمل والاعتماد إنما على سبيل اتقاء شر السلاطين والحكام أو غيرها من الأسباب التي لا تعبّر فيها الرواية عن الحكم الواقعي، إذ مع صدورها تقية عن المعصوم عليه السلام لا يمكن استنباط الحكم منها.

المرحلة الثالثة ـ فهم النص: ويستخدم في ذلك الوسائل المعينة لفهم دلالة النص، ومنها فهم دلالة الآيات والروايات من خلال مسالك الدلالة المتعددة ومنها الظهور والدلالة والإشارة والايماء والاقتضاء، ومباحث الألفاظ التي يستعين بها الفقيه للتعرف على دلالة النصوص.

وقد أشار علماء الأصول إلى أن هناك مراحل يلزم أن يمرَّ بها النص الشرعي ليكون حجة ويؤخذ به[١١٥] وهذا يدل على توجه علمائنا للمنهجية المعتبرة في دراسة النصوص.

وهو يؤكد أيضاً أن المنهج المتبع في بحوثهم هو منهج تأملي وليس انتقائياً.

ونحن عند دراستنا للنصوص الشرعية إنما نريد التعبد بها، كما كان أولئك الذين سمعوها من المعصوم، وهذا يعتمد على اعتبار المصدر والنص، وحجيته، والوثوق بصدوره فهو إذن يعتمد على محورية النص صدوراً ودلالة، ولكن الاعتقاد بالمعصوم وبحجية كلامه يتوقف على الأدلة

العقلية أو الاستقراء أو فهم العرف.

المنهج العقلي: وقد عُرّف بأنه: (طريقة تعتمد الأسس البرهانية العقلية التي تهتم بدراسة الأفكار والمبادئ النظرية)[١١٦].

ومن أنواع هذا المنهج منطق ارسطو، وما أضافه فلاسفة الإسلام وغيرهم لهذا المنطق، حيث يتوصل إلى النتائج المطلوبة من خلال الطريقة القياسية، وقد فسّر القياس بأنه الآلية التي يتم الانتقال بها من العام إلى الخاص، وقد وضع ارسطو منطقه ليكون منهجاً للتفكير السليم، والتوصل من المعلوم إلى المجهول، وقد استمرّ هذا المنطق مسيطراً لقرون طويلة على طريقة الاستدلال، وهو المنهج المتّبع حالياً في البحث الكلامي والفلسفي والأصولي في الحوزات العلمية عند الشيعة الامامية[١١٧].

وقد تعرّض منطق أرسطو والقياس خاصة إلى هجوم عنيف من علماء الغرب وفلاسفته أمثال فرانسيس بيكون، وديكارت، وجون ستيوارت متذرعين بأنه منطق صوري يتم به الوصول إلى تصحيح القضايا والعلاقات.. بيد انه قاصر عن أن يكتشف معلومة جديدة لذلك صاروا إلى وضع قوانين الاستقراء ذاهبين إلى أن الاستقراء هو المنهج السليم الذي يلزم استخدامه في العلوم[١١٨] باعتبار انه نظام التجريب.

ومن أنواع المنهج العقلي المنهج الاستدلالي، وهو عبارة عن (التسلسل المنطقي المنتقل من مبادئ أو قضايا أولية إلى قضايا تنتج عنها بالضرورة دون التجاء إلى التجربة، وذلك في مقابل المنهج الاستقرائي والتجريبي القائم على الملاحظة والتجربة[١١٩] ويضاف إلى هذه المناهج التي ذكرتها المنهج التكاملي وهو (استخدام أكثر من منهج في البحث بحيث تتكامل ما بينها في

وضع وتطبيق مستلزمات البحث)[١٢٠] فهو منهج تركيبي من عدة مناهج.

إلى هنا كنا نبحث عن المناهج العامة التي يمكن استخدامها في مختلف العلوم، بحسب رأي أصحابها ولكن هناك مناهج خاصة وهي (مجموعة من القواعد وضعت لتستخدم في حقل خاص من حقول المعرفة، أو علم خاص من العلوم[١٢١].

هذا المنهج خاصةً هو الذي يهمنا أكثر في دراسة منهج الوحيد البهبهاني في بحوثه الأصولية، حيث سنتعرف على سمات منهجه العام في هذا المجال، إذ ربما لا يفي باحث غير متخصص بجميع سمات المنهج العلمي لدى الوحيد، لأن الاحاطة الشاملة في هذا الحقل من العلوم من مهمات أهل الاختصاص، فقد اكتفيت باقتناص ما يمكن توظيفه لبعض مفردات منهجه العلمي، والذي أفرز نتائج باهرة ما زالت تفرض وصايتها على البحث الأصولي:

١ـ الفهم الدقيق لمسالك الفقهاء الاقدمين وتقويمها ونقدها.

ليس من السهل اطلاق الأحكام على النتائج دون ضوابط ومقاييس ومراجعة مناسبة للتأكد من سلامة المقدمات والنتيجة التي تنتهي إليها، وتشتد الحاجة إلى تأكيد تلك المقاييس كلما كان البحث معقداً ودقيقاً وتترتب عليه نتائج ليست عادية في حياة الإنسان.

وقد استمدّ علم الأصول أهميته الكبيرة بالنسبة للموضوع الذي يعالجه، فهو علم (يمثل منهج عملية التفكير الفقهي في استنباط الأحكام)[١٢٢].

ويرى الوحيد البهبهاني أن الجهد العلمي والاستدلال الدقيق لا يكفي وحده في استخلاص النتيجة المطلوبة،

فهناك عامل آخر يتمثل بالجانب الذاتي يتعلق بالبعد النفسي، وذلك أن النفس البشرية معرَّضة إلى كثير من الشُبَه، وقد تؤدي إلى حجب الوضوح والوعي لدى المحققين.

إذ لا يخفى على المتتبع في علم الأصول أن مع وجود الامارات لا مكان لأصل البراءة مثلاً إلاّ أنا وجدنا السبزواري، محمد باقر (ت١٠٩٠هـ)[١٢٣] قد غفل عن هذا واستدلّ بأصالة البراءة في مواطن عديدة يستدل منها بالامارات ومنها في بحث فطرة عائلته الغائبة.

فقد استغرب الوحيد لمثل هذا الاستدلال، حيث قال: (وأعجب منه أنه قال: وقد عورض هذا الأصل بأصالة براءة الذمة[١٢٤]، ثم أجاب: إذ الأصل براءة الذمة فيما لم يقم عليه دليل شرعي، وأصل البقاء من أقوى الحجج الشرعية وعلى ذلك المدار في الفقه والفتاوى وعمل المسلمين في الاعصار والأمصار مع أن الأصل براءة ذمة العيال أيضاً عنده مع أن الكون الأصل براءة الذمة في وجوب النفقة باطل جزماً ووجوب الفطرة تابع له[١٢٥].

وهو مع ما كان يكنّه من احترام وتقديس للمقدس الأردبيلي (ت٩٩٣هـ) كما صرّح بذلك في مقدمته على حاشية (مجمع الفائدة والبرهان) حيث حشى الوحيد على قسم المعاملات من الكتاب المذكور بحواشي نقدية، فقد ذكر بأن علّة تحشيته لهذا الكتاب هو: (رأيته قد كبا جواده في بعض الميادين فأخذ يعترض على علمائنا الأساطين...)[١٢٦].

فعلى سبيل المثال: في مبحث خيار الشرط (هل يسقط الخيار مع تصرف المشتري بالمبيع أم لا؟ قال الأردبيلي في مقام القول بعدم سقوط خيار الشرط بمجرد التصرف: (هذا كله مع عدم الدليل أصلاً على ما رأيناه على سقوط خيار الشرط بالتصرف، مع

ثبوته بالدليل اليقيني مع الكتاب والسنة والإجماع[١٢٧].

وهنا علّق الوحيد البهبهاني بعد أن نقل الرواية الواردة وأن جميع الأصحاب فهم سقوط الخيار منها.

قال الوحيد: (إن عدم اطلاعه على الدليل لا يقضي عدمه، فإنه في غالب المواضع يناقش ويقول كذلك، فلو صحّت مناقشاته لم يبق للشرع والفقه أصلاً، ولم يوجد حكم شرعي إلاّ في غاية الندرة، وأين هذا من الدين والشريعة[١٢٨]؟

وإذا كان الأمر مع أمثال هؤلاء المحققين يقود إلى مثل هذا الواقع، فما بالك بمن ابطأ في تحقيق الحد الأدنى من اللياقة العلمية.

ومن ذلك أن السيد محمد بن علي الموسوي العاملي (ت١٠٠٩هـ) صاحب كتاب (مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام) في مقام الاستنباط لا يرى غير الكتاب والسنة الصحيحة المسلّمة في كل مسيرته العلمية[١٢٩]، وهذا المسلك قد تجلّى بشكل أصبح مشكلة جديدة في الفقه يتنافى مع ما كان عليه الفقه السابق ويختلف عنه، وقد بادر الوحيد في مقام ردّه وبيان خطر هذه الطريقة بقوله: (ولا شك في فساد المناقشة لاقتضائها سدّ باب إثبات الفقه بالمرة، إذ لا شبهة بأن عشر معشار الفقه لم يرد فيه حديث صحيح، والقدر الذي ورد فيه الصحيح لا يخلو ذلك الصحيح من اختلالات كثيرة بحسب السند وحسب المتن وبحسب الدلالة، ومن جهة التعارض بينه وبين الصحيح الآخر، أو القرآن، أو الإجماع)[١٣٠].

كل ذلك يظهر بوضوح مدى حرصه على التأمل التام، والتوقف المدروس ازاء هذه الظاهرة المخلّة بالبحث والنتائج العلمية.

ثم شرع في ذكر الاختلالات الكثيرة التي لا تحصى والتي وقعت بعد زمن

المعصوم عليه السلام، إذ لابد من علاجها، موضحاً انه وضع كتابه (الفوائد الحائرية) لأجل ذلك، ومن هذه الشُبه المثارة (انه لو ضاع من الاخباريين درهم أو فلس ليجتهدون غاية الجهد في تحصيله ويشتدون في الطلب ولا يسامحون، ولا يكتفون بقول من قال: ومن أين ثبت؟ ولا يقنعون بمجرد ذلك، بل يستفرغون الوسع في الفحص حتى أنهم لو لم يجدوا لا يرفعون اليد عن الفحص، ويعملون على وفق مضمون (من طلب شيئاً وجدَّ وَجَد)[١٣١]، و (من قرع باباً ولجّ وَلَج) وأين الفقه من الفلس؟ ولو تعاملوا فيه تعاملهم في الفلس لوجدوا كما وجده المحققون الأعاظم)[١٣٢].

فالذي يظهر من هذا أن الوحيد البهبهاني يؤكد أن الموقف السليم يتطلب المزيد من الحذر والتدقيق لما تنتهي إليه نتائج الباحثين في هذا اللون من العلم الدقيق.

٢ـ التوسع في البحث وإضافة مسائل وفروع وتنبيهات له

لم يتعرض لها غيره في هذا الموضوع، سواء لم يتعرضوا لها في كتبهم، أو تعرّضوا لها بصورة مقتضية وعابرة في الموضوع نفسه، أو تعرَّضوا لها في بحوث وأبواب متفرقة أخرى، فجمعها الوحيد ووسّع بها بحثه وقد يذكر رأيه في المسألة أخيراً، وغالباً ما يكون (والحق)، أو إعطاء قاعدة في المسألة تفيد الفقيه في عملية الاستنباط، وربما يذكر خلال البحث بعض المصطلحات أو القواعد العلمية بعد أن لم تكن سابقاً واضحة بمثل هذا الوضوح والتحديد لتدخل بعد ذلك في أذهان اللاحقين واستنباطهم.

فهو يعقد الفائدة الرابعة في كتابه (الفوائد الحائرية) للحديث عن جواز أخذ عنوان المعاملات من غير الشارع مستدلاً على ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَمَا**

﴿أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ وأيضاً: بالجزم بأن رسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام إذا تكلموا مع قوم وخاطبوهم لا يريدون منهم إلاّ ما هو مصطلحهم وما يفهمونه وإلاّ لزم الاغراء بالجهل وتكليف ما لا يطاق وهما قبيحان قطعاً.

كما استدلّ بأن الفائدة من الرسول ﷺ والامام عليه السلام ابلاغ الأحكام وتحصيل الانتظام للدنيا والآخرة ولا يتأتى إلاّ بالمخاطبة والافهام بها، ولا يحصل إلاّ بأن يريدوا منهم ما هو مصطلحهم وما يفهمون وما هو طريقتهم.

انتقل بعدها إلى الإجماع مشيراً إلى أن تتبع أحاديثهم يكشف عن ذلك وأنه أمر مجمع عليه بين المسلمين، مؤكداً أن ما تقتضيه الأدلة هو حجية عرف الشارع واصطلاحه مع الراوي والمخاطب خاصة وأنه هو الحجة لا اصطلاح أهل اللغة ولا اصطلاح عرف زماننا ولا العرف العام[١٣٣]، ولا الخاص[١٣٤]، ولا اصطلاح آخر.

وهكذا نجد الوحيد يعالج الموضوع وفق سياق محدد يعتمد على اطلاع في طبيعة المعالجة قائلاً: (فإن ثبت اصطلاح الشارع فهو المطلوب، وإلاّ فيرجع إلى عرفنا ونضم إليه أصالة عدم النقل، وعدم التغير والتعدد، وبقاء ما كان على ما كان، فنقول: معنى اللفظ على ما هو في عرفنا هذا كان كذلك في عرف زمان الشارع وفي اصطلاحه أيضاً، وفي اللغة أيضاً، إلاّ أن المقصود هو اصطلاح الشارع[١٣٥].

ثم يستعرض الأقوال في أن الحقيقة الشرعية ثابتة أم لا؟ وبعد أن ينقل اقوال القائلين بالثبوت مطلقاً والقائلين بالنفي مطلقاً ويبين فساد القولين وبعد ذكره للأقوال المخالفة لرأيه يعطي رأيه في الموضوع قائلاً: (والحق الثبوت في زمان الصادقين

عليهما السلام ومن بعدهما بشهادة الاستقراء وأن النزاع في ذلك وقع في زمانهما عليهما السلام أو ما قاربه، بل الظاهر الثبوت بالقياس إلى مثل الصلاة والصوم في زمن الرسول ﷺ، بل لا يبعد ذلك بالنسبة إلى ما قبل زمانه ﷺ لأن الأمم السابقة كان لهم صلاة وصوم وزكاة[١٣٦] كما أنه قد يذكر الدليل على رأيه المختار.

وهكذا يظهر لنا تنظيمه للبحث وتدرجه في خطواته بهذه الصورة المرتبة، من تحديد للموضوع وارتباطه بما قبله وذكر للآراء والأدلة ومناقشتها ثم ذكر رأيه النهائي.

كما أوضح لنا الوحيد أن هناك خلطاً بين أصلين مهمين لم يفرّق بينهما غالباً.

ويتضح ذلك من خلال ردّه على صاحب (المعالم) الذي أدّعى أن الأمر في أخبار الأئمة قد كثر استعماله في الاستحباب بحيث ارتفع الوثوق في الحمل على الوجوب[١٣٧].

وقد انبرى الوحيد للاجابة عن ذلك قائلاً:

(أن الأصل البقاء على المعنى اللغوي حتى يثبت خلافه، وبمجرد كثرة الاستعمال لا يثبت، مع أن صاحب المعالم رجّح في بحث الحقيقة الشرعية عدم الثبوت وكون الألفاظ باقية على المعنى اللغوي لأصالة عدم النقل، مع أن استعمال الأمر في الندب وإن كان كثيراً إلاّ أنه لو قسناه إلى كثرة الرواة وكثرة المعصومين كان قليلاً، وأكثر الأمر إنما ورد عنهم عليهم السلام[١٣٨].

٣ـ السمة الثالثة: تهذيب البحث وتحقيق مسالك الاستدلال وحصره بالأدلة المنتجة

قام الوحيد البهبهاني بحذف البحوث التي دأب علماء الشيعة على طرحها في كتبهم الأصولية خلال المراحل السابقة تقليداً لأهل السنة،

أمثال القياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة.

وكان لعزل الوحيد مثل هذه المسائل عن علم الأصول أثر في ابعاد بعض شبهات الاخباريين وايضاح طريقة علماء الشيعة في تدوين علم الأصول وهدفهم من دراسة المسائل الأصولية، فمصادر الاستنباط لديهم ليست بناقصة، بل إن هدفهم من تدوين علم الأصول هو التحقيق في الجوانب المختلفة لمصادر الفقه الإسلامي، والتوصل إلى الطريق الصحيح منها، فموضوع خبر الواحد مثلاً من المواضيع الأصولية التي عولجت من قبل الوحيد، فبحث حجية سند الخبر في باب حجية خبر الواحد، وحجية دلالته في باب حجية الظهور، وحجية الصدور[١٣٩]، وعلاج الأخبار المتعارضة في باب التعادل والتراجيح[١٤٠]، وجواز تخصيص عام الكتاب بخبر الواحد في باب العام والخاص، وهكذا الإجماع[١٤١] والاستصحاب[١٤٢] وسائر الموضوعات الأخرى.

كما تناول الوحيد موضوعات لم تطرح أصلاً في كتب السابقين، وموضوعات أخرى تناولتها كتب الأصول السابقة على مستوى سطحي وفي اطار ضيّق جداً مثل حجية الظن المطلق، والعلم الاجمالي، والمواضيع المتعلقة به كالاضطرار إلى بعض أطراف العلم الاجمالي والخروج من محل الابتلاء ومسائل أخرى.

٤ـ الطبيعة الشمولية والتكاملية في الاستدلال

وهو الأدلة لكل رأي ومناقشتها أو توجيهها وتفسيرها بصورة تكون معها أكثر قبولاً، وربما ناقشها أيضاً أو أيدها وربما طرح آراء واحتمالات أو أدلة في المسألة من ابداعه، وبعد ذلك يذكر أدلته المختاره، وغالباً ما يكون

رأيه موافقاً للمشهور ولكن لا تقليداً وإنما استدلالاً، وهنا تظهر براعة الوحيد البهبهاني، في المحاكمة والموازنة بين الآراء والأدلة.

وبهذا يخرج عن طور التبعية والتقليد، ويسلك مسلك التحقيق والتأسيس، فقد قال في اثبات حجية أسانيد الروايات التي هي مستند المشهور: (ومع جميع ما ذكر انجبرت بالشهرة بين الأصحاب، والخبر المنجبر وإن كان ضعيفاً، كما هو الحق المحقق في محله، والمسلَّم عند الفقهاء القدماء والمتأخرين إلاّ نادراً من متأخري المتأخرين لشبهة ضعيفة.. إلى أن قال: فانا لله وإنا إليه راجعون في موت الفقه، ألا ترى أنّ الشارح لا تكاد توجد مسألة فقهية خالية عن الاضطراب عنده)[١٤٣].

فاعراض المشهور عنده مهم جداً، وعدم الاعتناء به والفتوى بما أعرض المشهور عنه يوجب موت الفقه.

كما أنه يستفيد من مختلف الأدلة، من الآيات والروايات والاجماع والعقل والعقلاء والعرف واللغة والقواعد الأصولية.

ففي عنوان (ما أنكره الأشاعرة) كون العبد فاعلاً لفعله، إذ يقولون: إن الفاعل حقيقة هو الله والفعل فعله تعالى بحكم العقل، وإن كان فعل العبد بحسب اللغة والعرف، فقد شرع ببيان بطلان مذهبهم من خلال الاستدلال بالآيات الكريمة، وأنه لا معنى لأن يقول تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾[١٤٤]، و ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[١٤٥] و ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾[١٤٦]، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ...﴾[١٤٧]، ﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾[١٤٨]، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾[١٤٩]، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[١٥٠]، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[١٥١]، ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[١٥٢]، ومثل:

﴿يَفْسُقُونَ﴾[١٥٣]، ﴿وَعَصَوْا﴾[١٥٤] و﴿أَعْرَضُوا﴾[١٥٥]، ﴿يَزْعُمُونَ﴾[١٥٦]، و ﴿يَظُنُّونَ﴾[١٥٧]، و ﴿يَحْسَبُونَ﴾[١٥٨] مما لا معنى لنسبته إلى الله تعالى[١٥٩].

أما استفادته من الروايات في تثبيت الموضوع الذي يبحثه فإنه ينمُّ عن سعة اطلاع في هذا المجال، فقد قال في مقام الاستدلال على وجوب تحصيل العلم بالأحكام أو الظن الذي يُعلم اعتباره شرعاً بعد اشارته للآيات التي تنهى عن العمل بالظن والتقليد وما ليس بحق، شرع الوحيد البهبهاني في ذكر الروايات التي تنهى عن القول بالرأي أو الظن غير المعتبر شرعاً، وبعد أن نقل هذه الروايات أوضح أن الأصل عدم حجية الظن وأنه محل اتفاق أرباب المعقول والمنقول، إذ كل من قال بحجية ظن في موضع قال بدليل أُتي به له[١٦٠].

٥ـ الاهتمام بالجانب التربوي وطرح البحوث بنحو يقود الطالب إلى التدبر والاجتهاد والاعتماد على النفس لفهم جملة من البحوث والتمرن على تقوية الجانب العقلي، حيث لا نستبعد أن يكون الجمود الفكري والانغلاق على النفس عاملاً مهماً في تشجيع حالة التبعية والتقليد الملازمة للأغلبية وعدم النشاط العقلي المؤدي إلى نشوء الاتجاه الاخباري الذي تجلّى في حالة التخوف من الابتعاد عن النص على الرغم من أن النصوص الدينية تؤكد أهمية العقل وتحث على التعقل والتفكير والتدبر.

ويمكننا ملاحظة ذلك من خلال ما ذكره من الاختلافات المانعة من العلم والتي منها:

أ. اختلاط الصحيح والسقيم من الضوابط التي بناء فهم الأحاديث ومدار الاستنباط عليها في زماننا مثل أصل العدم وغيره.

ب. عدم معلومية اتحاد اصطلاحنا في أمثال زماننا مع اصطلاح

المعصوم عليه السلام في زمانه بالنسبة إلى كثير من الألفاظ، سيما إذا علم مغايرة اصطلاحنا مع اصطلاح أهل اللغة.

جـ. ومن ذلك أن جلّ المسائل الدينية بل كلها ذوات آداب وأحكام كثيرة، وأجزاء متعددة، وشرائط وموانع للصحة وبسبب ذلك يكون ثبوتها بمجموع أحاديث متلاحقة وكثير منها لا يهتدي إلى حق تحقيقها عقول الفحول وتعجز عن تنقيحها الأدلة من المعقول والمنقول.

د. ومن جملة الشبهة ومنع حصول العلم بسهولة كون حجية كل واحد من الطرق معركة لآراء الفقهاء الماهرين الأذكياء المتقدمين، ومن جملته عدم مدخلية العقل في الأحكام الشرعية[١٦١].

٦ـ وضوح الاسلوب وسهولة العبارة مع التركيز والدقة في عباراته وسلاستها وجزالتها وعذوبتها ومن هذا تصديه للفيض الكاشاني (ت١١٩١هـ) حيث ناقش الوحيد البهبهاني أكثر استظهاراته على الروايات، بأن ألّف كتاباً تحت عنوان (حاشية الوافي) وبدأ بمناقشة أكثر تفاسيره وتوجيهاته، وقد حاول أن يستفيد من بعض الروايات لابطال طريقة المجتهدين ويناقشها، نظير الرواية: (تقولوا إذا قلنا وتصمتوا إذا صمتنا)[١٦٢].

حيث قال الفيض الكاشاني معلّقاً عليها: وفي هذا القول دلالة واضحة على نفي الاجتهاد والقول بالرأي[١٦٣].

وهنا ردّ الوحيد بقوله: (وفيه دلالة على بطلان التحقيقات الصادرة من المؤلف في كتبه حتى ما ذكره في بيانات هذا الكتاب أيضاً مما لم يقل به)[١٦٤].

ونظير ذلك تعقيبه على قول المحقق الحلي، نجم الدين جعفر: (السوم شرط الوجوب.. فإنه لا يقال للمعلوفة سائمة في حال علفها)[١٦٥].

وهنا قال الوحيد في نقده للمحقق:

(ما ذكر من عدم صدق السائمة عليها حال علفها.. ففيه أن الظاهر عدم الخروج عن كونها عرفاً بذلك، كما لا يخرج الكلام عن العربية باشتماله على ما هو عجمي، وبالجملة المعتبر هو التسمية عرفاً وما يتبادر عندهم)[١٦٦].

ولذا وجدنا الوحيد يعقد عنواناً في كتابه (الفوائد الحائرية) على أن الأئمة كانوا يتكلمون على طريقة المحاورات العرفية[١٦٧].

وهكذا يتضح لنا عمق الفكرة عند الوحيد وابتكار في الآراء وتأسيسها.

٧ـ ومن التفاتاته وتدقيقاته توضيحه وابانته لمعنى بعض المصطلحات التي أدّى الخلط فيها إلى الوقوع في مخاصمات فارغة لدى الكثير من السطحيين، وهو بهذا يفرّق بدقة بين النزاعات اللفظية والمشاحات الاصطلاحية.

حيث أشار الوحيد معرّضاً بالاخباريين: أن من ليس له معرفة بأصول الفقه لا يميز بين الحقيقة والمجاز، فيخرِّب تخريباً كبيراً في الفقه، وربما لا يميز اصطلاحاً من اصطلاح ومن جملة ذلك أنهم ربما يرون اصطلاحاً وتعريفاً من فقيه فيتوهمون أنه اصطلاح المعصوم عليه السلام والراوي، ولا يدرون أنه اجتهاد منهم في حكم الشارع لا في معنى لفظ الشارع وظهور اصطلاح منه أو الراوي.

وعليه فلابدّ من معرفة أنّ فهم مدلول اللفظ إمّا بقرينة أو بوضع، والقرينة علامة المجاز، ومع عدمها يعلم أنّ اللفظ وضع لهذا المعنى، والوضع إمّا عن طريق واضع خاص أو بغلبة الاستعمال، والحقائق العرفية وغيرها من المنقولات وضعها من قبيل الثاني، لأن الظاهر انه ليس لها مخصّص خاص، ولذا يعبرون عنها بالاشتهار في الثاني[١٦٨].

٨ـ كما نرى الوحيد البهبهاني يحسن الأخذ بزمام المسائل الاصولية بعد أن

ينتزعها من يد خصمه انتزاعاً فنياً ويردّها إلى بابها كما فعل مع صاحب المدارك السيد محمد بن علي العاملي (ت١٠٠٩هـ) الذي أنكر حجية الإجماع المنقول، مستدلاً: بأن العلم بقول المعصوم غير ممكن في زماننا، لأن العلم برأيه يتوقف على العلم بآراء جميع المجتهدين حتى المجهولين منهم، وهو غير ممكن عادةً.

وإذا قيل بامكانه وحجيته فيما لو كان عدد العلماء محصوراً والوصول لآرائهم ممكناً، فانّا نقول: إن نقل مثل هذه الاجماعات يخرج الخبر من الاسناد إلى الارسال، وهو مما يمنع العمل به لأن المرسل ليس حجة[١٦٩].

فقد أجاب الوحيد على كلامه: إن صاحب المدارك قد أدّعى الإجماع في موارد كثيرة، سواء كان إجماعاً بسيطاً أو مركباً، وقد يستدل بالإجماع وحده، فكيف حصل له في هذه الاجماعات العلم بقول المعصوم ولم يحصل لغيره، فإذا أمكن له ذلك فاذن يمكن لغيره أيضاً[١٧٠].

وعليه فإنه يمكن العلم بقول المعصوم عن طريق الإجماع، والإجماع المنقول هو كسائر الأخبار التي تنقل عن المعصوم بغير واسطة حجة، والإجماع المنقول ليس خبراً مرسلاً، بل إنه غير عالٍ السند.

وأما قوله بعدم إمكان الوصول إلى الفقهاء مجهولي النسب فهو لا يضرّ بالإجماع، لما تقدم من عدم اشتراط مجهول النسب في الإجماع[١٧١].

٩ـ كما نرى الوحيد يؤسس للرأي وينفرد به كما فعل ذلك في اشتراطه جريان البراءة بشروط، حيث أشار إلى شروط جريان البراءة وهي:

أ. أن لا يكون جريانها مثبتاً لتكليف من جهة أخرى.

ب. أن لا يكون في مقام الاضرار بمسلم أو بمن في حكمه، لأن عموم نفي الضرر والاضرار الثابت عقلاً

وشرعاً يمنعه، بل لابد من الحكم بتدارك الضرر.

جـ. أن لا يكون المتمسك فيه جزء عبادة مركبة لأنها توقيفية، فإن ورد النص بالأجزاء فلا يمكن التمسك في النفي بالأصل، لأن اشتغال الذمة بها يقيني فلا يرفع بمجرد الاحتمال، ولأن الأصل عدم كونه عبادة.

د. أن التمسك بالبراءة إنما يتم بعد الفحص الكثير عن الدليل، لأنه ما دام هناك دليل فلا تصل النوبة للأصل، فإن الأصل في طول الدليل[١٧٢].

١٠ـ قد لا يوافق الآخرين في الرأي، ولكن لا يرتضي ما أقاموه حجة عليه، فيردها ويسوق لذلك الرأي برهاناً آخر.

كما وجدناه يناقش المقدس الأردبيلي (ت٩٩٣هـ) في عبادات الجاهل، حيث يرى المقدس الأردبيلي أن عبادات الجاهل إذا كانت مطابقة للواقع فهي صحيحة، لأنه قد جاء بالمأمور به، ولو كانت غير مطابقة للواقع فهي فاسدة، لأنه لم يأت بالمأمور به[١٧٣].

لذا فإن المقدس الأردبيلي لا يرى وجوب العلم شرطاً في المأمور به.

وقد ناقشه الوحيد قائلاً: إن أراد عدم معاقبة الجاهل أصلاً فهو غير تام، لما تقدم من أنّا نعلم بوجود التكليف حتى الأطفال منّا والنساء، فدعوى الجهل بالتكليف باطلة وغير مقبولة من كل أحد، وإن أراد أن الجاهل يستحق العقاب في ترك تحصيل العلم، فإذا كانت عبادته مطابقة للواقع فهي صحيحة، فهذا غير صحيح منه أيضاً، لأنه:

أولاً: لا يمكن تأتي القربة بدون العلم بالعبادة.

ثانياً: إنه لا فائدة للجاهل من تصحيح عبادته إذا لم يكن يعلم بصحة عبادته أو بطلانها غاية الأمر أن

الجاهل يظن انه قد أتى بها صحيحة، ولكنه لا يدري أن عمله مما أمرت به الشريعة أو لا؟

وعليه فإن الظن أو الزعم لوحده لا يكفي في صحة العبادة، لأنها لو كانت كافية لصحّت جميع عبادات المكلفين حتى لو كانت مخالفة للواقع، فزعم الجاهل غير كافٍ في صحة العبادة، بل لابدّ من العلم باتيان التكليف[١٧٤].

ثالثاً: إن ما استدل به الأردبيلي من الروايات (في الذي مرّ بالميقات ولم يحرم لجهل أو نسيان)[١٧٥] في عبادات الجاهل غير تام، لوجود مفاسد كثيرة تترتب على ذلك، فمثلاً ورد في رواية أن عمار تيمم في سفره ولم يكن ذلك مطابقاً للواقع، فقال له النبي صلى الله عليه وآله لِمَ لم تتيمم بشكل صحيح؟[١٧٦] فلو كان كلامه صلى الله عليه وآله انه لو تيممت بشكل صحيح ولو لم تأخذه مني كان مجزياً، لكان لازمه عدم معاقبة أي مكلف ترك التعلم الذي هو فريضة على كل مسلم، ولجاز له أن يأخذ عباداته التي هي توقيفية من الشارع، وله أن يكتفي في مقام الامتثال بصرف توهم الاكتفاء، وجميع هذه توالي فاسدة[١٧٧].

ثم ذكر الوحيد: أنه إذا أتى المكلف الجاهل بحسب ظنه القوي بعبادته مطابقة لرأي مجتهده وبقصد الامتثال ثم عرض عمله على المجتهد فصححه فعبادته صحيحة، وعلى فرض عدم صحته واقعاً فلا قضاء عليه، لأن القضاء لترك الفعل لا لترك التعلم، والعامّي الجاهل قد أتى بالفعل وإن لم يكن متعلماً[١٧٨].

الهوامش:

[١] حسين بن رفيع الدين محمد الحسيني المشتهر بـ (سلطان العلماء) و (خليفة السلطان)، تقلّد الوزارة لشاه عباس الصفوي، وتزوّج ابنته، ثم تقلّد الوزارة في عهد السلطان شاه صفي، ثم نفاه إلى قم، واشتغل هناك بمطالعة الكتب ومراجعة العلوم، ثم تولّى الوزارة في عهد الشاه عباس الثاني مدة ثمان سنوات، توفي في بلدة أشرف مازندران عند رجوعه مع شاه عباس الثاني من فتح

قندهار سنة ١٠٦٤هـ، ونقل رفاته إلى النجف الأشرف ودفن هناك قرأ على والده، وشارك الخليل القزويني في التتلمذ على الشيخ البهائي (ت١٠٣٠هـ)، له حاشية على (المعالم) للشيخ حسن بن زين الدين العاملي (ت١٠١١هـ) معروفة.

ظ: الخوانساري: روضات الجنات، ٢/ ٣٤٦.

[٢] عبد الله بن محمد البشروي الساكن بالمشهد الرضوي، كتب في الأصول (الوافية) وكان لهذا الكتاب أثر كبير في المجامع العلمية يومذاك، وصار موضع العناية، إذ كتبوا له شروحاً وحواشي، مثل السيد محمد مهدي بحر العلوم، والسيد محسن الأعرجي الكاظمي، توفي في كرمنشاهان حين توجهه إلى زيارة العتبات المقدسة في العراق وذلك سنة ١٠٧١هـ.

ظ: في ترجمته:

الحر العاملي: أمل الآمل، القسم الثاني، برقم ٤٧٧/ ١٦٣.

الأفندي، عبد الله: رياض العلماء وحياض الفضلاء مطبعة خيام، قم المقدسة، ١٤٠١هـ، ٣/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

التنكابني، محمد: قصص العلماء، مطبعة سنكي، طهران (بدون تاريخ)، ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

الخوانساري: روضات الجنات، ٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦.

القمي، عباس: الكنى والألقاب، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م، ٢/ ١١٣.

الأمين، محسن: أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٦م، ٨/ ٧٠.

المدرس، محمد علي: ريحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية واللقب، مطبعة حيدري، طهران، (بدون تاريخ)، ١/ ٣٥٦.

[٣] محمد صالح بن أحمد السروي المازندراني الأصفهاني، وتلمّذ عند علماء أصفهان مثل المولى عبد الله التستري، ومحمد تقي المجلسي وتزوج بابنته الكبرى، ورزقه الله تعالى منها ببنين وبنات، ومن جملة بناتها زوجة محمد أكمل البهبهاني الأصفهاني التي هي والدة الوحيد البهبهاني.

من مصنفاته (شرح أصول الكافي) و (شرح معالم الأصول) و (شرح زبدة الأصول)، توفي بأصفهان سنة ١٠٨١هـ، ودفن مما يلي رجل صهره المجلسي في قبته المشهورة.

ظ: في ترجمته: الخوانساري: روضات الجنات، ٤/ ١١٨ ـ ١١٩، الطهراني: الذريعة، ١٤/ ٢٧.

[٤] واصل المحقق الخوانساري جهوده في تطوير علم الأصول والنهوض به، وكان له دور فعّال في تقدم الأبحاث الأصولية على الرغم من الهجمات التي كانت توجه من قبل روّاد الحركة الاخبارية بصورة متواصلة ضد علم الأصول. وقد بين الشهيد محمد باقر الصدر جهود هذا

العالم بقوله:

كان على قدر كبير من النبوغ والدقة، فأمدَّ الفكر الأصولي بقوة جديدة كما يبدو من أفكاره الأصولية في كتابه الفقهي (مشارق الشموس في شرح الدروس)، ونتيجة لمرانه العظيم في التفكير الفلسفي انعكس اللون الفلسفي على الفكر العلمي والأصولي بصورة لم يسبق لها نظير، وكان لهذه الروح أثرها الكبير في تاريخ العلم فيما بعد.

ظ: الصدر، محمد باقر: المعالم الجديدة للأصول، ٨٣ ـ ٨٤.

[٥] محمد بن الحسن الشيرواني، هاجر إلى النجف الأشرف، وأخذ العلوم من أعلامها، حتى أصبح من العلماء البارزين، ولما اشتهر بالعلم والفضل طلب منه الشاه سليمان الصفوي، وكان يومذاك يقطن في النجف الأشرف أن يأتي إلى اصفهان ويتوطن فيها، توفي عام ١٠٩٨هـ، ونقل إلى المشهد الرضوي.

ظ: الخوانساري: روضات الجنات، ٧/ ٩٣.

[٦] محمد بن محمد بن الحسن الاصبهاني، ولد سنة ١٠٦٢هـ في الهند، ولذا نسب إليها، له كتاب (كشف اللثام عن قواعد الأحكام) في شرح قواعد العلامة الحلي، توفي في اصفهان سنة ١١٣٧هـ.

ظ: الخوانساري: روضات الجنات، ٧/ ١١١.

[٧] توجد نسخة مخطوطة من شرح الوافية في الأصول لصدر الدين بن السيد باقر الرضوي في مكتبة الامام الحكيم العامة في النجف الأشرف رقم (٣١٣).

[٨] الشيخ حسن بن الشهيد الثاني: معالم الأصول، دار الفكر، قم، ١٣٧٦هـ، ٤١.

[٩] م. ن، ٦١.

[١٠] الشيخ حسن بن الشهيد الثاني: معالم الأصول، ١٣٩.

[١١] م. ن، ٢٣٧.

[١٢] م. ن، ٢٥٣.

[١٣] م. ن، ٢٩٩.

[١٤] م. ن، ٣١١.

[١٥] م. ن، ٣٢٥.

[١٦] م. ن، ٣٤٣.

[١٧] البهائي، بهاء الدين محمد بن حسين العاملي: زبدة الأصول، مطبعة شريعت، قم، ط١، ١٤٢٥هـ، ١١.

[١٨] م. ن، ١٦٣.
[١٩] م. ن، ٢٦١.
[٢٠] م. ن، ٤٠٩.
[٢١] م. ن، ٤٢١.
[٢٢] الآصفي، محمد مهدي: مقدمة رياض المسائل للسيد علي الطباطبائي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، إيران، ط١، ١٤١٤هـ، ١/ ١٠٣.
[٢٣] التوني، عبد الله (ت١٠٧١هـ): الوافية في أصول الفقه، تحقيق: السيد محمد حسين الرضوي الكشميري، مجمع الفكر الإسلامي، إيران، الطبعة المحققة الأولى، ١٤١٢هـ، ٣٨.
[٢٤] م. ن، ٥٩.
[٢٥] م. ن، ٦٥.
[٢٦] م. ن، ١٠٩.
[٢٧] التوني: الوافية في أصول الفقه، ١٤٥.
[٢٨] م. ن، ١٦٩.
[٢٩] م. ن، ٢٤١.
[٣٠] م. ن، ٣١٩.
[٣١] البهبهاني: الفوائد الحائرية، مجمع الفكر الإسلامي، إيران، ١٤١٥هـ، ط١، ٩١ ـ ٩٤.
[٣٢] م. ن، ١٠٠.
[٣٣] م. ن، ١٠٣.
[٣٤] م. ن، ١١١.
[٣٥] م. ن، ١١٥ ـ ١٢٥.
[٣٦] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ١٣٠.
[٣٧] م. ن، ١٣٣.
[٣٨] م. ن، ١٤٠.
[٣٩] م. ن، ١٤٣.
[٤٠] م. ن، ١٥٠.
[٤١] م. ن: ١٥٥.
[٤٢] م. ن، ١٦١.
[٤٣] م. ن، ١٦٣.

[٤٤] م. ن، ١٧٧.
[٤٥] م. ن، ١٨٢.
[٤٦] م. ن، ١٨٧.
[٤٧] م. ن، ٢٠٠.
[٤٨] م. ن، ٢٠٥.
[٤٩] م. ن، ٢١٤.
[٥٠] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ٢٢١.
[٥١] م. ن، ٢٣٢.
[٥٢] م. ن، ٢٣٧.
[٥٣] م. ن، ٢٥١.
[٥٤] م. ن، ٢٦١.
[٥٥] م. ن، ٢٧١.
[٥٦] م. ن، ٢٨٢.
[٥٧] م. ن، ٢٨٧.
[٥٨] م. ن، ٢٩٥.
[٥٩] م. ن، ٣٠٧.
[٦٠] م. ن، ٣١٣.
[٦١] م. ن، ٣١٨.
[٦٢] م. ن، ٣٢٢.
[٦٣] م. ن، ٣٢٩.
[٦٤] م. ن، ٣٣٣.
[٦٥] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ٣٤٣.
[٦٦] م. ن، ٣٤٦.
[٦٧] م. ن، ٣٥١.
[٦٨] م. ن، ٣٥٦.
[٦٩] م. ن، ٣٥٧.
[٧٠] م. ن، ٣٦٠.
[٧١] م. ن، ٣٦٢.

[٧٢] م. ن، ٣٧٤.
[٧٣] م. ن، ٣٨٥.
[٧٤] م. ن، ٣٨٩.
[٧٥] م. ن، ٣٩٣.
[٧٦] م. ن، ٣٩٩.
[٧٧] م. ن، ٤٠٨.
[٧٨] م. ن، ٤١١.
[٧٩] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ٤١٣.
[٨٠] م. ن، ٤٢٩.
[٨١] م. ن، ٤٣٢.
[٨٢] م. ن، ٤٣٦.
[٨٣] م. ن، ٤٣٨.
[٨٤] م. ن، ٤٤٠.
[٨٥] م. ن، ٤٤٢.
[٨٦] م. ن، ٤٤٤.
[٨٧] م. ن، ٤٤٦.
[٨٨] م. ن، ٤٤٩.
[٨٩] م. ن، ٤٥٢.
[٩٠] م. ن، ٤٥٤.
[٩١] م. ن، ٤٦٠.
[٩٢] م. ن، ٤٦٢.
[٩٣] م. ن، ٤٦٦.
[٩٤] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ٤٧٣.
[٩٥] م. ن، ٤٧٦.
[٩٦] م. ن، ٤٨٥.
[٩٧] م. ن، ٤٩١.
[٩٨] م. ن، ٤٩٧.
[٩٩] م. ن، ٥٠٣.

[١٠٠] م. ن، ٥١٥.
[١٠١] م. ن، ٥١٩.
[١٠٢] الزبيدي، محمد مرتضى: تاج العروس، ٦/ ٢٥١. الجوهري، إسماعيل بن حماد: الصحاح في اللغة والعلوم، تحقيق احمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار الحضارة العربية، ١٩٧٥م، الطبعة الأولى، ٢/ ٦١٤، ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، ٥/ ٣٦١.
[١٠٣] د. بدوي، عبد الرحمن: مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات ـ الكويت، ١٩٧٧م، الطبعة الثالثة، ٥.
[١٠٤] د. الطاهر، علي جواد: منهج البحث الأدبي، مطبعة العاني ـ بغداد، ١٩٧٠م، ١٣.
[١٠٥] د. زاهد، عبد الأمير: منهج الشيخ الطوسي في كتابه الخلاف، مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام، العدد ٢٧، السنة السابعة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٢.
[١٠٦] بدوي، عبد الرحمن: مناهج البحث العلمي، ٥.
[١٠٧] د. الفضلي عبد الهادي: أصول البحث، دار المؤرخ العربي، بيروت، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، الطبعة الأولى، ٥٢.
[١٠٨] بدوي، عبد الرحمن: مناهج البحث العلمي، ٦.
[١٠٩] د. الفضلي: أصول البحث، ٥٢.
[١١٠] د. الفضلي: أصول البحث، ٥٢.
[١١١] م. ن، ٥٢.
[١١٢] برجسترار: أصول نقد النصوص ونشر التراث، اعداد وتقديم محمد حمدي البكري، القاهرة، ١٩٦٩م، ١١ ـ ١٢. د. رمضان عبد التواب: مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، مركز الدراسات والبحوث العلمية العالمية، ١٤٠٥هـ، ط٢، ٥٧.
[١١٣] د. رمضان عبد التواب: مناهج تحقيق التراث، ٦٤.
[١١٤] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ٤٦١.
[١١٥] الحكيم، محمد تقي: الأصول العامة للفقه المقارن، ٥٥.
[١١٦] د. الفضلي: أصول البحث، ٥٣.
[١١٧] م. ن، ٥٤.
[١١٨] رينيه ديكارت: مقال عن المنهج، ترجمة: محمود محمد الخضيري، مراجعة: محمد مصطفى حلمي، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٦٨م، ٩٨.
[١١٩] بدوي، عبد الرحمن: مناهج البحث العلمي، ٨٣.

[١٢٠] د. الفضلي: أصول البحث، ٦١.

[١٢١] م. ن، ٦٦.

[١٢٢] الصدر، محمد باقر: المعالم الجديدة، ٢٠.

[١٢٣] السبزواري، محمد باقر: ذخيرة المعاد، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لاحياء التراث، إيران، حجري، (بدون تاريخ)، ٤٧٤.

[١٢٤] البهبهاني: الرسائل الفقهية، تحقيق ونشر: مؤسسة الوحيد البهبهاني، مطبعة أمير، قم، ١٤١٩هـ، ط١، ٣١٣.

[١٢٥] البهبهاني: مصابيح الظلام في شرح مفاتيح الشرائع، ط١، مؤسسة العلامة الوحيد البهبهاني، ١٤٢٤هـ، ١٠/ ٥٧٤.

[١٢٦] البهبهاني، محمد باقر: حاشية مجمع الفائدة والبرهان، تحقيق ونشر مؤسسة العلامة المجدد الوحيد البهبهاني، ط١، إيران، ١٤١٧هـ، ٣.

[١٢٧] الأردبيلي، أحمد: مجمع الفائدة والبرهان في شرح إرشاد الأذهان، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ـ إيران، (بدون تاريخ)، ٨/ ٤١٤.

[١٢٨] البهبهاني: حاشية مجمع الفائدة والبرهان، ٢٦٣.

[١٢٩] البقال، عبد الحسين: معالم الأصول، ٢٢.

[١٣٠] البهبهاني، محمد باقر: الفوائد الحائرية، ٤٨٨.

[١٣١] تصنيف غرر الحكم، تحقيق: عبد الواحد آمدي، مكتبة الاعلام الإسلامي، قم، الطبعة الأولى، ١٣٦٦، الحكمة رقم ٣٠٦٢.

[١٣٢] البهبهاني، محمد باقر: الفوائد الحائرية، ٨٧ ـ ٨٨.

[١٣٣] العرف العام: ذكر فقهاء الشريعة انه يجب أن يشترك غالبية الناس على اختلاف أمكنتهم، أي أن لا يكون العرف محصوراً في بيئة معينة وبلاد خاصة، وذلك كتعارفهم على عقد الاستضاع وبيع المعاطاة. لكن هل يشترط في توفر هذا العرف أن يستمر هذا السلوك في كل الأزمنة؟ الظاهر من عبارات كثير من الفقهاء هو أن يتبع هذا العرف الناس على مختلف الأزمنة، أي مضافاً إلى عمومية المكان يشترط أيضاً عمومية الزمان.

قال علي حيدر: (العرف العام عندنا هو العرف الجاري من عهد الصحابة حتى زماننا والذي قبله المجتهدون وعملوا به) راجع: علي حيدر: درر الحكام في شرح مجلة الأحكام، تعريب المحامي فهمي الحسيني، طبع دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، ١/ ٤٥، الزرقا، مصطفى: المدخل الفقهي العام، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٧هـ، ٢/ ٨٤٥.

[١٣٤] العرف الخاص: هو العرف الذي يكون مخصوصاً في بلد دون بلـد، فـالأعراف التـي تسـود أحد البلدان العربية دون الأخرى سواء على صـعيد الالفـاظ ومعـاني بعـض المفـردات أم عـلى صعيد المعاملات وهذه الأعراف مهمة في نظر الفقهاء حيث يبنى عليها التصرف، مثلاً في مسألة الكيل والوزن فإن اطلاقها في العقد (يتصرف إلى المعتاد في بلد العقد).
الشهيد الثاني، زين الدين بن علي: الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، تحقيق وتعليق السيد محمد كلانتر، منشورات جامعة النجف الدينية، النجف الأشرف، ٣/ ٥٤٣.
[١٣٥] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ١٠٧.
[١٣٦] م. ن، ١٠٧ ـ ١٠٨.
[١٣٧] الشيخ حسن بن الشهيد الثاني: معالم الأصول، ٤٨ ـ ٤٩.
[١٣٨] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ١٥٧.
[١٣٩] م. ن، ١٤١.
[١٤٠] م. ن، ٢٢٣، ٢٠٧.
[١٤١] م. ن، ٣٠٩.
[١٤٢] م. ن، ٢٧٣.
[١٤٣] البهبهاني: حاشية مجمع الفائدة والبرهان، ٧٢٥.
[١٤٤] سورة النساء: الآية ٧٩.
[١٤٥] سورة الروم: الآية ٤١.
[١٤٦] سورة هود: الآية ١٠١، النحل: الآية ١١٨.
[١٤٧] سورة النازعات: الآية ٤٠.
[١٤٨] سورة البقرة: الآية ١٤٣.
[١٤٩] سورة القصص: الآية ٨٤، الانعام: الآية ١٦٠.
[١٥٠] سورة العصر: الآية ٢.
[١٥١] سورة النجم: الآية ٣٩.
[١٥٢] سورة الأنعام: الآية ١٦٤، الاسراء: الآية ١٥، فاطر: الآية ١٨، الزمر: الآية ٧.
[١٥٣] سورة البقرة: الآية ٥٩، الأنعام: الآية ٤٩، الأعراف: الآية ١٦٣.
[١٥٤] سورة البقرة: الآية ٦١، آل عمران: الآية ١١٢، النساء: الآية ٤٢.
[١٥٥] سورة القصص: الآية ٥٥، سبأ: الآية ١٦، فصلت: الآية ١٣.
[١٥٦] سورة النساء: الآية ٦٠، ونظائرها مثل الأنعام: الآية ٢٢.

[١٥٧] سورة البقرة: الآية ٤٦ و ٧٨ و ٢٤٩، آل عمران: الآية ١٥٤.
[١٥٨] سورة الأعراف: الآية ٣٠، الكهف: الآية ١٠٤، الأحزاب: الآية ٢٠.
[١٥٩] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ٣٨٠.
[١٦٠] البهبهاني: رسالة الاجتهاد والاخبار، ٩ ـ ١٥.
[١٦١] البهبهاني: رسالة الاجتهاد والاخبار، ١٦ ـ ١٩.
[١٦٢] الكليني: الكافي، ١/ ٢٦٥، ح١.
[١٦٣] الكاشاني: الوافي، ٣/ ٦١٥، ذيل الحديث ١١٩١.
[١٦٤] البهبهاني: مصابيح الظلام، ٣٣، المقدمة.
[١٦٥] المحقق الحلي: المعتبر في شرح المختصر، مؤسسة سيد الشهداء، إيران، ١٣٦١هـ، ٢/ ٥٠٧.
[١٦٦] البهبهاني: مصابيح الظلام، ٣٦٧ ـ ٣٧٠.
[١٦٧] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ٤٦٣ ـ ٤٦٦.
[١٦٨] م. ن، ٣٢٣.
[١٦٩] العاملي، محمد بن علي: مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام، تحقيق: ونشر مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، قم ـ إيران، ١٤١٠هـ، ط١، ١/ ٤٣.
[١٧٠] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ٣٨٧.
[١٧١] م. ن، ٣٨٨.
[١٧٢] م. ن، ٢٥٠ ـ ٢٥١.
[١٧٣] الأردبيلي، أحمد: مجمع الفائدة والبرهان، ٢/ ٥٤ ـ ٥٥.
[١٧٤] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ٢٦٣.
[١٧٥] ظ: الحر العاملي: وسائل الشيعة، ٨/ ٢٣٨، الباب ١٤ من أبواب المواقيت، ح٢.
[١٧٦] والرواية بكاملة: (قال أبو جعفر عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم لعمّار في سفر له: يا عمار بلغنا أنك أجنبت، فكيف صنعت؟ قال: تمرّغت يا رسول الله في التراب، قال: فقال له: كذلك يتمرّغ الحمار، أفلا صنعت كذا ثم أهوى بيديه إلى الأرض فوضعها على الصعيد، ثم مسح جبينه بأصابعه وكفيه أحداهما بالأخرى، ثم لم يعد ذلك).
ظ: الحر العاملي، وسائل الشيعة، ٢/ ٩٧٧، الباب ١١ من أبواب التيمم، ح٨.
[١٧٧] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ٢٦٩.
[١٧٨] البهبهاني: الفوائد الحائرية، ٢٦٣.

الشيخ محمد حسّان العامري
أستاذ في الحوزة العلمية / العراق

الأهداف السياسية والحركية في ثورة الإمام الحسين عليه السلام

أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام

إذن كان الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام قد عقدا العزم على إعلان الخروج على سلطان بني أمية عندما تسمح الظروف بعد موت معاوية.

وقد أظهرا ذلك لشيعتهم أكثر من مرة. وكانت خطة الإمامين الحسن والحسين في ذلك واحدة ـ كما رأينا فيما روينا من أحاديث وتعليمات الإمامين كه لشيعتهما ـ ولا واقع إطلاقاً لما ينتحله البعض من خلاف في الرأي بين الإمامين في الموقف من حكومة بني أمية.

وقد رأينا أن مجاميع من شيعة العراق كتبوا إلى الحسين عليه السلام بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام يدعونه للخروج على معاوية وإعلان الثورة، رافضين موقف الإمام

الحسن عليه السلام من الصلح، فكتب إليهم الحسين عليه السلام:

«صدق أبو محمد، فليكن كل رجل منكم جلساً من أحلاس بيته، ما دام هذا الإنسان (معاوية) حياً»[1].

وشاء الله تعالى أن ينفذ غدر معاوية في الإمام ويستشهد الإمام عليه السلام قبل هلاك معاوية، وتولى الحسين له الإمامة وقيادة المعارضة ومسؤولية الثورة والحركة من بعد أخيه.

فكان موقف الحسين عليه السلام بعد وفاة المجتبى هو استمرار موقف أخيه الحسن من قبل تجاه معاوية.

فكتب إليه أهل العراق أن يخرج بهم على معاوية فلم يستجب الإمام الحسين عليه السلام لرأيهم وكتب إليهم:

«أما أخي فأرجو أن يكون الله قد وقفه وسدده فيما يأتي، وأما أنا فليس رأيي اليوم ذلك، فالصقوا رحمكم الله بالأرض واكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً»[2].

إلّا أن تحركاً سياسياً كان يجري في الحجاز في الكتمان في جو المعارضة يقوده الإمام الحسين عليه السلام ويوجّهه لتأليب المسلمين ضد سلطان بني أمية وتمهيد الأجواء للخروج عليهم بعد موت معاوية.

فقد كان الإمام على اتّصال بوجوه المسلمين من العراق والحجاز، يزورونه ويأخذون برأيه، ورغم أن هذه الاجتماعات كان يغلب عليها طابع السرية إلا أنها كانت لا تغيب عن عيون بني أمية وجواسيسهم فكتب مروان عامل معاوية على المدينة إلى معاوية:

(أنّ عمر بن عثمان ذكر أن رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن علي، وأنه لا يؤمن وثوبه، وقد بحثت عن هذا فبلغني أنه يريد الخلاف يومه هذا، فاكتب إلى برأيك). [3]

فكتب إليه معاوية أن يتجنّب

مواجهة الحسين ما أمكنه ذلك.

ومهما يكن من أمر فقد كان الحسين عليه السلام قد عزم على الخروج على سلطان بني أمية إذا مات معاوية وكانت الظروف مؤاتية، وكان قد أعد شيعته لذلك.

ونحن لا نشك في أن الإمام لم يكن يطلب في ثورته الشهيرة وخروجه على يزيد بن معاوية إسقاط النظام الأموي عسكرياً، والاستيلاء على السلطة. فلم يكن للإمام أعوان يعتمد عليهم في حركته وخروجه في غير العراق. فقد كانت مصر والحجاز بعيدتين كل البعد عن ظروف الثورة والحركة وكانت الشام القاعدة المنينة التي ينطلق منها يزيد بن معاوية ويحتمي بها في حماية ملكه وسلطانه.

ولم يكن هوى أهل العراق معه من غير شيعته.. فقد كان الإمام يعلم جيداً أن من غير الممكن الاعتماد على الكثرة من أهل العراق، فهم مع الطرف المنتصر، ومن الخير له ولثورته ألا يلتحقوا به فإنهم سوف ينفرطون عن جيشه كما انفرطوا عن جيش أخيه الحسن عليه السلام من قبل، أو أسرع وأيسر من ذلك، ويفتّون في عضده وعضد أصحابه وشيعته، ويتخلون عنه في أخرج ساعات المعركة، ولا يبقى له في ساحة المعركة غير شيعته، الذين ثبتوا من قبل في جيش أخيه الحسن عليه السلام وهم قلة لا يكوّنون قوة عسكرية تصمد أمام جيوش الشام.

ولقد صدقت نبوءة الفرزدق للإمام حين التقى به في الشقوق[٤] وأقبل على الإمام وقبّل يده، فسأله الإمام كيف خلفت أهل الكوفة؟ فقال: خلّفت الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية. فقال الحسين عليه السلام: «صدقت وبررت، إن الأمر لله يفعل ما يشاء»[٥].

ولم تكن تجربة الإمام الحسن عليه السلام بعيدة عن الحسين، ولم يكن الإمام

الحسين عليه السلام بأقدر من أخيه في تجميع قوة عسكرية لضرب سلطان بني أمية وإسقاط النظام.. إن لم تكن ظروف الحسين عليه السلام أسوأ من ظروف أخيه الحسن. فقد استقر لبني أمية السلطان، وامتد نفوذهم، وعمل معاوية بدهائه المعروف في تحكيم أصول حكم بني أمية، وامتداد نفوذهم وشراء الضمائر ونشر الرعب والإرهاب في أجواء المعارضة، واكتساح الأكثرية، التي يتحكم فيها الإرهاب والإغراء، ويميلون دائماً إلى الجهة المنتصرة القوية في الساحة.

فلم يكن حدث جديد في الساحة السياسية والعسكرية بعد الهدنة التي عقدها الإمام الحسن عليه السلام غير أمرين اثنين:

أحدهما: استحكام قواعد سلطان الأمويين وامتداد نفوذهم في البلاد.

والثاني: انتشار الفساد في جهاز بني أمية إلى حد الاستهتار والابتذال في حياة يزيد وحكومته.

والأمر الأول: لم يكن لصالح الإمام في التفكير في تحرك عسكري لإسقاط النظام.. فقد كانت تجربة الإمام الحسن عليه السلام بعد حية في نفوس الشيعة، حيث لم يستطع جيش العراق أن يقاوم سلطان بني أمية، بعد وفاة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

فما ظنك بهذه القوة العسكرية، بعد أن استحكم لبني أمية الحكم والسلطان، وامتد لهم النفوذ في البلاد واستتبّ لهم الأمر.

وأما الأمر الثاني وإن كان ينفع في تحريك الأقلية المعارضة الواعية من الشيعة، إلا أنه لم يكن ينفع ـ بالتأكيد ـ في تحريك الأكثرية التي ألفت هذا الفساد واستسلمت له، بل وأعانت عليه.

فلم يكن يصفو ـ إذن ـ للإمام الحسين من القوة العسكرية غير ما صفا لأخيه الحسن عليه السلام من قبل، وهم

الثابتون من شيعته ومواليه.. ولا يمكن أن يفكر الإمام ـ بكل تأكيد ـ أن يجازف بهذه القوة المحدودة لإسقاط النظام الأموي الرهيب، بعد أن أخفقت محاولة أخيه الإمام الحسن عليه السلام، في ظروف أحسن من ظروفه، وبقوة عسكرية أقوى من الجيش الذي كان يعده له العراق بعد موت معاوية.

وهذا التشخيص ليس مما نضيفه نحن من عندنا إلى الظروف التي رافقت خروج الحسين عليه السلام وثورته، وإنما نجده عند كل الذين نصحوا الإمام بالإعراض عن الخروج إلى العراق، ممن كان يعز عليهم أن يواجه الإمام تجربة أخيه الإمام الحسن عليه السلام مرة أخرى في العراق كعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وغيرهم.

ونجد هذا التشخيص بالذات في كلمات الإمام الحسين عليه السلام بصورة مؤكدة ومتكررة قبل الخروج إلى العراق وبعده.

إخبار الإمام عليه السلام بمصرعه في العراق

وتذكر هنا نموذجين فقط من خطب الإمام التي توحي بصورة قوية أن الإمام كان مقدماً على الشهادة والتضحية، ولم يكن يفكّر في عمل عسكري لإسقاط النظام عسكرياً.

أحدهما: في الحجاز قبل أن يفارق مكة إلى العراق. والثاني: في كربلاء.

الخطبة الأولى:

الخطبة الأولى: يرويها ابن طاووس في اللهوف.

قال رحمه الله: روي أنه عليه السلام، لمّا عزم على الخروج إلى العراق، قام خطيباً فقال: الحمد لله وما شاء الله، ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على رسوله. خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفناة، وما أولهني إلى أسلافي

اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخُيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تغطها علان الفلوات بين النوابس وكربلا، ليملأن مني أكراشاً جوفاً، وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، نفر بها عينه، وينجز بهم وعده، فمن كان باذلاً فينا مهجته وموطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء الله. (٦)

ولسنا نحتاج إلى التعليق على هذه الخطبة فهي واضحة في أن الإمام عليه السلام كان يعدّ أصحابه لنهضة كبيرة قوامها التضحية والدم، والشهادة، ولا يطمح فيها إلى أي نصر عاجل.

فها هو يبدأ خطابه مع أصحابه بالموت الذي يطوّق ابن آدم كما تطوق القلادة جيد الفتاة.

ثم يخبر عن مستقبل هذه الحركة المأساوية، فيقول: كأني بأوصالي تقطّعان عسلان (ذئاب) الفلوات.

ثم يطلب النصرة من المسلمين، ولكن بهذه الطريقة الفريدة: (فمن كان باذلاً فينا مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا).

إن الإمام لا يشير في هذه الخطبة إلى أي هدف عسكري بالمعنى المعروف في الأعمال العسكرية، وإنما يعد أصحابه لتضحية مأساوية دامية، ويطلب من الذين يرافقوه في هذا الرحلة أن يعدّوا أنفسهم للقاء الله ولبذل المهج في سبيل الله.

الخطبة الثانية:

والخطبة الثانية خطبها الحسين عليه السلام بذي حسم من منازل العراق، فقال: (ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلى

سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً)[٧].

ولما سار الإمام بأصحابه من قصر بني مقاتل خفق خفقة ثم انتبه، وهو يقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون) فأقبل عليه ابنه علي بن الحسين على فرس له فقال: يا أبت جعلت فداك، ممّ حمدت الله واسترجعت؟ قال: يا بنيّ، إني خفقت برأسي خفقة فعنّ لي فارس على فرس، فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا.

قال له: يا أبت لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟

قال: بلى والذي إليه مرجع العباد.

قال: يا أبت، إذن لا نبالي، نموت محقين.

فقال: جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده[٨].

ولا يقتصر الأمر على هذه المنامات والخطب التي يرويها أصحاب السير كالطبري و (ابن الأعثم) و (السيد ابن طاوس) و (المفيد) وغيرهم بصورة متواترة، لا تقبل الشك. فإن كل شيء في حركة الحسين عليه السلام إلى العراق يدل على أن الإمام لم يكن بصدد حركة عسكرية بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة لإسقاط النظام الأموي.

إذن فإن الإمام لم يكن يفكّر، ولا يمكن أن يفكّر في حركة عسكرية... وإنما كان الإمام يُقْدِم عن علم ووعي على تضحية مأساوية نادرة، بنفسه، وأهل بيته، وأصحابه، ليهز ضمير الأمة الخامل، ويبعث في نفوسهم الحركة وروح التضحية والإقدام.

ولعل في حديث الإمام مع أخيه محمد بن الحنفية رحمه الله عندما أراد الخروج من مكة إلى العراق ما يشير إلى هذه الغاية. والرواية يرويها السيد ابن طاوس في اللهوف.

يقول السيد رحمه الله: إن محمد بن الحنفية

عندما عرف بخروج الحسين من مكة أتاه فأخذ زمام ناقته التي ركبها، فقال: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟

وكان قد سأل الإمام أن يسير إلى اليمن، وينصرف عن العراق. قال: بلى، قال: فما حداك على الخروج عاجلاً؟ فقال: أتاني رسول الله (في المنام) بعد ما فارقتك، فقال: يا حسين أخرج فإن الله شاء أن يراك قتيلاً.

فقال له ابن الحنفية: (إنا لله وإنا له راجعون)، فما معنى حملك هؤلاء النساء، وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟ فقال له: إن الله قد شاء أن يراهن سبايا. وسلّم عليه ومضى[٩].

عندما تفشل الحروب العسكرية تنجح المقاومة المسلحة

إذن فالنتيجة التي ننتهي إليها في هذه الجولة السريعة: أن الإمام الحسين عليه السلام كان يفكّر في الإقدام على خروج مُسلّح وتضحية مأساوية دامية، ولم يكن يفكر في عمل عسكري على الإطلاق لمواجهة سلطان بني أمية، وهذان نحوان من الخروج كل منهما يحقق هدفاً محدوداً، والخلط فيما بينهما يؤدي إلى الوقوع في أخطاء تأريخية كبيرة تشوش علينا فهم الثورة الحسينية وغايتها ونتائجها.

والآن نتسائل عما كان يمكن أن يقصده الإمام من أهداف وغايات من وراء هذه التضحية المأساوية التي أقدم عليها الإمام عن علم ووعي.

عرض لأهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام

١. تحرير إرادة الأمة

يستخدم الطغاة عادة سلاحين مؤثرين في وجه تحرّك الأمة وتمردها ورفضها للظلم.

وهما سلاح (الإرهاب) و (الإفساد) ومن خصائص هذين السلاحين أنهما يسلبان الناس الإرادة والقدرة على

التحرك والوعي والإدراك.

ومن أولى مستلزمات كل حركة (الوعي) و (الإرادة).

وعندما يفقد الإنسان بصيرته وإرادته، يفقد كل قدرة للتحرك، ويستسلم للواقع الفاسد، ويتكيف معه، وعند ذلك يستولي الطاغية وفئته على إرادة الأمة ووعيها ومصيرها وحتى على ذوقها وأخلاقها وأعرافها، ويتم مسخ شخصية الأمة بصورة كاملة في كل أبعادها ويتحكم الطاغية في كل شيء من حياة الأمة، ولا تملك الأمة تجاه الطاغية غير الطاعة والانقياد والاستسلام.

وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم في علاقة فرعون بقومه وعلاقتهم بفرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.(١٠)

إن فرعون تمكن من أن يستخف قومه وأن يسلبهم وعيهم وإرادتهم وقيمهم بالإرهاب والإفساد، وبذلك تمكّن من أن يمسخ شخصيتهم مسخاً كاملاً، ويستأصل من نفوسهم كل قدرة على الوعي والتفكير، فضلاً عن الإرادة والمقاومة والرفض، وبهذه الصورة إستطاع فرعون أن يكسب طاعتهم: (فأطاعوه).

وهذه الطريقة هي الطريقة المفضلة لأئمة الضلال في اكتساب طاعة الناس وولائهم فإن هذا الولاء والطاعة بقوم عادة على حطام شخصية الأمة.

عند ذلك يعيش الحكام من أئمة الضلال في راحة نامة من ناحية الرعية لا يقلقهم شيء من جانبهم، ويتحول الناس إلى قطيع من المتملقين والمتزلفين والراضخين والصابرين.

وينقلب في نفوسهم الوعي والإرادة إلى تحقيق ما يطلبه الحكام، فيحبون ما أحبوا ويريدون ما أرادوا، وبهذه الصورة تتكون في الأمة طبقتان:

١ـ طبقة المستكبرين: وهم الحكّام

من أئمة الضلال ومن يرتبط بهم ومن ينتفع منهم من «الملاء» الذين يستعلون على الناس، ويستكبرون في الأرض، ويتحكمون في حياة الناس، وإرادتهم، ومصيرهم، وحتى أذواقهم وأخلاقهم، ويضعون أنفسهم في مركز السيادة والحاكمية من حياة الإنسان من دون الله، ويستعلون على الناس ويفدون في الأرض، وهؤلاء هم الطاغوت[11] الذين يتجاوزون حدود العبودية والطاعة الله تعالى إلى الاستكبار والسيادة والحاكمية من دون الله والإفساد في حياة الناس.

٢ـ وطبقة المستضعفين: الذين يستخفهم الطاغوت (يسلبهم ثقلهم في موازين الإنسانية والحياة الإجتماعية) ويستضعفهم (يسلبهم القدرات والإمكانات والكفاءات التي منحهم الله تعالى)، وتتحول هذه الطبقة الواسعة إلى طبقة تابعة، ومنقادة، ومستسلمة للأمر الواقع، تفقد خصائصها وقيمها الإنسانية كافة، وتتحول إلى أداة طبيعة لتنفيذ كل ما يمليه عليها الطاغوت.

وأول ما تفقد هذه الطبقة وعبها وإرادتها، ومن ثم تفقد كل شيء في حياتها مما منحها الله تعالى من القيم والكفاءات، وآخر ما تفقد ضميرها ووجدانها فإذا بلغت هذا الحد صدق فيها قوله تعالى.

﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾.[12]

إن الطاغوت يسلبهم (الوعي) و (الإرادة) و (الضمير) عن طريق (الإرهاب) و (الإفساد)، ولإنقاذهم من قبضة الطاغوت وأسره لابد من إعادة (الوعي) و (الإرادة) والضمير إليهم قبل كل شيء حتى ينظروا إلى الأمور والأشخاص بوعيهم الذي أعطاهم الله، لا من خلال ما يحبه الطاغوت ويكرهه، وحتى يتمكنوا

من أن يأخذوا القرار لأنفسهم بأنفسهم، لا أن يتخذ الطاغوت القرار بالنيابة عنهم ولهم.

ولقد واجه الحسين عليه السلام واقعاً اجتماعياً وسياسياً سيئاً من مثل هذا الواقع، تمكن فيه بنو أمية من مسخ شخصية الأمة وسلب قيمها وضميرها وقدراتها ووعيها وإرادتها وأسوأ ما كان في هذه الانتكاسة أن القدرة والقوة التي أكسبهم الإسلام تحولت إلى قدرة عسكرية وسياسية في الاتجاه المعاكس للإسلام وتحول السيف الذي سلّحهم به رسول الله لقتال أعداء الإسلام، إلى أداة لمحاربة أبناء رسول الله وأوليائهم دون أعدائهم.

وكان هذا هو جوهر الانتكاسة الكبيرة التي تمت على يد بني أمية في تاريخ هذه الأمة.

وإلى هذا المعنى يشير الإمام الحسين عليه السلام في خطبته الثانية يوم عاشوراء أمام جمهور جيش ابن سعد:

(سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحشتنم علينا ناراً اقتدحناها[١٣] على عدونا وعدركم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوء فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم).[١٤]

فكيف جرت ـ يا ترى ـ هذه الانتكاسة الخطيرة في نفوس هؤلاء الناس حتى تحولت سيوفهم التي مكنهم الإسلام منها لمحاربة البغاة الظالمين.... تحولت إلى وجه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله الزكي الطاهر الأمين، ولصالح سلطان ابن معاوية الفاسق، الذي كان لا يشك في فجوره وفقه وشربه وفحشه أحد من المسلمين؟

وكيف جرت ـ يا ترى ـ هذه الانتكاسة الخطيرة في حياة الناس، حتى تخالفت قلوب هؤلاء الناس وسيوفهم؟ كما قال الفرزدق الشاعر رحمه الله للحسين عليه السلام: (إن قلوبهم معك وسيوفهم عليك).. ثم توافقت قلوبهم

وسيوفهم على ابن رسول الله وأهل بيته وأصحابه المقيمين للصلاة والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؟

وكيف تحوّلت هذه القوة التي منحهم الإسلام إيّاها، والمركزية والسيادة والموقع الممتاز الذي اكتسبوه بالإسلام إلى قوة ضاربة لصالح أعدائهم ضد أوليائهم؟

لست أدري ماذا حل بهذه الأمة من سوء حتى تحولت هذه القوة والمركزية، كلها لصالح أعدائهم على أوليائهم، وعاد من جديد أولئك الذين كانوا يحاربون هذا الدين إلى مراكزهم القيادية في المجتمع، مستفيدين من كل هذه القوة والمركزية والنفوذ والسلطان، الذي جاء به الإسلام وأصبح دعاة هذا الدين وقادته، الذين حملوا هذا الدين في موضع الأنهام والمحاربة من قبل الأمة، تفاتلهم بالسيف الذي وضعه الإسلام في أيديهم.

وما أروع تعبير الإمام وأصدقه بهذا الصدد (سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم).

وذلك كله من غير أن ينقلب هؤلاء الذين كانوا يحاربون الإسلام في الأمس القريب، عن مواقعهم العدائية من الإسلام ومن هذه الأمة، فلا زالوا يحملون بين جنبيهم روح الجاهلية، ويمارسون أخلاقها وعاداتها، ويعملون على استئصال القيم الإسلامية في هذه الأمة الناشئة، ونشر الظلم والرعب والفساد (بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم).

وكانت هذه الأمة في جاهليتها ضعيفة، مستضعفة، حاملة الذكر، منسية، لا تكاد تجد في حياتها حركة أو عزماً أو قوة على المواجهة، فاستثار الإسلام كوامن الحركة والقوة والعزم والانطلاق والبناء في نفوس هؤلاء الناس، واستخرج الإسلام كنوز القدرة والحركة والثورة في نفوسهم.

وتحوّلت بسبب ذلك إلى حركة حضارية واسعة على وجه الأرض وفي التاريخ، تحرق عروش الجبابرة والطغاة، ولكن ما أسرع ما انتكست هذه الأمة، فتحوّلت هذه الحركة والقوة، والانطلاقة التي استثارها الإسلام باتّجاه عكسي تماماً، للقضاء على حملة هذا الدين ودعاته وأوليائه، ولصالح الطبقة المترفة التي كانت تحارب هذا الدين بالأمس القريب، وتحمل حتى اليوم، معها إلى الإسلام رواسب الجاهلية، وأفكارها وعاداتها وسلوكها.

(وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوكم).

ولا تعرف فيما يصيب الأمم من المآسي، مأساة آلم وأفجع من أن ينقلب الإنسان على نفسه، فيؤثر ضرّه على نفعه، وفساده على صلاحه، ويحارب أولياء، ويتحبّب إلى أعدائه.

ولقد أصاب المسلمين في هذه الفترة مأساة من مثل هذه المأساة.

والإمام يعبر عن ألمه العميق بهذه الكلمة المشجية:

(ويحكم أهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون)؟

إننا لا نشك أن الأمة قد تعرضت في هذه الفترة لردة حضارية عجيبة، يعبر عنها القرآن بهذا التعبير العجيب: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾(١٥).

وآية هذه الردّة الحضارية التي تتكس فيها الأمة هو أن يتحوّل الأولياء في حياة الأمة إلى موضع الأعداء، ويتحوّل الأعداء إلى موضع الأولياء.

وعندما يتبادل هذان القطبان: (الولاية والبراءة) في حياة الناس مواضعهما، ويأخذ كل منهما موضع الآخر، فإن هذه الأمة تواجه أمراً يختلف عن أي أمر آخر، وهذا الأمر هو الانقلاب الحضاري العكسي (أو

الردّة الحضارية).

والأمة في هذه الردة تتنكر لنفسها، وتنقلب عما هي عليه إلى شيء آخر. فإن هوية الأمة وشخصيتها بالولاء والبراءة، وعندما يتحول الولاء إلى موضع البراءة والبراءة إلى موضع الولاء، فإن هذه الأمة تواجه حالة انتكاسة خطيرة.

وهذا هو ما يشير إليه الإمام في خطابه لجيش بني أمية يوم عاشوراء: (فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم).

وهذه هي الحالة التي يتنكّر فيها الإنسان لنفسه ويعادي نفسه. فإن الإنسان عندما يتودّد إلى عدوّه، ويساعده ويعينه فإنما يعينه على نفسه.

والتعبير القرآني بهذا الصدد دقيق ومعبّر: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[١٦].

إنّ الذي ينسى الله يُنسيه الله نفسه، والذي يتنكّر لله ينكّر الله نفسه عليه.

والإنسان في هذه الحالة من السقوط والتردّي، إنما يخسر نفسه، وشر أنواع الخسارة أن يخسر الإنسان نفسه، فإذا خسر الإنسان نفسه يفقد كل رأس ماله، ولا يبقى له شيء بعد ذلك، يرجو منه خيراً.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.[١٧]

ويقول عز شأنه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[١٨].

وخسارة النفس تختلف عن أيّة خسارة أخرى، فإن الربح والخسارة هو الزيادة والنقصان فيما يملك الإنسان مع بقاء المحور: (الذات). فكلما يكتب الإنسان من فائدة مادية أو معنوية يدخل في حساب (الربح)، وكلما يفقد الإنسان من المواهب المادية والمعنوية التي آتاه الله تعالى يدخل في حساب (الخسارة).

ولكن الإنسان في هذه الأحوال جميعاً يحتفظ بـ (نفسه) التي هي المحور التي تدور حوله الأرباح والخسائر.

فإذا خسر الإنسان هذا المحور أي: خسر نفسه، لا ما يملك من مواهب مادية ومعنوية، وسقط هذا المحور كان هو الخسران الأكبر، الذي لا تشبهه خسارة أخرى.

وإلى هذا المعنى من الخسارة بشير القرآن الكريم بكلمة ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ في أكثر من آية[19] ونلتقي في القرآن تعبيراً آخر عن هؤلاء الناس الذين يخسرون أنفسهم في الحياة الدنيا وهو (ظلم النفس).

يقول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.[20]

والذين يعاقبهم الله يظلمهم، لم يظلمهم الله، وإنما كانوا هم الذين أقدموا على ظلم أنفسهم: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.[21]

وأخيراً إن مآل الخير والشر هو النفس وإن الذي يهتدي فإنما يهتدي لنفسه، والذي يضل فإنما يضل على نفسه.

﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[22].

أي يستقر الضلال والغيّ على نفسه، هؤلاء يضلّون على أنفسهم، ويضلّ سعيهم وعملهم وتحركهم، ويكسبون الضلال والهلاك لأنفسهم.

والخسارة والضياع الكبير: أن يضل الإنسان على نفسه، ويضل سعيه وعمله: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[23].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[24].

فإن الإنسان إذا تنكّر لنفسه وظلمها وعاداها، خسرها.

وعندما يخر الإنسان نفسه يضل سعيه وعمله، ويذهب هباءً كل جهده وعمله.

وإلى هذه الخسارة يبشير الإمام الحسين عليه السلام في خطابه الذي وجهه إلى أصحاب الحُر في منزل البيضة:

«فأنا الحسين بن علي وأمي فاطمة بنت رسول الله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، ولكم فيّ أسوة.. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه[٢٥]، وسيغني الله عنكم[٢٦]».

إن هذه الظاهرة من أغرب ما يلتقيه الإنسان من ظواهر غريبة في حياته على ظهر الأرض.

إن الإنسان بهذا التحوّل الذي يشرح خطواته ومراحله القرآن الكريم يظلم نفسه، ويتنكّر لها، فيخسرها، ويعود شيئاً آخر يختلف اختلافاً كلياً عما كان عليه.. يمشي ويتحرّك بين الناس، ولكن من دون إرادة ووعي، بل ما يُملى عليه ويراد منه.

يتحرك، لا بإرادته، وإنما بإرادة الطاغوت الذي يستعبده ويحرّكه، لا بالاتجاه الذي ينفعه ويخدمه، وإنما بالاتجاه الذي يخدم عدوّه.

هؤلاء هم الذين تنتكس قلوبهم وبختم الله عليها، وصدق الله تعالى:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾[٢٧].

﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[٢٨].

ولن تعود لهم إرادة، ووعي، وفهم، ونور يتحركون به في الناس إلا أن يشاء الله.

وعندما يفقد الإنسان الوعي والنور والإرادة، والعزم، والضمير في حياته ينقلب إلى أداة طبيعة وسهلة بيد الطاغوت يستخدمه في تحقيق أطماعه بالشكل الذي يريد، ويوجهه إلى ضرب أوليائه بأعدائه، وهذا التحول العجيب في حياة الناس هو الذي

حدث في هذه الفترة من التاريخ على يد حكام بني أمية في هذه الأمة وواجهه الحسين عليه السلام ويتحدث عنه بمرارة وألم.

لقد جرى ـ بالتأكيد ـ تحوّل خطير في نفوس هؤلاء الناس، حتى عاد أسفلهم أعلاهم، وأعلاهم أسفلهم في التكاسة رهيبة، يقل نظيرها في التاريخ، حتى يخرج ثلاثون ألفاً منهم أو أكثر من الكوفة عاصمة أمير المؤمنين لمحاربة سيد شباب أهل الجنة وابن رسول الله صلى الله عليه وآله ونجل أمير المؤمنين عليه السلام، ولا يخرج مع الحسين عليه السلام لمقاومة يزيد بن معاوية غير بضع وسبعين نفر من أصحابه وأهل بيته.

والتفسير الوحيد الذي يستطيع أن يفسر لنا سر هذه الانتكاسة في شخصية الأمة ـ أو طائفة كبيرة من الأمة على أقل التقادير ـ يكمن في الجهد الواسع الذي بذله بنو أمية في إرهاب الناس وإفادهم لغرض الاستيلاء على المسلمين، ومسخ الهوية الإسلامية، حتى عادت ضمائرهم وإدراكاتهم وإراداتهم في قبضة بني أمية، يتحكمون فيها بالطريقة التي تعجبهم، وتخدم أهدافهم.

وكان لابدّ من هزةٍ قوية عنيفة لضمير الأمة تعيد إليها وعيها، وإرادتها، وقيمها، وتشعرها بعمق الكارثة التي حلّت بها، وتبعث الندم في نفوسهم، حتى لو لم تكن هذه الهزّة تنفع هذا الجيل، فقد كانت تعتبر ضرورة من ضرورات المرحلة لإنقاذ الجيل الذي يأتي من بعد هذا الجبل، لئلا يسري إليه هذا الانحطاط الحضاري الذي لزم هذا الجيل.

وقد أحدثت المقاومة المسلحة التي قادها الإمام عليه السلام وتضحيته المأساوية هزة عميقة في وجدان الأمّة، وكانت بحكم الصعقة التي تتطلبها ضرورات الساحة السياسية والحالة الاجتماعية للناس يومئذٍ.

لقد نبّهت شهادة الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، بالطريقة المفجعة التي تمّت بها، ضمائر المسلمين، ومكّنتهم من أن يستعيدوا وعيهم وإرادتهم من جديد، فيكفّروا ويتوبوا عن تخليهم عن نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.

لقد شعروا (يومئذٍ) بالكابوس الرهيب الذي كان يلقي بثقله على صدورهم، وقلوبهم، وعقولهم.

فقد هزّت تضحية الإمام الحسين ضمائر المسلمين، هزة عنيفة، وأشعرتهم بفداحة الإثم، وضخامة الجريمة، وعمق الردّة والانتكاسة في نفوسهم، وحياتهم... فكانت هذه التضحية المأساوية مبدأ ومنطلقاً لحركات كثيرة في التاريخ الإسلامي، ومصدراً كبيراً للتحريك في التاريخ الإسلامي... وهذه هي الغاية في ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

٢. سلب الشرعية من النظام

رغم فداحة الخسائر التي لحقت بالمسلمين، والانحراف والانحطاط الذي لزم المسلمين في هذه الفترة من حكم بني أمية.. فقد كان هناك خطر أكبر بكثير من كل ذلك يلحق الإسلام مباشرة وليس المسلمين فقط، وهو أن ينسحب هذا الانحراف على الإسلام نفسه، ويتعرض الإسلام لما تعرض له المسلمون من تحريف.

وذلك أن هذا الانحراف كان ينحدر من موقع الخلافة الإسلامية التي كانت تمتلك في نفوس المسلمين رصيداً كبيراً من الشرعية والقدسية، وقد كان بنو أمية يعتمدون كثيراً عنصر الشرعية في موقعهم السياسي والاجتماعي، وكانوا يوحون إلى الناس بطريق أو آخر أن موقع الخلافة أقوى من موقع الرسالة فيقول قائلهم: (إن خليفة أحدكم أفضل من رسوله).

وكانوا يرون في هذا الموقع أداةً لتنفيذ طموحاتهم ورغباتهم، بأيسر الطرق، وأسهلها.. فلذلك دأب

معاوية على إحكام هذا الموقع الشرعي لنفسه ولابنه يزيد من بعده.

وكان هذا الموقع الشرعي الذي حرص عليه حكّام بني أمية من أكبر الأخطار التي تلحق الإسلام من جانب حكومة بني أمية. فقد كان الانحراف ينحدر إلى الناس من قصور الخلفاء في إطار من الشرعية.

وكان هناك في قصور الخلفاء من يبرّر ويوجّه هذا الانحراف، ويعطيه الصبغة الشرعية، من علماء البلاط... وبالتالي كان هذا الانحراف ينعكس وينسحب على الإسلام ويفقد الإسلام أصالته ونقاءه على أوسع صعيد وهو وسط الأمة العريض.

وقد حرص الإمام عليه السلام في حركته على كسر هذا الإطار الشرعي الذي كان يحتمي به حكام بني أمية، وسلب صفة الشرعية من حكومة بني أمية، وتجريدها عن القدسية والشرعية التي كان يحرص عليها بنو أمية كل الحرص.. وبالتالي تفويت الفرصة على الحكم الأموي في تحريف الإسلام.

وكان الإمام يجهر بهذه الحقيقة إجهاراً ويعلن برأيه في يزيد، وعدم أهليته للخلافة، وينال منه كلّما واتته فرصة.

وقد أعلن رأيه هذا في يزيد عندما دعاه الوليد بن عتبة للبيعة، ومروان حاضر، قال عليه السلام له بعد كلام طويل، وهو يريد أن يسمع مروان رأيه في يزيد وموقفه من البيعة:

(أيها الأمير إنا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب خمر، قاتل النفس، معلن بالفسق. فمثلي لا يبايع مثله)[٢٩].

وقد كان لخروج الإمام على يزيد، ومحاربته لجيش ابن زياد بعد رفض البيعة ليزيد، واستشهاده هو وأهل بيته وأصحابه بتلك الصورة المفجعة على

يد جيش الخلافة.. كان لذلك كله أثر كبير في إسقاط شرعية الخلافة، وتجريدها عنها.

لقد أثار استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، بالصورة المفجعة التي حدثت في كربلاء مشاعر المسلمين جميعاً في جيل القتلة، وفي الأجيال التي تعقّبهم، على صعيد واسع واستشعروا جسامة الجريمة وبشاعتها في وجدانهم، وضمائرهم ونقموا على يزيد ومن لحقه من خلفاء بني أمية الذين خلفوا يزيد على السلطان والحكم. وسقطت القيمة الشرعية للخلافة، ولم تعد الخلافة موقعاً شرعياً يمتلك رصيداً من الشرعية والقدسية في نفوس المسلمين، كما كان من قبل.

ولا يمكن أن يشك أحد في أنّ هذه الجريمة التي اقترفها جهاز الخلافة الأموية في عهد يزيد في العراق تركت أثراً عميقاً في ضمائر المسلمين جميعاً (إن لم يكن في نفس الجيل ففي الجيل الذي تعقّب هذا الجيل مباشرة)، وأسقطت مكانة الخلافة الأموية في نفوس المسلمين، وعادت الخلافة الأموية موقعاً سلطوياً يمتلكه الأقوى، كما في سائر المواقع التي ات او اهداف داده است يمتلكها أصحاب السلطة في دنيا الناس.

وعلاقة الناس بهذا الموقع لم تعد كما كانت علاقة دينية خالصة نابعة من إيمان الناس بشرعيّة هذا الموقع.

ولذلك فلم يعد للانحرافات التي يرتكبها جهاز الخلافة الأموية تأثير تحريفي كبير على الإسلام.

وسلم الإسلام من تحريفات الحكّام بنسبة كبيرة، وأصبح المسلمون بعد هذا التاريخ يرجعون في أمور دينهم إلى طبقة أخرى غير طبقة الحكّام الذين يرجع إليهم الناس في أمور دنياهم بحكم الضرورة والاضطرار.

ومن هذا التاريخ بدأ يتكوّن في المجتمع خط آخر غير خط الخلافة

وهو خط الفقهاء والعلماء الذين يضع المسلمون ثقتهم الدينية فيهم... وبقدر ما كان يبتعد هؤلاء الفقهاء والعلماء عن الحكام والسلاطين كانت تزداد ثقة المسلمين بهم.

والذي يواكب قراءة التاريخ الإسلامي يجد فارقاً نوعياً واضحاً في موقع الخلافة قبل موقعة الطف وبعدها... وجوهر هذا الفرق هو افتقاد الخلافة بعد معركة كربلاء للصبغة الشرعية والإطار الديني الذي كانت تمتلكه من قبل.

وعلى هذا النهج نستطيع أن نفهم الفارق النوعي بين مسؤولية الإمام الحسن عليه السلام في الفترة التي تولى فيها الإمام الحسن الإمامة عن مسؤولية أخيه الإمام الحسين عليه السلام في الفترة التي تولى فيها الإمامة في قتال بني أمية.

فلو كان الإمام الحسن يواصل قتال معاوية، بعد أن خذله جيشه، وكانت الحرب تنتهي إلى النتيجة التي لم يكن يشك الإمام فيها من هزيمة جيشه وانتصار معاوية... لوجد معاوية الفرصة الذهبية التي كان يطلبها في القيام بتصفية واسعة في صفوف الشيعة وإنهاء البقية الباقية من هذا الخط الإسلامي النقي الذي استعصى على عوامل الانحراف والخضوع لسلطان بني أمية.

أما قيام الحسين عليه السلام فقد كان له أثر معكوس تماماً وقد أثار سخط المسلمين ضد سلطان بني أمية ودفع الناس للخروج على سلطان بني أمية ووسع دائرة المعارضة.

وذلك لاختلاف طبيعة ظروف الإمام الحسن عن الإمام الحسين عليه السلام، واختلاف نوع وطبيعة قتال الإمام الحسن عن قتال الإمام الحسين.

فقد كان الإمام الحسن عليه السلام في مواجهة عسكرية مع معاوية، وقد تخلى عنه أكثر جيشه، ولم يبق معه إلا شيعته الذين كانوا يعدون جزءاً ضئيلاً

من جيش العراق وكانت نتيجة هذا القتال هزيمة عسكرية، تتيح الفرصة لمعاوية للقضاء على البقية الباقية من شيعة الإمام.

بينما كانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام وقيامه (خروجاً) على يزيد و (مقاومة مسلحة) تتبعها تضحية مأساوية فجيعة نادرة في تاريخ الإسلام، ولم تكن (حربا نظامية عسكرية) تستهدف إسقاط النظام.

ووعي هذه الحقيقة ضروري في فهم ثورة الحسين عليه السلام. فلم يكن يرى الحسين عليه السلام أن بإمكان أنصاره من العراق والحجاز أن يقاوموا جيش بني أمية، ولا أن يصفو له العراق، ولا أن يقاوم أهل العراق إرهاب بني أمية وإغراءهم، فما كان ليصفو في أحسن الأحوال للإمام من العراق غير قلّة قليلة من شيعته يخرج بهم على يزيد، وكان الإمام عليه السلام يعلم بهذه الحقيقة ويفهمها جيدا.

إذن، لم يكن الإمام يطلب فتحاً عسكرياً، وإنما كان يطلب في خروجه تحريك ضمائر المسلمين وإثارة الضمائر والنفوس والعواطف والعقول بفعل المأساة المفجعة التي واجهها الحسين عليه السلام على يد جيش بني أمية في كربلاء. وكانت غاية الإمام الحسين عليه السلام في هذه المأساة الدامية والمفجعة هي تحريك المسلمين ضد سلطان بني أمية وإسقاط شرعية جهاز الخلافة الأموية وعزلهم سياسياً واجتماعياً في أوساط العالم الإسلامي، سيّما في الحجاز والعراق اللذين كانا يعتبران حينذاك قلب العالم الإسلامي و تجريدهم من الشرعية التي كانوا يحرصون عليها كثيراً.

كل ذلك تمّ نتيجة اختلاف موقع الإمامين وظروفهما واختلاف ظرف معاوية من يزيد.

فلم يكن معاوية قد أسقط الأقنعة كلها عن وجهه كما ألقى يزيد، ولم

يكن معاوية قد كشف عن سرّه ونيته، وأسفر عن وجهه كما فعل يزيد.

وبالتالي فقد كان تحريك المسلمين ضد سلطان بني أمية ومحاولة النيل من شرعية الخلافة الأموية في عهد يزيد أمراً ممكناً وبالطريقة التي أقدم عليها الحسين عليه السلام، بينما لم تكن هذه الظروف متوفّرة للإمام الحسن عليه السلام في الصورة التي توفّرت في عهد يزيد.

وكان توفيق الإمام الحسين عليه السلام في تحقيق هذه الغايات جميعاً توفيقاً عظيماً من غير ريب.

ولو انعكس الأمر، وكان الحسن عليه السلام في موضع الحسين عليه السلام لاختلف الأمر، وأقدم الحسن عليه السلام على ما أقدم عليه الحسين عليه السلام تماماً، ولكن الله تعالى شاء أن يجعل السبط الأكبر عليه السلام في موقع يختلف عن الموقع الذي وقع فيه أخوه الحسين عليه السلام، وقد كانت مأساة كربلاء فتحاً كبيراً، حققه الله تعالى للسبط الشهيد في أحرج فترة من فترات تاريخ الإسلام.

وهذا هو الفتح والغلبة الذي يشير إليه الإمام زين العابدين عليه السلام في جواب السائل المفجوع بمصرع الحسين عليه السلام في كربلاء، الذي سأل علي بن الحسين عليه السلام في الشام:

من الغالب، يا علي بن الحسين؟

فقال عليه السلام له: «إذا دخل وقت الصلاة وأذن المؤذن عرفت من الغالب»[٣٠].

وهذه هي النتيجة (السياسية) لقيام الإمام عليه السلام ومن خلال هاتين النتيجتين اللتين تمخضت عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام، وهما: المكاسب (الحركية) و (السياسية)، نستطيع أن نعي الدور التاريخي الكبير لثورة الإمام عليه السلام في التاريخ الإسلامي.

وأخيراً نتوقف عند هذا الحد من الحديث عن قضية الوارث العظيم لخط الأنبياء، على أن نواصل البحث في الأجزاء اللاحقة إن شاء الله تعالى.

المصادر

١ـ القرآن الكريم.
٢ـ الاحتجاج للطبرسي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف: ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.
٣ـ الأخبار الطوال للدينوري.
٤ـ الاختصاص للمفيد، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف: ١٣٩٠هـ، ١٩٧١ م.
٥ـ إرشاد الساري للقسطلاني، دار إحياء التراث العربي، لبنان.
٦ـ الإرشاد للمفيد، منشورات بصيرتي، قم المقدسة.
٧ـ الاستيعاب لابن عبد البر القرطبي المالكي، بهامش الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة السعادة، مصر ـ ١٣٢٨ هـ ـ الطبعة الأولى.
٨ـ أُسد الغابة لابن الأثير.
٩ـ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لملا علي القاري دار الأمانة، مؤسسة الرسالة.
١٠ـ الإصابة في تمييز الصحابة. لابن حجر العسقلاني مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٨ هـ ـ الطبعة الأولى.
١١ـ إعلام الورى بأعلام الهدى، للطبرسي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، ١٢٢٨هـ، مطبعة الحيدري.
١٢ـ الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، لبنان.
١٣ـ الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٩ م، الطبعة الأخيرة.
١٤ ـ أنساب الأشراف، للبلاذري، دار التعارف، لبنان، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م ـ الطبعة الأولى.
١٥ـ بحار الأنوار، للمجلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م ـ الطبعة الثالثة.
١٦ ـ البداية والنهاية، لابن كثير، دار الفكر بيروت.
١٧ـ التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ.
١٨ ـ تاريخ ابن عساكر، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م.
١٩ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٠ ـ تاريخ الخلفاء، للسيوطي، دار الفكر بيروت.
٢١ ـ تاريخ الرسل والملوك، للطبري، انتشارات جهان إيران، طبعة ليدن.

٢٢ـ تاريخ اليعقوبي، لأبي يعقوب الأخباري، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م ـ الطبعة الرابعة.
٢٣ ـ تذكرة الخواص، لسبط بن الجوزي، المطبعة العلمية النجف الأشرف ـ ١٣٦٩ هـ أو طبعة مؤسسة أهل البيت عليهم السلام بيروت ـ ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
٢٤ـ الترغيب والترهيب، للقرطبي، دار إحياء التراث العربي، ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٨ م، الطبعة الثالثة.
٢٥ـ تفسير الصافي، للملا محسن فيض الكاشاني، انتشارات كتاب فروشي محمودي.
٢٦ـ تفسير القمي، لعلي بن ابراهيم القمي، بيروت ـ ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٨ م ـ الطبعة الثانية.
٢٧ـ تفسير الكشاف للزمخشري، نشر ادب حوزة ـ إيران.
٢٨ـ تفسير الميزان للطباطبائي.
٢٩ـ تفسير نور الثقلين للحويزي، دار الكتب العلمية، طهران.
٣٠ـ التهذيب لابن عساكر.
٣١ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، دار صادر، بيروت، دائرة المعارف النظامية في الهند ١٣٢٥ هـ.
٣٢ـ ثورة الإمام الحسين عليه السلام، لمحمد مهدي شمس الدين، مطبعة نمونة، قم المقدسة.
٣٣ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧م ـ الطبعة الثالثة.
٣٤- الجامع الصحيح، للترمذي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٥٦ هـ، ١٩٣٧م، الطبعة الأولى.
٣٥ـ الجرح والتعديل، للحافظ الرازي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند ١٢٧١ هـ، ١٩٥٢م.
٣٦ـ حلية الأولياء، للحافظ أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧م، الطبعة الثانية.
٣٧ـ حياة الإمام الحسين عليه السلام، لباقر شريف القرشي، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٣٩٤ هـ، ١٩٧٤م ـ الطبعة الأولى.
٣٨ـ حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، لباقر شريف القرشي.
٣٩ ـ حياة الحيوان الكبرى، لكمال الدين الدميري المكتبة الإسلامية.
٤٠ ـ سمو المعنى في سمو الذات، لعبد الله العلائلي.
٤١- سنن ابن ماجه، لابن ماجه، دار إحياء الكتب العربية، مصر ١٣٧٢هـ، ١٩٥٢م.

٤٢ـ سنن النسائي، للنسائي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤٣ـ السيرة النبوية، لابن هشام، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٥٥ هـ، ١٩٣٦م.
٤٤ـ السيرة الحلبية، للعلي الحلبي الشافعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الناشر المكتبة الإسلامية.
٤٥ـ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، دار إحياء الكتب العربية، مصر ١٣٧٨ هـ، ١٩٥٩م ـ الطبعة الأولى.
٤٦ـ الشعر والشعراء، لابن قتيبة، دار الثقافة، بيروت.
٤٧ـ صحيح البخاري، للبخاري، ١٢٨٦هـ.
٤٨ـ صحيح مسلم، لمسلم النيسابوري، دار الفكر بيروت.
٤٩ ـ صلح الإمام الحسن عليه السلام، لراضي آل ياسين، مطابع علاء الدين، بيروت ـ ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م. الطبعة الثالثة.
٥٠ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد الواقدي، طبعة ليدن بمطبعة بريل ـ ١٤٣٣ هـ، منشورات مؤسسة النصر، بيروت.
٥١ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام. لسيد قطب.
٥٢ـ العقد الفريد، لمحمد بن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م، الطبعة الأولى.
٥٣ـ علل الشرائع، للشيخ الصدوق، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٨٥ هـ، ١٩٦٦م.
٥٤ـ علي ومناوئوه. للدكتور نوري جعفر، مطبوعات النجاح، القاهرة، دار المعلم للطباعة، ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م، الطبعة الرابعة.
٥٥ـ الغارات، لأبي إسحاق الكوفي، مطبعة بهمن، طهران.
٥٦ـ الغدير، لعبد الحسين أحمد الأميني النجفي، مؤسسة الكتب الإسلامية، مطبعة الحيدري، طهران ـ ١٣٧٢ هـ ـ الطبعة الثانية.
٥٧ـ فتح الباري، للعسقلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية.
٥٨ـ الفتنة الكبرى، للدكتور طه حسين.
٥٩ـ الفهرست، لابن النديم.
٦٠ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار صادر بيروت، ١٣٨٥ هـ، ١٩٦٥م.
٦١ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة، لأبي الفتح الأربلي، دار الكتاب الإسلامي، بيروت.
٦٢ ـ كنز العمال، للمتقي الهندي، مكتبة التراث الإسلامي، حلب.

٦٣ـ اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، للسيوطي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥ هـ، ١٩٧٥م، الطبعة الثانية.
٦٤ـ اللهوف في قتلى الطفوف، للسيد ابن طاووس، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٦٩ هـ، ١٩٥٠ م.
٦٥ ـ مجمع البيان، للطبرسي، مطبعة العرفان صيدا، ١٣٣٣ هـ.
٦٦ ـ مجمع الزوائد، ومنبع الفوائد، للحافظ الهيثمي، دار الكتاب بيروت، ١٩٦٧م، الطبعة الثانية.
٦٧ـ مرآة الجنان، لأبي محمد اليافعي اليمني المكي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٠ هـ، ١٩٧٠م، الطبعة الثانية.
٦٨ ـ مروج الذهب، للمسعودي، فهارس يوسف داغر، منشورات دار الهجرة، قم المقدسة، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، الطبعة الثانية.
٦٩ـ المستدرك، للحاكم النيسابوري، دار الفكر، بيروت.
٧٠ـ مسند أحمد بن حنبل، لأحمد بن حنبل.
٧١ـ مع الحسين في نهضته، لأسد حيدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٩، الطبعة الثالثة.
٧٢ـ المغازي، للواقدي.
٧٣ـ مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.
٧٤ـ مقتل الإمام الحسين عليه السلام، لأخطب خوارزم، تحقيق الشيخ محمد السماوي.
٧٥ـ مقتل الإمام الحسين عليه السلام، لعبد الرزاق المقرم، دار الكتب الإسلامية، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٦م.
٧٦ـ لواعج الأشجان في مقتل الإمام الحسين عليه السلام، للسيد محسن الأمين، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣١هـ، منشورات بصيرتي، قم المقدسة.
٧٧- معالم المدرستين، للسيد مرتضى العسكري، مؤسسة البعثة، طهران، ١٤٠٦هـ، الطبعة الثانية.
٧٨ ـ الملاحم والفتن، لرضي الدين ابن طاووس، مطبعة أمير، قم المقدسة، ١٣٧٠ هـ، ١٩١٢م، الطبعة الأولى.
٧٩ ـ مناقب الإمام علي بن أبي طالب، لابن المغازلي، المكتبة الإسلامية، طهران، المطبعة الإسلامية، ١٣٩٤ هـ.
٨٠ ـ منتخب كنز العمال، لعلي المتقي الهندي، منشورات مكتبة التراث الإسلامي ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨م.
٨١ ـ الموفقيات، للزبير بن بكار.

٨٢ ـ النصائح الكافية، لسيد محمد بن عقيل اليماني الصنعائي.
٨٣ ـ نهج السعادة، لمحمد باقر المحمودي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٣٨٥ هـ، ١٩٦٥م، الطبعة الأولى.
٨٤ ـ الوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين عليه السلام، للسيد عبد الكريم القزويني، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية.

الهوامش:

[١] الأخبار الطوال: ٢٢١
[٢] الأخبار الطوال: ٢٢٢.
[٣] الأخبار الطوال: ٢٢٤.
[٤] منزل بطريق مكة بعد واقعة من الكوفة. معجم البلدان ٣ ٣٥٦ دار صادر.
[٥] أنظر الفترح لابن الأعشم ٥ ١٢٤، ومقتل الخوارزمي ١: ٢٢٢، تحقيق الشيخ محمد الساري.
[٦] اللهوف للسيد ابن طاوس: ٥٣ أصفهان ١٣٦٦. ولواعج الأشجان السيد الأمين ونفس المهموم للمحدث القمي: ١٦٣، مكتبة بصيرتي قم ١٤٠٥ هـ. ق، ومن ٧٠ مطبعة العرفان مبدا ١٣٣١ ه. ق.
[٧] الطبري ٧: ٣٠١ الطبعة الأوربية.
[٨] الطبري ٧: ٣٠٦ الطبعة الأوربية. نقلنا من النص بمقدار الحاجة، وينقل الطبري مناماً آخر للإمام بمضمون قريب من هذا المضمون في ٧: ٣١٨.
[٩] اللهوف للسيد ابن طاوس ٥٥ط. أصفهان، ونفس المهموم ١٦٤ـ١٦٥ ط. قم ١٤٠٥ هـ في وروى الفقرة الأخيرة المتعلقة بالنساء المسعودي في إثبات الوصية: ١٤١ ط. المطبعة الحيدرية في النجف.
[١٠] الزخرف: ٥٤.
[١١] يقول الراغب في المفردات: الطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله ويستعمل في الواحد والجمع قال: ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ و ﴿الذين اجتنبوا الطاغوت﴾ و ﴿أولياؤهم الطاغوت﴾ و ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾، مفردات الراغب: ٣٠٥ـ٣٠٤.
[١٢] البقرة: ٧.
[١٣] أي: أوقد تم علينا ناراً كنا قد اقتدحناها واستخرجناها نحن على عدوّنا وعدوّكم.

[١٤] مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرّم ٢٩٢ ط. النجف ١٣٧٦.
[١٥] آل عمران: ١٤٤.
[١٦] الحشر: ١٩.
[١٧] الأعراف: ٩.
[١٨] الزمر: ١٥.
[١٩] لاحظ سورة الأنعام: ١٢، والأعراف: ٩ و ٥٣، وهود: ٢١، والمؤمنون: ١٠٣، والزمر: ١٥، وآيات أخرى من مثل هذه الآيات.
[٢٠] البقرة: ٥٧.
[٢١] النحل: ١١٨.
[٢٢] يونس: ١٠٨، والإسراء: ١٥.
[٢٣] الكهف: ١٠٤.
[٢٤] محمد ١.
[٢٥] يشير الإمام إلى سنّة الله تعالى في المحق.
[٢٦] وفي هذه الفقرة يشير إلى سنّة «الاستبدال» بعد «المحق»، والنص في تاريخ الطبري ٦: ٢٢٩.
[٢٧] الأنعام: ١١٠.
[٢٨] البقرة: ٧.
[٢٩] مقتل الحسين للخوارزمي (المتوفى ٥٦٨ه) تحقيق الشيخ محمد السماوي ١: ١٨٤.
[٣٠] أمالي الطوسي: ٢٩٠ ط. النجف.

د. الشيخ عبد الله أحمد اليوسف
أُستاذ في الحوزة العلمية ـ القطيف

دور الشباب في نهضة الإمام الحسين عليه السلام

المقدّمة

تمتاز مرحلة الشباب بالقوّة والحيوية والحماس والنشاط والفاعلية، فأيّام الشباب هي مرحلة القوّة بين ضعفين: ضعف الطفولة، وضعف الشيخوخة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾[1]، فمرحلة الطفولة هي مرحلة ضعف واعتماد على الأبوين، ومرحلة الشيخوخة كذلك مرحلة ضعف وعجز عن تحمّل المسؤوليات الكبيرة، خصوصاً فيما يتطلّب قوّة بدنية كالقتال والحرب.

والشباب بما يملكون من طاقات ومواهب وإمكانات، وبما يتميّزون به من قدرات عقلية وبدنية، وبما يتّصفون به من سمات نفسية وأخلاقية، قادرون على

صناعة التغيير الاجتماعي، وإحداث الكثير من المتغيّرات فيما يجري من حولهم؛ لذلك نلاحظ أنّ كلّ الذين يصنعون التغيير في مختلف المجتمعات الإنسانية هم شريحة الشباب، فهم ـ عادةً ـ مَن يحملون راية التغيير، ويرفعون شعار الإصلاح.

وقد اشترك في النهضة الحسينية المباركة: الشباب والشيوخ، والكبار والصغار، والرجال والنساء، والأحرار والعبيد، والعرب والعجم، فقد كان أنصار الإمام الحسين عليه السلام من قوميات وبلدان متعدّدة، ومن مراحل عمرية مختلفة، ولكنّ الفئة الغالبة كانت من شريحة الشباب، فمنهم مَن كان في مقتبل شبابه كالقاسم بن الحسن عليه السلام، ومنهم مَن كان في ريعان شبابه كعلي الأكبر، وعبد الله بن مسلم بن عقيل.

ووفقاً لما تُشير إليه المصادر التاريخية عن أعمار الثوّار والأنصار الذين استُشهدوا مع الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، فإنّ فئة الشباب كانوا العنصر الغالب في تركيبة الجيش الحسيني، وأنصار الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه.

ومن الطبيعي أن يكون الشباب هم العنصر الغالب في النهضة الحسينية؛ لأنّ شريحة الشباب من أكثر الشرائح الاجتماعية تأثيراً وتأثّراً، وأكثرها حماساً واندفاعاً، فهي كفئة عمرية تكون في عنفوان عطائها وحيويّتها، وفي أوجّ قوّتها وقدرتها، وتستطيع أن تقاتل وتحارب؛ ولذا نجد أنّ الجيوش في الدول إنّما تتكوّن في أغلبها من الشباب.

وقد كان للشباب المؤمن دور مهم وفاعل ومؤثّر في معركة كربلاء، فقد أبلوا فيها بلاءً حسناً، وجاهدوا جهاد الأبطال، ونازلوا الأعداء ببسالة وشجاعة عَزّ نظيرها.

المبحث الأوّل: مفهوم الشباب

من المهم قبل الولوج في البحث أن نحرّر مفهوم الشباب، سواء في اللغة أم الاصطلاح أم في القرآن الكريم، وتحديد سنّ هذه المرحلة العمرية؛ حتّى نعرف المراد منه عند حديثنا عن فئة الشباب.

أ. الشباب لغة

جاء في لسان العرب: «شبب: الشباب: الفَتاء والحداثةُ، شبَّ يشِبُّ شباباً وشبيبةً... والاسم الشَّبيبةُ، وهو خِلافُ الشَّيبِ، والشباب: جمع شابٍّ، وكذلك الشُّبان... وأَشَبَّ الرَّجُل بَنِينَ إذا شَبَّ ولَده، ويقال: أَشَبَّتْ فُلانةُ أَولاداً إذا شَبَّ لها أَولادٌ. ومرَرْت برجال شَبَبَةٍ، أي: شُبَّانٍ»[٢].

وقال صاحب مجمع البحرين: «(شبب) تكرر في الحديث ذكر الشباب، هو كسحاب جمع شابّ بالتشديد، وكذلك الشبان كفرسان، والأُنثى شابّة، والجمع شواب، كدابّة ودواب. وشبَّ الصبيُّ من باب ضرب شباباً وشبيبة فهو شاب، وذلك سنّ قبل الكهولة، وفي الحديث: ابن ثلاثين سنة يُسمّى شاباً، والشباب ككتاب: نشاط الفرس ورفع يديه جميعاً»[٣].

ونستنتج من خلال مراجعة المصادر اللغوية أنّ المعنى اللغوي للشباب يفيد في البروز والنماء والاستواء والتكامل.

ب. المقصود بالشباب

«هناك اختلاف بين الباحثين في تحديد مرحلة الشباب، فنجد أنّ هناك اتجاهاً يميل إلى الاعتماد على البعد الزمني في تحديد هذه المرحلة، وقد ورد في (المعجم الوجيز) أنّ الشاب هو مَن أدرك سنّ البلوغ إلى الثلاثين[٤]، ويرى بعض علماء السكّان أنّ فئة الشباب هي الفئة التي

تقع أعمارها بين (١٥) و (٢٥) عاماً، بينما يرى بعضهم الآخر أنّ هذه الفئة تقع أعمارها بين (١٥) و (٣٠) عاماً، وهذا يرجع إلى اختلاف السياق الاجتماعي الذي يتمّ في إطاره تحديد هذه الفئة.

وقد بدأ التقرير الذي أعدّه المجلس القومي للجريمة والجنح التابع للأُمم المتحدة في مدينة نيويورك بتحديد المقصود بفئة الشباب، متعرّضاً للاختلاف الكائن بين الدول في الحدّ الأدنى والأقصى لسنّ الشباب الذي يتراوح بين (١٥ أو ١٨) إلى (٢١) عاماً، إلّا أنّ توصية عدد من الجهات المعنية بشؤون الجريمة والجنح نادت برفع الحد الأقصى لسنّ الشباب إلى (٢٥) عاماً، وبذلك يمكن تحديد فئة الشباب بأنّها الفئة العمرية بين (١٥) و (٢٥) عاماً.

ومن العلماء مَن يحدّد مرحلة الشباب في الفترة العمرية التي تراوح بين (١٥) و (٢٤) عاماً، وتتميّز هذه المرحلة بأنّها مرحلة انتقالية إلى الرجولة أو الأُمومة، ويتخطّى الأفراد فيها مرحلة التوجيه والرعاية، ويكونون أكثر تحرّراً، ولهذا تحتاج هذه المرحلة إلى عناية خاصّة. وقد يرى بعض الباحثين أنّ الشباب فترة عمرية تمتد من (١٦) حتّى (٢٥) عاماً، وهي الفترة التي يكتمل فيها النمو الجسمي والعقلي على نحو يجعل الفرد قادراً على أداء وظائفه المختلفة.

إلّا أنّ وجهة النظر السابقة تستخدم إطاراً بيولوجياً في الغالب يعتمد على فكرة النضج الجسمي والعقلي، وتتجاهل حقيقة مؤدّاها أنّ الشباب يمثّل حقيقة اجتماعية أكثر منها ظاهرة بيولوجية، الأمر الذي يُشير إلى أنّ هناك اتجاهاً آخر يأخذ بمعيار النضج والتكامل الاجتماعي للشخصية، ويميل أصحاب هذا الاتجاه إلى تحديد مجموعة من

المواصفات أو الخصائص التي تطبّق بوصفها مقياساً على أفراد المجتمع، بحيث نستطيع أن نميّز الشباب عن غيرهم من الفئات بغض النظر عن المرحلة العمرية.

ونجد أنّ التصوّر الصحيح عن الشباب يجب أن يأخذ في اعتباره المعيارين السابقين في آنٍ معاً، أي: إنّ الشباب يمثّل فئة عمرية في المجتمع تتسم بعدد من الصفات والقدرات الاجتماعية والنفسية المتميّزة، وتختلف بداية هذه الفترة العمرية ونهايتها باختلاف الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة في المجتمع»[٥].

والتحديد الشرعي للشباب ـ بحسب رأي محيط المحيط ـ ما بين (١٥) و (٣٠)، وللشابات ما بين (١٥) و (٢٩)، وهو ما يتمشّى إلى قدر كبير ـ يكاد يبلغ درجة التطابق ـ مع المفهوم الدولي المستقرّ للشباب (١٥ ـ ٢٥)، أمّا مجلس وزراء الشباب والرياضة في دول مجلس التعاون، فقد حدّد الشباب في الفئة العمرية من (١٥) إلى (٢٤) سنة، متمشياً بذلك مع مجلس وزراء الشباب العرب.

يبدو أنّ التحديد الدولي والعربي والخليجي يتمشّى مع الدخول في مرحلة المراهقة (١٥ـ١٨) سنة التي تلي البلوغ، وصولاً إلى نهاية المرحلة الجامعية، والدخول في سوق العمل، وهي الفترة التي يكتمل فيها النضج الجسمي والعقلي والنفسي والاجتماعي بشكل عام.

وقبل مناقشة هذا التحديد، تجدر الإشارة إلى التعريف القاموسي الأجنبي (إنجليزي، فرنسي) للشباب، فإنّ قاموس (وبستر) على سبيل المثال، ومثله قاموس (لاروس) الفرنسي لا يتضمّنان تسمية قائمة بذاتها للشباب، كما هو شأن اللغة العربية، إنّهما يقولان بصفة الحداثة (Young، Jeune)

وبالاسم منها (Jeunesse، Youth)، ويذكر (وبستر) أنّ هذه الصفة تدلّ على الفترة من الحياة التي يكون فيها الإنسان حدثاً، أو الفترة ما بين الطفولة والرشد، أو بين المراهقة والنضج، وأن تكون حدثاً هو أن تكون غير ناضج، أمّا قاموس (لاروس) ـ الذي يذهب المذهب نفسه ـ فيذكر أنّ كلمة حداثة (jeunesse) تعني بدايات الشيء أو أوّله، وهو ما أخذه عنه المعجم الوسيط تحديداً؛ إذ يذكر أنّ الشباب هو إدراك سنّ البلوغ إلى سنّ الرجولة، والشباب هو الحداثة، وشباب الشيء هو أوّله.

يرجع هذا التفاوت في تحديد الشباب وتعريفه إلى أنّه ظاهرة محدثة عموماً للدراسة والبحث، فمن الطريف الإشارة إلى أنّ علم نفس النمو مثلاً لا يفرد مرحلة خاصّة للشباب تُدرس بحدّ ذاتها، كما يفعل في تفصيل الطفولة ومراحلها (أُولى، وسطى، متأخّرة)، وتفصيل البحث في البلوغ ومرحلة المراهقة التي تليها، ثمّ يتم القفز مباشرة إلى سنّ الرشد؛ ذلك أنّه إلى تاريخ قريب نسبياً كان يتمّ الدخول في حياة الرشد في سنّ مبكرة عموماً، سواء في سوق العمل أم الزواج، أمّا الآن فقد أصبح الدخول في العضوية الاجتماعية الكاملة ـ أي: العمل المهني المنتظم، والزواج والمشاركة في الحياة العامة ـ يتأخّر بازدياد، مع طول مدّة الإعالة؛ وعليه ازداد سن الزواج خلال أقل من عقدين عشر سنوات، وأصبح يدور حول الثلاثينيات للصبيان، وحول (٢٥ ـ ٣٠) للفتيات[٦].

«وقد تمّ تحديد المقصود بالشباب في هذه الدراسة بالارتكاز على التحديد العمري لمرحلة الشباب، وأنّها الفترة العمرية التي تتراوح ما بين (١٦) ـ (٣٠) سنة، ثمّ إنّ هذه الدراسة عندما تتناول الشباب فهي أيضاً تُشير إلى فئة المراهقين؛

باعتبارهم من الشرائح العمرية المتفاعلة بسرعة مع ثورة الاتصال والإعلام وعصر العولمة وتدفّق المعلومات، وتحوّل العالم إلى قرية كونية صغيرة»[٧].

ج ـ الشباب في القرآن الكريم

«بالرغم من أنّه لم ترد كلمة (الشباب) في القرآن الكريم بلفظها، إلّا أنّه وردت ألفاظ عدّة في القرآن تُشير إلى معنى الشباب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾، والفتى ـ كما يقول الراغب الإصفهاني ـ: الطري من الشباب، والأُنثى فتاة، والمصدر فتاء، ويكنّى بهما عن العبد والأَمة، قال: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾، والفتى من الإبل كالفتى من الناس، وجمع الفتى: فتية وفتيان، وجمع الفتاة: فتيات[٨].

كما عبّر القرآن الكريم عن مرحلة الشباب بمرحلة القوّة بين ضعفين: ضعف الطفولة، وضعف الشيخوخة في قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾، فالإنسان يكون ضعيفاً في طفولته، ويحتاج إلى المساعدة والرعاية والاهتمام، وهو كذلك عندما يكبر، ويكون شيخاً عاجزاً عن القيام بأبسط أُموره ممّا يحتاج معه إلى الرعاية والمساعدة والاهتمام، أمّا مرحلة الشباب ـ وهي مرحلة القوّة ـ فهي مرحلة العطاء والفاعلية والنشاط.

كما تحدّث القرآن الكريم عن نماذج رائعة للشباب المؤمن، وعرّف قصصهم بأُسلوب التصوير البياني الرائع، فقد أشار القرآن الحكيم إلى قصّة إسماعيل واستعداده للتضحية في سبيل الله تعالى، كما أشار إلى قصّة إبراهيم عندما كان شاباً يافعاً في مواجهة الأصنام والدعوة إلى توحيد الله تعالى.

كما عرض قصّة نبيّ الله يوسف عليه السلام، وكيف استطاع مقاومة فتنة النساء، وتفضيله السجن على إشباع الغرائز والشهوات، كما تحدّث عن قصّة فتية الكهف، وكيف حافظوا على إيمانهم في مواجهة مجتمع منحرف.

وعندما يتحدّث القرآن الكريم عن نماذج مؤمنة للشباب وبأُسلوب التصوير البياني المعجز، وبأُسلوب القصّة المؤثّر يريد أن يبعث برسالة للشباب في كلّ عصر ومصر إلى أهمّية الثبات على القيم والمبادئ، والتضحية من أجل قيم العدل والحق والحرية»[٩].

المبحث الثاني: اهتمام الإمام الحسين عليه السلام بالشباب

كان الإمام الحسين عليه السلام يتفقّد أحوال الشرائح الاجتماعية، ويسأل عن اهتمامات أصناف الناس في زمانه، وكان يولي عناية خاصّة بشريحة الشباب، وشريحة الموالي (العبيد).

قال جُعَيد همدان: «أتيت الحسينَ بن عليّ... فساءلني فقال: أخبرني عن شباب العرب أو عن العرب. قال: قلت: أصحاب جلاهقاتٍ[١٠] ومجالس. قال: فأخبرني عن الموالي. قال: قلت: آكلُ رباً، أو حريصٌ على الدُّنيا. قال: فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون! والله، إنّهما للصِّنفانِ اللَّذان كُنّا نتحدّث أنّ الله تبارك وتعالى ينتصر بهما لدينه. يا جُعيد همدان، النّاس أربعةٌ: منهم مَن له خُلقٌ وليس له خَلاقٌ[١١]، ومنهم مَن له خَلاقٌ وليس له خُلقٌ، ومنهم مَن له خُلقٌ وخَلاقٌ؛ وذاك أفضل النّاس، ومنهم مَن ليس له خُلقٌ ولا خَلاقٌ؛ وذاك شَرُّ النّاس»[١٢].

فالإمام الحسين عليه السلام كان يسأل عن شريحة شباب العرب، أو العرب بصورة عامّة، وكانوا قد انغمسوا في الشهوات، وكانوا يرتادون مجالس اللهو واللعب، أمّا الموالي فكانوا شريحة مضطهدة مقهورة، يُنظر إليهم

بدونية واحتقار، ويمارس ضدّهم التمييز العنصري، وكان العرب يعتبرون أنفسهم أفضل وأرقى قومية وجنساً منهم! ومع ذلك كانوا حريصين على الدنيا، ويأكلون الربا.

فأظهر الإمام الحسين عليه السلام أسفه على تلك الحالة؛ لأنّ هاتين الشريحتين لو كانتا في طريق الصلاح والخير اعتُمد عليهما في نصرة الإسلام، وبناء المجتمع؛ ونشر الخير والصلاح. ثمّ بيّن الإمام الحسين عليه السلام أصناف الناس، ومَن هم أفضل الناس وشرّهم.

وهذا الموقف والاهتمام بشريحة الشباب؛ لأنّهم أسرع الناس إلى كلّ خير، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام لأبي جعفر الأحول: «أَتيتَ البصرة؟ فقال: نعم. قال: كيف رأيت مُسارعة النّاس إلى هذا الأمر، ودخولَهم فيه؟ قال: والله، إنّهم لقليل، ولقد فعلوا، وإنّ ذلك لقليل. فقال: عليك بالأحداث؛ فإنّهم أسرع إلى كلّ خيرٍ»[١٣]،

فالشباب طاقة هامّة من طاقات بناء المجتمع، فإذا استفيد من طاقاتهم وإمكاناتهم وقدراتهم بالاتجاه الإيجابي فإنّ ذلك يُسهم في تطوير المجتمع وازدهاره وتقدّمه.

أمّا الشريحة الأُخرى التي كان يسأل عنها الإمام الحسين عليه السلام فهي شريحة الموالي، وهي شريحة ضعيفة ومظلومة، ويمكن الاستفادة منها في نصرة الدين؛ لأنّها تسارع إلى التفاعل مع الدعوة لرفع الظلم والتمييز العنصري عنها.

ومن جهة أُخرى فإنّ اهتمام الإمام الحسين عليه السلام بهاتين الشريحتين يبرز اهتمامه بمختلف المكوّنات الاجتماعية، ونظرته الإيجابية للشرائح الفاعلة أو المظلومة من أجل إدارة المجتمع بصورة صحيحة، ويعزّز من قِيم التعايش والتسامح والانسجام والتواصل والتراحم بين مختلف الشرائح والمكوّنات الاجتماعية.

نصرة الشباب للإمام الحسين عليه السلام

اشترك في الجيش الحسيني الشباب والشيوخ، فقد كان أنصار الإمام الحسين عليه السلام من مراحل عمرية مختلفة، فمنهم مَن لم يبلغ الحلم كالقاسم بن الحسن عليه السلام، ومنهم مَن كان في ريعان شبابه كعلي الأكبر، وعبد الله وعبيد الله ابني يزيد بن نبيط، وهم من عبد القيس، خرجوا من البصرة إلى كربلاء لنصرة الإمام الحسين عليه السلام، وكان ليزيد بن نبيط بنون عشرة، فقال: أيّكم يخرج معي؟ فانتدب معه ابنان له: عبيد الله وعبد الله[١٤].

ومن الشيوخ كان بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله الذين انضمّوا إلى الركب الحسيني، كأنس بن الحارث الكاهلي، وحبيب بن مظاهر الأسدي، ومسلم بن عوسجة وغيرهم، وبحسب ما تُشير إليه بعض المصادر التاريخية عن أعمار الثوار والأنصار، فإنّ فئة الشباب كانت العنصر الغالب في تركيبة الجيش الحسيني، وأنصار الإمام الحسين عليه السلام.

المبحث الثالث: نماذج من شباب كربلاء

إنّ الغالب في أنصار الإمام الحسين عليه السلام في معركة كربلاء كانوا من شريحة الشباب، فعندما نُلقي نظرةً على أسماء الشهداء وأعمارهم سنجد أنّ أكثرهم كانوا من هذه الشريحة، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أبرزهم وأشهرهم، وهم:

١ـ علي بن الحسين الأكبر عليهما السلام

كان علي الأكبر في ريعان شبابه، وكان آية في الكمال والجمال والجلال، وأشبه الناس خلقاً وخُلُقاً ومنطقاً برسول الله صلى الله عليه وآله، وكان أهل البيت عليهم السلام عندما يشتاقون إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ينظرون إليه، ولكنّه عندما رأى الموقف يتطلّب منه أن يدافع عن الدين، ويُضحّي من أجله، ويكون من أنصار

الإمام الحسين عليه السلام، بادر ليكون أوّل الهاشميين نزولاً إلى المعركة، ولم يكن يخشى أن يقع على الموت أو يقع الموت عليه؛ لأنّه كان على الحق ومعه، وكان يقول لأبيه: «يا أبه، أفلسنا على الحق؟ فقال: بلى يا بني، والذي إليه مرجع العباد. فقال: يا أبه، إذن لا نبالي بالموت»[١٥].

وقد استُشهد علي الأكبر في معركة كربلاء بعدما بارز الأعداء بشجاعة بني هاشم، فقتل منهم مَن قتل، حتّى خرّ شهيداً في المعركة الفاصلة بين الحقّ والباطل، فهنيئاً له الشهادة مع أبيه الإمام الحسين عليه السلام.

«وقد ورد ذكره في: (الزيارة، الإرشاد، الطبري، الإصفهاني، الخوارزمي، المسعودي)، يكنّى أبا الحسن، كان له من العمر سبع وعشرون سنة. وردت رواية أنّه كان متزوجاً من أُم ولد، أُمّه ليلى بنت أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفي، وهو أوّل مَن قُتل من بني هاشم»[١٦].

وروى الخوارزمي: «فتقدّم علي بن الحسين ـ وأُمّه ليلى بنت أبي مُرّة بن عروة بن مسعود الثقفي ـ وهو يومئذٍ ابن ثمان عشرة سنة، فلمّا رآه الحسين عليه السلام رفع شيبته نحو السماء، وقال: اللّهمّ اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه النّاس خَلقاً وخُلُقاً ومنطقاً برسولك محمد صلى الله عليه وآله، كُنّا إذا اشتقنا إلى وجه رسولك نظرنا إلى وجهه، اللّهمّ فامنعهم بركات الأرض، وإن منعتهم ففرّقهم تفريقاً، ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا تُرضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنّهم دعونا لينصرونا ثمّ عَدَوا علينا يُقاتلونا ويقتلونا.

ثمّ صاح الحسين بعمر بن سعد: ما لك؟! قطع الله رحمك، ولا بارك لك في أمرك، وسلّط عليك مَن يذبحك على فراشك، كما قطعت رحمي، ولم تحفظ قرابتي من رسول الله! ثمّ

رفع عليه السلام صوته وقرأ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ثمّ حمل علي بن الحسين وهو يقول:

أنا علي بن الحسين بن علي
نحن وبيت الله أوْلى بالنبي
والله لا يحكم فينا ابن الدعي
أطعنكم بالرمح حتّى ينثني
أضربكم بالسيف حتّى يلتوي
ضرب غلام هاشمي علوي

فلم يزل يقاتل حتّى ضجّ أهل الكوفة لكثرة مَن قتل منهم، حتّى أنّه رُوي أنّه على عطشه قتل مائة وعشرين رجلاً، ثمّ رجع إلى أبيه وقد أصابته جراحات كثيرة، فقال: يا أبه، العطش قد قتلني، وثقل الحديد قد أجهدني، فهل إلى شربة من ماء سبيل؛ أتقوّى بها على الأعداء؟

فبكى الحسين، وقال: يا بني، عَزّ على محمد وعلى عليّ وعلى أبيك أن تدعوهم فلا يُجيبونك، وتستغيث بهم فلا يُغيثونك، يا بني، هات لسانك. فأخذ لسانه فمصه، ودفع إليه خاتمه، وقال له: خذ هذا الخاتم في فيك، وارجع إلى قتال عدوّك، فإنّي أرجو أن لا تُمسي حتّى يسقيك جدّك بكأسه الأوفى شربةً لا تظمأُ بعدها أبداً.

فرجع علي بن الحسين إلى القتال، وحمل وهو يقول:

الحرب قد بانت لهَا حقائق
وظهرت من بعدها مصادق
والله ربّ العرش لا نفارق
جموعكم أو تُغمد البوارق

وجعل يقاتل حتّى قتل تمام المائتين، ثمّ ضربه مُنقذ بن مُرّة العبدي على مفرق رأسه ضربة صرعه فيها، وضربه النّاس بأسيافهم، فاعتنق الفرس فحمله الفرس إلى عسكر عدوّه، فقطّعوه بأسيافهم إرباً إرباً، فلمّا بلغت روحه

التراقي، نادى بأعلى صوته: يا أبتاه! هذا جدّي رسول الله، قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأُ بعدها أبداً، وهو يقول لك: العجل فإنّ لك كأساً مذخورةً. فصاح الحسين: قتل الله قوماً قتلوك! يا بني، ما أجرأهم على الله، وعلى انتهاك حُرمة رسول الله! على الدنيا بعدك العفا»[١٧].

وهكذا قدّم علي الأكبر ـ وهو في بداية مرحلة الشباب ـ حياته فداء من أجل الدين، والدفاع عن الإسلام، وكان بإمكانه أن يعيش مثل أيّ شاب، متمتعاً بشبابه، ومستمتعاً بحياته، لكنّه لمّا رأى مستقبل الإسلام في خطر، وأنّ المعركة فاصلة بين الحقّ والباطل، قرّر باختياره وقناعته وإرادته أن يمضي شهيداً مع أبيه الإمام الحسين عليه السلام؛ دفاعاً عن الحقّ والدين.

فعلى كلّ شاب الاقتداء بهذا الشاب القدوة والأُنموذج والرمز، وتحمّل المسؤوليات والواجبات الدينية والاجتماعية والعلمية وغيرها، واستثمار مرحلة الشباب في العمل الصالح، والسعي نحو الخير والصلاح والعطاء.

٢ـ القاسم بن الحسن عليهما السلام

القاسم هو نجل الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، وأُمّه أُمّ ولد، و «اسمها نرجس»[١٨]، كان جميلاً، كأنّ وجهه شقّة قمر، واستناداً إلى بعض الروايات فإنّه لم يبلغ سنّ البلوغ حين استُشهد[١٩]، لكن يرى مؤلّف لباب الأنساب أنّه كان ابن ستّ عشرة سنة[٢٠].

وتدل كيفيّة استئذان هذا الفتى الإمام الحسين عليه السلام على قوّة معرفته، وكمال درايته وشهامته وإيمانه، ولعلّه بسبب صغر سنّه لم يأذن له الإمام عليه السلام بالذهاب إلى سوح القتال في بادئ الأمر، إلّا أنّ القاسم قبّل يدي

الإمام عليه السلام ورجليه وأصرّ كثيراً حتّى أذن له.

وفي حين كانت قطرات الدموع تسيل على خدّيه، حمل على صفوف العدوّ، وهو يرتجز: [٢١]

إن تُنكروني فأنا فرع الحسن

سبط النبيّ المصطفى والمؤتمن

هذا حسين كالأسير المرتهن

بين أُناس لا سُقوا صوب المُزن

وبعد أن قتل عدداً من عسكر ابن سعد، التحق بركب الشهداء. وقد ورد اسمه في الزيارة الرجبية[٢٢]، وزيارة الناحية المقدّسة[٢٣].

وننقل بعض ما جاء في المصادر المعتبرة حول مقتل القاسم عليه السلام، فقد جاء في تاريخ الطبري عن حميد بن مسلم قال: «خرج إلينا غلام كأنّ وجهه شقّة قمر، في يده السيف، عليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شسع[٢٤] أحدهما ـ ما أنسى أنّها اليسرى ـ فقال لي عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي: والله، لأشدنّ عليه. فقلت له: سبحان الله، وما تريد إلى ذلك؟! يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم قد احتولوهم. قال: فقال: والله، لأشدنّ عليه. فشدّ عليه، فما ولى حتّى ضرب رأسه بالسيف فوقع الغلام لوجهه. فقال: يا عمّاه. قال: فجلى الحسين كما يجلي الصقر، ثمّ شدّ شدّة ليث غُضب[٢٥]، فضرب عمراً بالسيف فاتقاه بالساعد فأطنّها[٢٦] من لدن المرفق فصاح، ثمّ تنحّى عنه، وحملت خيل لأهل الكوفة ليستنقذوا عمراً من حسين، فاستقبلت عمراً بصدورها فحرّكت حوافرها وجالت الخيل بفرسانها عليه، فتوطأته حتّى مات، وانجلت الغبرة، فإذا أنا بالحسين قائم على رأس الغلام، والغلام يفحص برجليه، وحسين يقول: بُعداً لقوم قتلوك ومَن خصمهم يوم القيامة فيك جدّك. ثمّ قال: عزّ والله على عمّك أن تدعوه فلا يُجيبك، أو يُجيبك ثمّ لا

ينفعك، صوت والله كثر واتره[٢٧] وقلّ ناصره. ثمّ احتمله فكأنّي أنظر إلى رجلي الغلام يخطّان في الأرض، وقد وضع حسين صدره على صدره، قال: فقلت في نفسي: ما يصنع به؟ فجاء به حتّى ألقاه مع ابنه علي بن الحسين وقتلى قد قُتلت حوله من أهله بيته، فسألت عن الغلام، فقيل: هو القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب»[٢٨].

وفي الأمالي للصدوق: «وبرز من بعده [أي: بعد علي بن الحسين] القاسم بن الحسن بن علي بن أبي‌طالب عليهم السلام، وهو يقول:

لا تجزعي نفسي فكلّ فانِ

اليوم تلقين ذُرى الجنانِ

فقتل منهم ثلاثةً، ثمّ رُمي عن فرسه»[٢٩].

وممّا سبق يتضح أنّ القاسم بن الحسن عليه السلام كان فتى يافعاً في بداية شبابه، ولكنّ عقله كان عقل الكبار، تميّز بالجمال والكمال، آثر الآخرة على الدنيا، والشهادة بعزّ على العيش بذلّ، تعلّم فنّ المبارزة من عمّه العبّاس عليه السلام، وعاش يتيماً، وقد تربّى في كنف عمّه الإمام الحسين عليه السلام، فأخذ منه العزّة والإباء والشجاعة، كان يرى الموت مع الحسين عليه السلام أحلى من العسل، فقد رُوي في كتاب الهداية الكبرى، للحسين بن حمدان الخصيبي، عن الإمام زين العابدين عليه السلام في بيان أحداث ليلة عاشوراء:

«فقال له القاسم...: يا عمّ! وأنا أُقتل؟ فأشفق عليه، ثمّ قال: يابن أخي! كيف الموت عندك؟ قال: يا عمّ أحلى من العسل! قال: إي والله، فذلك أحلى»[٣٠].

ولم يقبل القاسم أن تفوته الشهادة، فأصرّ على عمّه أن ينزل إلى المعركة حتّى أذن له، فقاتل قتال الأبطال، حتّى نال وسام الشهادة؛ وما أعظمه من وسام!

٣ـ عبد الله بن مسلم بن عقيل

هو عبد الله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب، وأُمّه رقيّة بنت الإمام علي عليه السلام[٣١]، كان عمره حين استُشهد (٢٦) سنة[٣٢]، ويظهر من بعضهم أنّه أوّل شهيد من أهل البيت عليهم السلام[٣٣]، ولكنّه قد استُشهد بعد علي الأكبر استناداً إلى روايات عدّة من المصادر[٣٤].

ورد اسمه في زيارتي الناحية والرجبية[٣٥]، فجاء في زيارة الناحية المقدّسة: «السلام على القتيل ابن القتيل، عبد الله بن مسلم بن عقيل، ولعن الله قاتله عامر بن صعصعة. وقيل: أسد بن مالك»[٣٦].

وجاء في كتاب مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ما نصّه: «لمّا قُتل أصحاب الحسين عليه السلام، ولم يبقَ إلّا أهل بيته، وهم ولد علي، وولد جعفر، وولد عقيل، وولد الحسن، وولده، اجتمعوا، وودّع بعضهم بعضاً، وعزموا على الحرب، فأوّل مَن خرج من أهل بيته[٣٧] عبد الله بن مسلم بن عقيل، فخرج وهو يقول:

اليوم ألقى مسلما وهو أبي
وفتية بادوا على دين النبي
ليس كقوم عُرفوا بالكذب
لكن خيار وكرام النسب

ثمّ حمل فقاتل، وقتل جماعة، ثمّ قُتل»[٣٨].

وفي الأمالي للشيخ الصدوق: عن عبد الله بن منصور، عن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين، عن أبيه، عن جدّه [زين العابدين] عليهم السلام: «برز من بعده [أي: بعد هلال ابن حجّاج] عبد الله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب، وأنشأ يقول:

أقسمت لا أُقتل إلّا حُرّاً
وقد وجدت الموت شيئاً مُرّاً
أكره أن أُدعى جباناً فَرّاً
إنّ الجبان مَن عصى وفَرّاً

فقتل منهم ثلاثةً، ثمّ قُتل»[٣٩].

وقال الشيخ المفيد في الإرشاد: «ثمّ رمى رجل من أصحاب عمر بن سعد ـ يقال له: عمرو بن صبيح ـ عبدَ الله بن مسلم بن عقيل بسهمٍ، فوضع عبد الله يده على جبهته يتّقيه، فأصاب السهم كفّه ونفذ إلى جبهته فسمرها به، فلم يستطع تحريكها، ثمّ انتحى عليه آخر برمحه فطعنه في قلبه فقتله»[٤٠].

وقد كان لأولاد عقيل بن أبي طالب دور مؤثّر وفاعل في النهضة الحسينية، ففضلاً عن شهادة مسلم بن عقيل فقد استُشهد في هذا السبيل ابنه عبد الله، وإخوته جعفر، وعبد الله، وعبد الرحمن، وكذلك محمد بن أبي سعيد، وهو ابن أخيه الآخر.

ونكتفي بذكر هذه النماذج (القدوات) من شباب كربلاء، وإلّا فإنّ الحديث عنهم يطول، فإنّ أغلب مَن استُشهد في كربلاء كانوا من شريحة الشباب، كأولاد عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب، وأولاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، وأشهرهم القاسم الذي أشرنا إليه، وأولاد عقيل بن أبي طالب، وغيرهم. وحري بشباب اليوم الاقتداء والتأسّي بمثل هؤلاء الشباب الذين ضحّوا بأنفسهم في سبيل الدين، وآثروا الآخرة على الدنيا.

المبحث الرابع: واجبات الشباب اليوم

انطلاقاً من دروس النهضة الحسينية، وتضحيات الشباب في واقعة كربلاء الأليمة، فإنّ شباب هذا العصر، وفي كلّ عصر، يتحمّلون واجبات ومسؤوليات كبيرة، نُشير إلى أبرزها في النقاط الآتية:

١ـ تعزيز المنظومة القيميّة

الإمام الحسين عليه السلام ـ كباقي الأئمّة الأطهار عليهم السلام ـ رسم لنا منهجاً للتعرّف على الإسلام المحمدي

الأصيل، وعلينا أن نسير على ذلك المنهج الذي مَن سار عليه نجا، ومَن تخلّف عنه غرق وهوى، والارتباط بمنهج الإمام الحسين عليه السلام يعني اتباع خطّه الديني والقيمي، والسير على فكره ومنهجه العلمي والعملي، أمّا ادّعاء محبّة الإمام عليه السلام ومودّته من دون السير على نهجه، فلا يعدو كونه حبّاً أجوف، بلا معنى أو قيمة حقيقية.

وقد ثار الإمام الحسين عليه السلام من أجل أن يبقى الدين سليماً من التحريف والتضليل الذي مارسه بنو أُميّة؛ إذ انتشر في عهد يزيد الفساد علناً، وحُرِّف الدين عن أُصوله وفروعه، فأراد الإمام عليه السلام أن يُسجّل بنهضته درساً عملياً للحفاظ على المبادئ والقيم الدينية والأخلاقية، وهذا هو واجبنا اليوم أيضاً، أن نتمسّك بالمبادئ والقيم والمُثُل والأخلاق التي باتت في خطر في ظلّ انتشار القنوات الفضائية المنحلّة، وما يقدّمه الإنترنت من مواقع مخلّة بالآداب والأخلاق، وانتشار الوسائل الجديدة والمتنوّعة لنقل الصور الإباحية، والأفلام المروّجة لثقافة العري والتحلّل والفساد.

إنّ على كلّ شاب أن يسعى وبمقدار ما يستطيع من أجل تعزيز المبادئ والقيم والأخلاق في البنية الاجتماعية العامّة، ويتمّ ذلك عبر التمسّك بها، ونشرها في كلّ مكان، ومحاربة الرذيلة والفساد والميوعة التي يبثّها الإعلام الفاسد في بيوتنا ومجتمعاتنا.

إنّ مسؤولية كبيرة وعظيمة تقع على الشباب المؤمن في مجال حماية المبادئ والقيم والأخلاق ونشرها وتجذيرها، التي من أجلها ضحّى الإمام الحسين عليه السلام بنفسه وأهله وأصحابه، والدفاع عن ذلك بمختلف الوسائل المتاحة والممكنة التي تناسب الشباب في كلّ زمان ومكان.

٢ـ التخلّق بأخلاق الإمام الحسين عليه السلام

سيرة الإمام الحسين عليه السلام سيرة مشرقة وعظيمة، فالإمام الحسين عليه السلام قمّة في الأخلاق، ومَثَل أعلى في العبادة والارتباط بالله، ومضرب للمثل في الشجاعة والتضحية من أجل الدين، وعلى الشباب اليوم الاقتداء بسيرته الروحية والأخلاقية العظيمة، أن يقتدوا بأخلاقه، وعبادته، وتضحياته، وصبره، وشجاعته، ورحمته، وعطفه، وإنسانيته.

الذي يحبّ الإمام الحسين عليه السلام حقّاً عليه أن يسير على نهجه، وأن يستمرّ على منهجه، فلا يكفي لمَن يحبّه أن يبكي عليه، أو يلطم صدره وخدّه حزناً عليه، أو يحضر مأتمه، وإن كان كلّ ذلك مطلوباً، وفيه ثواب وأجر عظيم، ولكنّ تلك الممارسات إذا تحوّلت إلى مجرّد طقوس شكلية، وعادات اعتدناها بلا هدف أو غاية، فسوف تفقد أيّ تأثير إيجابي فيمَن يمارسها، تماماً كمَن يصلّي ولكنّ صلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر، مع أنّه تعالى يقول: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾[٤١]، أمّا إذا كانت الصلاة لا تنهى المصلّي عن ارتكاب المحرّمات، فعليه أن يعلم أنّ صلاته فيها خلل، وعليه أن يبحث عن مواطن الخلل والنقص فيها لإصلاحها.

وسيرة الإمام الحسين عليه السلام حافلة بالأخلاق الراقية، والمواقف الإنسانية النبيلة، وعلى الشباب استذكار تلك الأخلاقيات الجميلة والرفيعة للإمام الحسين عليه السلام من أجل الاقتداء والتأسّي بسيرته العظيمة، فهو مثال للإنسان الكامل، والشخصية العظيمة، والاقتداء والتأسّي إنّما يكون بالقدوة الصالحة، وهو خير مَن يمثّل القدوة والأُنموذج الكامل.

وقد أمرنا الإمام الحسين عليه السلام بالاقتداء والتأسّي بشخصيته العظيمة،

فقد رُوي عنه عليه السلام أنّه قال: «فلكم بي أُسوة»[٤٢]، فهو خير أُسوة وقدوة للمؤمنين. وأُولى الخطوات المهمّة للاقتداء والتأسّي بالإمام الحسين عليه السلام هي: معرفته، ومطالعة تفاصيل حياته المباركة، وقراءة سيرته الأخلاقية والإنسانية، ثمّ التأسّي بتلك السيرة، والاقتداء بتلك الأخلاق التي هي أخلاق الإسلام وآدابه.

إنّ مجتمعنا المسلم اليوم أحوج ما يكون إلى التحلّي بالقيم الأخلاقية، والتعامل مع مختلف الآراء والتوجّهات الثقافية، والتيارات الفكرية، والمكوّنات الاجتماعية، بأخلاقيات التسامح والتعايش، والتحلّي بآداب الاختلاف.

إنّ الاقتداء بسيرة الإمام الحسين عليه السلام يجب ألّا يكون مجرّد لقلقة لسان، أو دغدغة مشاعر، وإنّما يجب أن تنعكس على مسيرتنا وسيرتنا وتعاملنا وأخلاقنا وثقافتنا، حتّى نصل إلى مرحلة التسامح الإيجابي، ونبتعد عن لغة اللاتسامح والإقصاء والإلغاء، فإنّ هذا يؤثر سلباً في بناء المجتمع وتقدّمه وتطوّره، فلا يمكن أن يتطوّر أيّ مجتمع إنساني إلّا عندما تسود فيه الأخلاق الفاضلة، وتتجذّر فيه قيم وآداب الاختلاف.

٣ـ تحمّل المسؤولية

هناك درس آخر نتعلّمه من سيرة الإمام الحسين عليه السلام وقصّة عاشوراء الأليمة، وهو تحمّل المسؤولية الدينية والاجتماعية، فالإنسان ـ رجلاً كان أم امرأة ـ مسؤول عمّا يحدث من حوله، ومسؤول عن الارتقاء الحضاري بمجتمعه وأُمته، ومسؤول عن الدفاع عن دينه وأخلاقياته وثقافته، وهذا ما قام به شباب كربلاء ـ وغيرهم ـ ممّن ناصروا الإمام الحسين عليه السلام، وتحمّلوا المسؤولية، وهذا الشعور والإحساس والالتزام بالمسؤولية الدينية والاجتماعية هو أحد دوافع الالتحاق بثورة الإمام

الحسين عليه السلام.

وقراءة سيرة عاشوراء بتمعّن وتأمّل تدفع الشباب جميعاً لتحمّل المسؤولية، والقيام بما يجب عليهم القيام به من واجبات ووظائف دينية واجتماعية؛ فالإمام الحسين عليه السلام إنّما ثار ونهض واستُشهد مع أصحابه وأهل بيته بدافع تحمّل المسؤولية، وذلك أحد دوافع النهضة الحسينية المباركة.

ولأنّ مرحلة الشباب من أكثر المراحل المهمّة في حياة الإنسان؛ لما يملكه الشاب من قوّة وصحّة وقدرة كامنة، يقع على عاتقه تحمّل المسؤوليات الكبيرة، فالأطفال ليسوا قادرين، ولا يمكن تكليفهم بأيّ مسؤولية، وكبار السنّ كذلك؛ لأنّهم عاجزون عن تحمّل المسؤولية مباشرة، وربّما يكونون في مكانة تؤهّلهم للاستشارة وأخذ الرأي فقط؛ ولذلك يجب اغتنام مرحلة الشباب، وتوظيفها في القيام بالمسؤوليات الدينية، والواجبات الشرعية والوظيفية والمجتمعية.

والشباب باعتبارهم طاقة متدفّقة، وهي تمثّل مرحلة العنفوان والقوّة والحيوية والصحّة، عليهم أن يشعروا بحسّ المسؤولية، ونحن نجد في تفاصيل معركة كربلاء ثلّة من الشباب المؤمن الذين شاركوا في قيام الثورة الحسينية الخالدة التي جسّدها التاريخ ملحمة للخلود.

ومن هؤلاء الشباب: علي الأكبر، والقاسم بن الحسن عليه السلام، وعبد الله بن مسلم ابن عقيل، وغيرهم من صفوة الشباب الذين كانوا في ريعان شبابهم أو في مقتبله، لكنّهم ضحّوا بأنفسهم بدافع المسؤولية الدينية، ووقفوا مع الإمام الحسين عليه السلام، وآثروا الآخرة على الدنيا، وقدّموا أنفسهم رخيصة في سبيل الدفاع عن الدين، فهذا الدرس يجب أن يستفيد منه شباب هذا العصر، وفي كلّ عصر، وهو تحمّل المسؤولية، فالمسؤولية التزام وأمانة

وواجب، وهي تعبير عن وعي الإنسان ورقيّه، وهذا ممّا يتميّز به الإنسان عن غيره من المخلوقات الأُخرى، وتلك كرامة من الله تعالى للإنسان، بأن جعل لديه القدرة على تحمّل المسؤوليات الكبيرة والعظيمة.

ومجالات المسؤولية عند شباب اليوم عديدة؛ إذ تقع على الإنسان بصورة عامّة، والشباب بصورة خاصّة، الكثير من المسؤوليات، ومن أهمها ما يلي:

المسؤولية الأُولى: هي مسؤولية الشاب ـ سواء كان ذكراً أم أُنثى ـ تجاه نفسه، بأن يهذّبها ويزكّيها بحسن الخُلق، وينمّيها بالعلم والمعرفة، وأن يكون له دافع ذاتي من نفسه، فيوم القيامة هو المسؤول عن كلّ جوارحه التي تشهد عليه بما قام به، وبما فعل.

والمسؤولية الثانية: هي مسؤولية الشاب عن أهله وزوجته وأولاده وداره، بأن يُنفق عليهم ويرعاهم ويُحسن تربيتهم، ويُدير شؤونهم.

والمسؤولية الثالثة: هي مسؤوليته تجاه مجتمعه، فالمجتمع يتطوّر ويتقدّم بأهله، وبالشباب خصوصاً؛ لما يمتلكونه من صفات وسمات تساعدهم على العطاء الاجتماعي، والإنجاز العلمي، وبمقدار ما يبذلونه من جهد وخدمة يُسهمون في إظهار المجتمع بصورة أجمل وأرقى، ويكونون عنصراً فعّالاً في خدمة مجتمعهم وأُمّتهم، وأداة بناء وتطوير وتقدّم في المجتمع.

وللأسف نجد أنّه في مقابل الشباب الذين يتحمّلون المسؤوليات الملقاة على عاتقهم هناك قسم من الشباب لا يتصفون بحسّ المسؤولية، ويعيشون حياة اللامبالاة والإهمال، حتّى تجاه أنفسهم، فضلاً عن غيرهم، هؤلاء يكونون عبئاً ثقيلاً على المجتمع، وعالة عليه.

والمسؤولية الرابعة: هي مسؤولية الشاب الموظّف تجاه وظيفته، سواء في

القطاع العام أم الخاصّ؛ إذ يجب عليه أن يقوم بواجبه الوظيفي على أكمل وجه، ويؤدّي المهام الموكلة إليه، وألّا يسوّف في إنجاز المعاملات، وألّا يقصّر ولا يُهمل ولا يتغيّب عن عمله من غير عذر، وأن يكون مُخلصاً وأميناً في وظيفته، خصوصاً فيما يتعلّق بأُمور الناس، وقضاء حوائجهم.

إنّ عِظم مسؤولية الشباب ينبع مما يملكونه من طاقات ومواهب وقدرات، وعليهم أن يقوموا بمسؤولياتهم على خير وجه، وألّا يبدّدوا هذه الطاقات الفيّاضة فيما لا يُفيد ولا ينفع؛ لأنّ كلّ واحد منهم مسؤول عن طاقاته ومواهبه وفكره وعلمه، وعمّا أعطاه الله تعالى من نِعم كثيرة، يجب عليه أن يستثمرها في خدمة نفسه وأهله ومجتمعه ووطنه وأُمته.

٤. التميّز بالعلم

التميّز بالعلم والتفوّق فيه هو من أهم الأُمور التي يجب أن تحظى بعناية كبيرة عند شباب اليوم، فكسب العلم هو وسيلة لدى الشاب الواعي من أجل هدف نبيل، وهو فعل الخير لمجتمعه وأُمّته، وصناعة التقدّم العلمي، فالعلم هو قوّة الحاضر والمستقبل.

وكثيرة هي النصوص والأحاديث الشريفة التي تحثّ على طلب العلم والمعرفة؛ لما للعلم من قيمة ذاتية في نفسه، فبالعلم تُبنى الدنيا، وتُعمّر الآخرة، فمَن أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومَن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومَن أرادهما معاً فعليه بالعلم.

فقد رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «العلم رأس الخير كلّه، والجهل رأس الشرّ كلّه»[٤٣]، وورد أيضاً عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «لا كنز أنفع من العلم»[٤٤]، وكذلك قوله عليه السلام: «لا شرف كالعلم»[٤٥]، وقوله عليه السلام: «العلم مصباح العقل»[٤٦].

ويستطيع كلّ شاب أن يتميّز بالعلم، ويتخصّص في مختلف

المجالات العلمية، ليضيف قوّة إلى مجتمعه؛ فالمجتمع إنّما يتميّز بالطاقات والكفاءات العلمية القديرة والكفوءة.

ولعلّ أبرز عامل حافَظ على مدرسة أهل البيت عليهم السلام هو تميّزهم بالعلم والمعرفة، فقد كان أئمّة أهل البيت عليهم السلام أعلم الناس في زمانهم بلا منافس، وقد حثّوا على طلب العلم والتعلّم، فيجب أن يحمل الشاب والشابة همّ العلم، وقلق المعرفة، حتّى ينفع كلّ منهما نفسه ومجتمعه ووطنه؛ فالشباب اليوم يستطيعون أن يكونوا عنصراً فاعلاً ومهمّاً ومشاركاً في مجالات العطاء المتنوّعة التي يحتاج إليها المجتمع المعاصر.

إنّ الشباب هم أمل الأُمّة ومستقبلها، وعليهم المشاركة والمساهمة في تنمية المجتمع وتطويره، فالمجتمع لا يتقدّم إلّا بعطاء أهله وشبابه الواعي والمتعلّم.

الخاتمة

بعد أن وصلنا إلى نهاية هذا البحث وإكماله، نذكر أهم النتائج المستخلصة منه في النقاط الآتية:

١ــ إنّ شريحة الشباب تمثّل أهم شريحة اجتماعية مؤثّرة في مسار أيّ حركة اجتماعية، وفي مجريات الأُمور في الحياة العامّة، وفي رسم معالم المستقبل، فضلاً عن الحاضر، فالشباب يمثّلون عنصراً هامّاً من عناصر التغيير والتأثير الفاعل في مسار المجتمعات الإنسانية على طول التاريخ.

٢ـ نتيجة لأهمّية الشباب ودورهم الرئيس في أيّ تغيير اجتماعي عام؛ نجد اهتمام جميع المصلحين والقادة والزعماء بشريحة الشباب، والعمل على استقطابهم نحو أهدافهم المحدّدة؛ لأنّ مَن يكسب الشباب يكسب القدرة على تحقيق أهدافه وغاياته بغض النظر عن صحّتها أو خطئها.

٣ــ تعدّ أيّام الشباب من أجمل

وأبهى وأحلى وأمتع أيّام الإنسان؛ إذ الصحّة والعافية والقوّة الجسمية والنفسية والعقلية في أوجّها؛ فمرحلة الشباب هي مرحلة القوّة بين ضعفين: ضعف الطفولة، وضعف الشيخوخة كما أشار القرآن الكريم؛ ولذا تعدّ مرحلة الشباب مرحلة القدرة على العمل والإنتاج والعطاء في أقصى الحدود الممكنة؛ كما أنّها مرحلة القدرة على تحمّل المسؤوليات الكبيرة والمهمّة إذا ما أُتيحت لهم الفرصة للاستفادة من طاقاتهم ومواهبهم وقدراتهم.

٤ـ يجب الاستفادة من الحماس الديني عند الشباب في توجيههم نحو أفعال الخير والصلاح، وزيادة فاعليتهم الاجتماعية، وتقوية إرادتهم وعزائمهم فيما يخدم قضايا المجتمع والأُمّة، كما يجب الاستفادة من الحماس الديني عند الشباب بدفعهم نحو الفهم الصحيح لقضايا الدين، والاطلاع الواسع والعميق على مفاهيم الدين ومقاصده؛ فالشاب عندما يكون متحمساً يكون مهيّئاً للتعليم والتربية والإصلاح، وممارسة العمل الديني بجدّ وإخلاص.

٥ـ كان الإمام الحسين عليه السلام يتفقّد أحوال الشباب، ويسأل عنهم، ويرشدهم إلى طريق الخير والعلم والصلاح، فالإمام عليه السلام يعلم أهمّية مرحلة الشباب، وأنّهم طاقة كبيرة يجب استثمارها في مصلحة الدين وعمارة الأرض وخدمة قضايا المجتمع، ومن هنا يجب استيعاب طاقات الشباب والاستفادة منها.

٦ـ كان للشباب مكانة متقدّمة في النهضة الحسينية، ودور فاعل ومؤثّر في تفاصيل معركة عاشوراء، وبحسب ما تُشير إليه المصادر التاريخية فيما يرتبط بأعمار الثوار والأنصار فإنّ فئة الشباب كانوا هم العنصر الغالب في تركيبة الجيش الحسيني، وأنصار الإمام الحسين عليه السلام؛ فعندما نُلقي نظرة على

أسماء الشهداء وأعمارهم سنجد أنّ أكثرهم كانوا من هذه الشريحة المؤمنة.

٧ـ ضرب الإمام الحسين عليه السلام أروع الأمثلة في التضحية والفداء والإيثار، فقد قدّم القائد ابنه (علياً الأكبر) في قتال الأعداء حتّى خرّ شهيداً، وكان أوّل مَن قُتل من بني هاشم، ولم يبخل بولده على الرغم من أنّه كان آية في الكمال والجمال والجلال، وفي بداية شبابه، وعنفوان حياته.

٨ ـ انطلاقاً من دروس النهضة الحسينية، وتضحيات الشباب في واقعة كربلاء الأليمة، فإنّ شباب هذا العصر، وكلّ عصر، يتحمّلون واجبات ومسؤوليات كبيرة، من أبرزها: تعزيز المنظومة القيمية والأخلاقية، والتخلّق بأخلاق الإمام الحسين عليه السلام، والاقتداء والتأسّي بسيرته العظيمة، وتحمّل المسؤوليات الملقاة على عاتقهم، والاستضاءة بنهجه في الحياة.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١ـ الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داوُد الدينوري (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأُولى، ١٩٦٠م.

٢ـ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالمفيد (ت٤١٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى. وطبعة: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣ـ الأُسرة ومشكلة العنف عند الشباب.. دراسة ميدانية لعيّنة من الشباب في جامعة الإمارات العربية المتحدة، طلعت إبراهيم لطفي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي ـ الإمارات، الطبعة الأُولى، ٢٠٠١م.

٤ـ إعلام الورى بأعلام الهدى، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨ هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٥م. وطبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م. وطبعة مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المقدّسة.

٥ـ أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين (ت١٣٧١هـ)، تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.
٦ـ أمالي ابن الشجري، أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي المعروف بابن الشجري (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة ـ مصر، الطبعة الأُولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
٧ـ الأمالي، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي المعروف بالصدوق (ت٣٨١هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
٨ـ الإمامة والسياسة، أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (ت٢٧٦هـ ـ ٨٨٩م)، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.
٩ـ أنصار الحسين عليه السلام.. دراسة عن شهداء ثورة الحسين، محمد مهدي بن عبد الكريم بن عباس آل شمس الدين (ت٢٠٠١م)، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
١٠ـ بحار الأنوار، محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت١١١١م)، مؤسسة أهل البيت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
١١ـ البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، اعتنى به: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م. وطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
١٢ـ تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزّاق الحسيني الزبيدي (ت١٢٠٥هـ ـ ١٧٩١م)، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٤١٤هـ.
١٣ـ تاريخ الأُمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري (ت٣١٠هـ ـ ٩٢٣م)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
١٤ـ تاريخ خليفة بن خيّاط، أبو عمرو خليفة بن خيّاط بن أبي هبيرة العصفري (ت٢٤٠هـ ـ ٨٥٤م)، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ.
١٥ـ تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي (ت١١٧٦م)، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٤١٥هـ.
١٦ـ تحف العقول عن آل الرسول، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الخامسة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م. وطبعة مؤسسة

النشر الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
١٧ـ تنقيح المقال في علم الرجال، عبدالله بن محمد حسن بن عبد الله المامقاني (ت١٣٥١هـ)، تحقيق: محيي الدين المامقاني، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٢٣هـ.
١٨ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي (ت٧٤٢هـ ـ ١٣٤١م)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.
١٩ـ جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب، محمد بن أحمد الدمشقي (ت٨٧١ هـ)، تحقيق: محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم المقدّسة، ١٤١٥هـ.
٢٠ـ الحدائق الوردية في مناقب أئمّة الزيدية، حميد بن أحمد بن محمد المحلي (ت٦٥٢هـ)، نشر جامع النهرين، صنعاء ـ اليمن.
٢١ـ الخصال، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي المعروف بالصدوق (ت٣٨١ هـ)، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
٢٢ـ رجال الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت٤٦٠هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، الطبعة الرابعة، ١٤٢٨هـ.
٢٣ـ رجال النجاشي، أحمد بن علي بن أحمد النجاشي (ت٤٥٠هـ)، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
٢٤ـ روضة الواعظين، محمد بن الفتّال النيسابوري (ت٥٠٨هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.
٢٥ـ الشباب الخليجي والمستقبل: دراسة تحليلية نفسية اجتماعية، مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ٢٠٠٨م.
٢٦ـ الشباب والثقافة المعاصرة.. رؤية قرآنية في معالجة التحدّي الثقافي، عبد الله أحمد اليوسف، الطبعة الأُولى، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
٢٧ـ شرح الأخبار، أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي القاضي المغربي (ت٣٦٣ هـ)، تحقيق: السيّد محمد الحسيني الجلالي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدّسة.
٢٨ـ الصحاح، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، دار الحديث، القاهرة ـ مصر، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
٢٩ـ الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري البغدادي (ت٢٣٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
٣٠ـ العقل وفضله، أبو بكر عبد الله محمد عبيد البغدادي المعروف بابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ)،

مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأُولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
٣١ـ غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي (ت٥١٠هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٣٢ـ الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي (ت٣١٤هـ)، دار الندوة الجديدة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، د. ت. وطبعة دار الأضواء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤١١هـ.
٣٣ـ فروع الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ)، ضبطه وصحّحه وعلّق عليه: الشيخ محمد جعفر شمس الدين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
٣٤ـ الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، المعروف بابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، راجعه وصححه: محمد يوسف الرقاق، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
٣٥ـ كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، مؤسسة دار الهجرة، قم ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
٣٦ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي (ت٩٧٥هـ ـ ١٥٦٧م)، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
٣٧ـ لباب الأنساب والألقاب والأعقاب، أبو الحسن علي بن أبي القاسم بن زيد بن فندق البيهقي (ت٥٦٥هـ ـ ١١٦٩م)، مكتبة السيّد المرعشي النجفي العامّة، قم المقدّسة، ١٤١٠هـ.
٣٨ـ لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي (ابن منظور)، (ت٧١١هـ ـ ١٣١١م)، دار صادر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
٣٩ـ مثير الأحزان، نجم الدين محمد بن جعفر بن هبة الله بن نما الحلّي، (ت٦٤٥هـ)، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف ـ العراق، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.
٤٠ـ مجمع البحرين، فخر الدين بن محمد علي بن أحمد الطريحي، (ت١٠٨٥هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
٤١ـ مدينة المعاجز، أبو المكارم هاشم بن سليمان بن إسماعيل الحسيني البحراني (ت١١٠٧هـ، أو ١١٠٩هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
٤٢ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الميرزا حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، دار الهداية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الخامسة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
٤٣ـ مستدركات علم رجال الحديث، علي النمازي الشاهرودي، مطبعة حيدري، طهران، الطبعة الأُولى، ١٤١٥هـ.

٤٤ـ معجم القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت١٤١٥م)، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٤٥ـ المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللّخمي الشامي الطبراني (ت٣٦٠هـ ـ ٩١٨م)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ـ مصر، الطبعة الثانية.
٤٦ـ المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، الطبعة الأُولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
٤٧ـ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الإصفهاني (ت٥٠٢هـ)، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٤٨ـ مقاتل الطالبيين، أبو الفرج علي بن الحسين الإصفهاني (ت٣٥٦هـ ـ ٩٧٦م)، شرح وتحقيق: السيّد أحمد صقر، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.
٤٩ـ مقتل الحسين عليه السلام، أبو المؤيّد الموفّق محمد بن أحمد المكّي الخوارزمي (ت ٥٦٨ هـ)، تحقيق: الشيخ محمد السماوي، دار أنوار الهدى ـ قمّ المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤١٨هـ.
٥٠ـ الملهوف في قتلى الطفوف، أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت٦٦٤هـ)، دار المحجّة البيضاء، بيروت ـ لبنان، د. ت. وطبعة مهر، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ.
٥١ـ مناقب آل أبي طالب، أبو جعفر محمد بن علي بن شهرآشوب المازندراني (ت٥٨٨هـ)، تحقيق وفهرسة: يوسف البقاعي، دار الأضواء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
٥٢ـ المنتخب، فخر الدين بن محمد علي بن أحمد الطريحي (ت١٠٨٥هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
٥٣ـ مُنية المريد في أدب المفيد والمستفيد، زين الدين بن علي الجبعي العاملي (الشهيد الثاني)، (ت٩٦٥هـ)، مكتب الإعلام الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
٥٤ـ موسوعة الإمام الحسين عليه السلام في الكتاب والسنّة والتاريخ، محمد الريشهري، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.
٥٥ـ نسب قريش، أبو عبد الله مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير (ت٢٣٦هـ)، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، ١٩٥٣م.
٥٦ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني الجزري (ت٦٠٦هـ ـ ١٢١٠م)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية ـ بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
٥٧ـ نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب، شرح الشيخ: محمد عبده، دار البلاغة، بيروت ـ لبنان،

الطبعة الرابعة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م. وطبعة دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، ٢٠١٣م.
٥٨ـ الهداية الكبرى، أبو عبدالله الحسين بن حمدان الخصيبي (ت٣٣٤هـ)، مؤسسة البلاغ، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
٥٩ـ الوافي، محمد بن مرتضى المعروف بالفيض الكاشاني (ت١٠٩١هـ)، تحقيق: السيّد علي عبدالمحسن بحر العلوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

الهوامش:

[١] الروم: آية٥٤.
[٢] ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج١، ص٤٨٠.
[٣] الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين: ج٢، ص٨٥.
[٤] مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز: ص٣٣٣.
[٥] طلعت إبراهيم لطفي، الأُسرة ومشكلة العنف عند الشباب: ص١٠ـ١١.
[٦] أُنظر: حجازي، مصطفى، الشباب الخليجي والمستقبل: ص١٧ـ١٨.
[٧] من كتابي: الشباب والثقافة المعاصرة.. رؤية قرآنية في معالجة التحدي الثقافي: ص٢٣.
[٨] الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن: ص٣٧٥.
[٩] من كتابي: الشباب والثقافة المعاصرة، رؤية قرآنية في معالجة التحدّي الثقافي: ص٢٣ـ٢٥.
[١٠] الجُلاهِق: «هو البُندُق الذي يُرمى به، ومنه (قوسُ الجُلاهِق)، وأصله بالفارسية (جُلَهْ)، وهي كُبّة غزل». الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس: ج١٣، ص٦٣، مادّة (جلهق).
[١١] الخَلاقُ: الحظّ والنصيب. الجزري، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر: ج٢، ص٧٠، مادّة (خلق).
[١٢] ابن سعد، محمد، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من طبقات ابن سعد: ص٣٦ـ٣٧. وأيضاً: ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد، العقل وفضله: ص٥٨.
[١٣] الفيض الكاشاني، محمد محسن، الوافي: ج٤، ص٢٨٢.
[١٤] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٢٦٣.
[١٥] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٦٧.
[١٦] شمس الدين، محمد مهدي، أنصار الحسين عليه السلام: ص١٢٩.

[١٧] الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج٢، ص٣٠. وأُنظر: ابن أعثم، أحمد، الفتوح: ج٥، ص١١٤. وأيضاً: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص٤٢.

[١٨] ابن فندق، علي بن أبي القاسم، لباب الأنساب: ج١، ص٣٤٢.

[١٩] أُنظر: الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج١، ص٦٠٨.

[٢٠] أُنظر: ابن فندق، علي بن أبي القاسم، لباب الأنساب: ج١، ص٤٠١.

[٢١] الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج٢، ص٢٧. وأيضاً: ابن أعثم، أحمد، الفتوح: ج٥، ص١١٢. وأيضاً: ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج٤، ص١٠٦ـ١٠٧. وأيضاً: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص٣٤.

[٢٢] أُنظر: الريشهري، محمد، موسوعة الإمام الحسين عليه السلام: ج٨، ص١٥٩.

[٢٣] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص٦٧ـ٦٨.

[٢٤] «الشِّسْع: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الإصبعين». الجزري، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر: ج٢، ص٤٧٢، مادّة (شسع).

[٢٥] غُضُب: «شديد الغضب». ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج١، ص٦٤٩، مادّة (غضب).

[٢٦] يقال: «ضربَ رجلَه فأطَنَّ ساقَهُ...: أي: قَطَعَها». المصدر السابق: ج١٣، ص٢٦٨، مادّة (طنن).

[٢٧] الوِتْر: «الجناية التي يجنيها الرجل على غيره من قتل أو نهب أو سبي». المصدر السابق: ج٥، ص٢٧٤، مادّة (وتر).

[٢٨] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٥، ص٤٤٧. وأُنظر: أبو الفرج الإصفهاني، علي ابن الحسين، مقاتل الطالبيّين: ص٩٣. وأيضاً: ابن نما، محمد بن جعفر، مثير الأحزان: ص٦٩.

[٢٩] الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص٢٢٦، ح٢٣٩. وأيضاً: النيسابوري، محمد بن الفتّال، روضة الواعظين: ص٢٠٨. وأيضاً: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٢١.

[٣٠] الخصيبي، الحسين بن حمدان، الهداية الكبرى: ص٢٠٤. وجاء ما يشبه هذه الرواية في كتاب مدينة المعاجز للبحراني: ج٤، ص٢١٥.

[٣١] أُنظر: الزبيري، مصعب، نسب قريش: ص٤٥، وأيضاً: العصفري، خليفة بن خيّاط، تاريخ خليفة: ص١٧٩، وفيه: «رقية بنت محمد بن سعيد بن عقيل». وأيضاً: الطوسي، محمد بن الحسن، رجال الطوسي: ص١٠٣. وأيضاً: ابن الشجري، هبة الله، أمالي ابن الشجري: ج١،

ص١٧١. وأيضاً: المحلي، حميد بن أحمد، الحدائق الورديّة: ج١، ص١٢١. وأيضاً: القاضي المغربي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار: ج٣، ص١٩٥.

[٣٢] أُنظر: ابن فندق، علي بن أبي القاسم، لباب الأنساب: ج١، ص٣٩٩. وأيضاً: المامقاني، عبد الله، تنقيح المقال: ج٢، ص٢١٧، وفيه: «١٤ سنة»، ومن البعيد أن يبارز شابٌّ ذو (١٤) عاماً ضمن أوائل القوم.

[٣٣] أُنظر: ابن نما، محمد بن جعفر، مثير الأحزان: ص٦٧.

[٣٤] أُنظر: الدينوري، أحمد بن داوود، الأخبار الطوال: ص٢٥٦ــ٢٥٧. ويمكن استفادة ذلك أيضاً من أنساب الأشراف للبلاذري: ج٣، ص٤٠٦، والإرشاد للمفيد: ج٢، ص١٠٧.

[٣٥] أُنظر: الريشهري، محمد، موسوعة الإمام الحسين عليه السلام: ج٨، ص١٦٤.

[٣٦] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٩٨، ص٢٧١.

[٣٧] بناءً على الرأي المشهور القائل: إنّ أوّل شهيد من أهل البيت عليهم السلام هو علي الأكبر، ينبغي القول: إنّ أوّل شهيد بعده منهم هو عبد الله بن مسلم بن عقيل.

[٣٨] الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج٢، ص٢٦. وأُنظر: ابن أعثم، أحمد، الفتوح: ج٥، ص١١٠. وأيضاً: ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج٤، ص١٠٥. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص٣٢.

[٣٩] الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص٢٢٥. وأيضاً: النيسابوري، محمد بن الفتّال، روضة الواعظين: ص٢٠٧، من دون إسناد إلى أحد من أهل البيت عليهم السلام. وأيضاً: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٢١.

[٤٠] المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص١٠٧. وأيضاً: الطبرسي، الفضل بن الحسن، إعلام الورى: ج١، ص٤٦٥. وأيضاً: ابن نما، محمد بن جعفر، مثير الأحزان: ص٦٧. وأيضاً: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص٤٤.

[٤١] العنكبوت: آية٤٥.

[٤٢] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٨٢.

[٤٣] المصدر السابق: ج٧٤، ص١٧٥.

[٤٤] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٨، ص١٩.

[٤٥] محمد عبده، شرح نهج البلاغة: ص٤٨٨، الحكمة ١١٣.

[٤٦] الآمدي، عبد الواحد، غرر الحكم: ص٥٣٦.

د. الشيخ أسعد السلمان
باحث إسلامي وأُستاذ / العراق

المنبر الحسيني
وضرورة تقنين المعلومات

المقدّمة

يحظى المنبر الحسيني بمكانة مهمّة في الواقع الشيعي، فهو يُعدّ أحد أهمّ وسائل الارتباط الديني لدى أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وعليه فهو يحمل على عاتقه مهمّة عظيمة وخطيرة، استدعت من القائمين عليه والمهتمّين بتطويره والارتقاء به بذل الجهود الكبيرة؛ لإبعاد كلّ ما يوهن هذه الوسيلة الإعلامية الفعّالة في مقام أدائها لدورها الرسالي.

وفي هذا المقال الذي بين يديك عزيزي القارئ، نحاول تسليط الضوء على نقطة مهمّة وجوهرية ترتبط بصورة مباشرة بالدور الرسالي الذي يؤدّيه المنبر الحسيني في حياة الناس، وهذه النقطة تتمثّل في وضع الركيزة الأساس المتمثّلة بمعلومات الخطيب على بساط البحث والمناقشة، وذلك من خلال الحديث عن إمكانية وجدوى ضبطها وتقنينها، وبعبارة أُخرى: نحن في المقام نسعى إلى تقديم

إجابة واضحة عن سؤال مهمّ وحيوي في هذا المجال، وهو: ما هو مدى الحاجة إلى تقنين المعلومات المعروضة على المنبر الحسيني، سواء على المستوى المعرفي، أم السلوكي، أم التاريخي، أم العاطفي؟ وما هي القوانين التي يُفترض اتّباعها في هذا المجال؟ من هنا ستكون الإجابة عن هذا السؤال ذي الشقّين ضمن محورين رئيسين.

تمهيد

إنّ طريقة نقل المعلومات من خلال أُسلوب التبليغ البياني والقولي في مسألة التفهيم والتفاهم، تُعدّ من أهمّ الوسائل التي يتمّ توظيفها من قِبل الأنبياء، والملوك، والقادة، والمصلحين، والخطباء، ونحوهم؛ من أجل إيصال رسائلهم إلى الناس، فالأنبياء ـ مثلاً ـ كانوا من أبرز مَن اعتمد على هذه الوسيلة في مقام رفع المستوى الفكري والمعرفي والإيماني، وتصحيح المسار السلوكي لدى مخاطبيهم، وفي هذا الصدد نجد أنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «... وليس على الجوارح عبادة أخفّ مؤونة وأفضل منزلة وأعظم قدراً عند الله من الكلام فيه رضا الله، ولوجهه، ونشر آلائه ونعمائه في عباده، أَلا ترى أنّ الله (عزّ وجل) لم يجعل فيما بينه وبين رُسله معنى يكشف ما أسرّ إليهم من مكنونات علمه ومخزونات وحيه غير الكلام، وكذلك بين الرسل والأُمم، فثبت بهذا أنّه أفضل الوسائل، وألطف العبادة...»[1]، كما نجد أنّ الإمام الصادق عليه السلام ــ وفي الصدد نفسه ـ يروي عن أبيه الإمام الباقر عليه السلام: «أنّه قال لرجل وقد كلّمه بكلام كثير، فقال: أيّها الرجل، تحتقر الكلام وتستصغره؟! اعلم أنّ الله (عزّ وجل) لم يبعث رسله حيث بعثها ومعها ذهب ولا فضّة، ولكن بعثها بالكلام، وإنّما عرّف الله (جلّ وعزّ)

نفسه إلى خلقه بالكلام والدّلالات عليه والأعلام»[٢]، إلى غير ذلك من الروايات الواردة في المقام.

ثمّ إنّنا إذا نظرنا إلى واقعنا الإسلامي، نرى أنّ النبي الخاتم ﷺ، هو أوّل مَن تصدّى لمهمّة التبليغ البياني، كيف لا وأنّ رسالته كانت عبارة عن كلام إلهي تجلّى عن طريق الوحي في القرآن الكريم، والنبي بدوره قد أُوكلت إليه مهمّة بيان هذا الكلام؟! قال تعالى: ﴿.... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

ولعِظم هذه المهمّة الخطيرة، وحتّى لا يساور متلقي البيانات النبوية شك في كونها غير متّفقة مع المراد الإلهي، بيّن (عزّ وجل) أنّ الرسول ﷺ في كلّ كلمة ينطقها يكون متصلاً بالمبدأ الغيبي (الوحي)؛ إذ يقول تعالى في هذا الصدد: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٤]، وبما أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو امتداد للحركة الرسالية المحمدية، فإنّ نهضته عليه السلام ستكون بلا أدنى شك في مصب الهداية التي أرادها الله للناس.

هذا، وإنّنا لو رجعنا إلى البيانات الصادرة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام نفسها، لوجدنا أنّ التقنين له حضور واسع فيها، فأهل البيت عليهم السلام ـ ونتيجة للفاصلة الزمانية أو المكانية بينهم وبين شيعتهم ومحبّيهم ـ قد أعطوا ضابطة مهمّة لاستمرار المعيّة التي أقرّها الرسول ﷺ بينهم وبين القرآن الكريم، هذه المعيّة التي تُمثّل طوق نجاة لكلّ مَن تمسّك بها إلى يوم القيامة، وهذه الضابطة التي يتمّ من خلالها تمييز الأخبار الصادرة عنهم قد جاءت في روايات كثيرة[٥]، وبصيغ متعدّدة، منها: ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «إنّ على كلّ حقّ حقيقةً، وعلى كلّ صواب نوراً، فما وافق كتاب الله

فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»[٦]، ومنها ـ أيضاً ـ قول الإمام الصادق عليه السلام: «ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف»[٧].

ثمّ إنّه وبعد واقعة الطف المروّعة سنة (٦١هـ)، وبعد ملاحظة ارتباط النهضة التي قام بها سيّد الشهداء في هذه الواقعة بصميم المشروع التغييري الإلهي[٨]، نجد أنّ الأُسلوب الخطابي قد أخذ دوراً كبيراً في إبراز هذه النهضة؛ وذلك من خلال إقامة مجالس ذكر مصائب أهل البيت عليهم السلام، وما جرى عليهم من محن ونكبات، وقد كانت هذه المجالس في بدايتها عبارة عن مآتم للبكاء على الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه عليهم السلام، يبرز فيها البعد العاطفي بشكل ملحوظ، ثمّ أصبحت ذات شكل جديد، تتم إقامتها بعد تهيئة وإعداد سابقين، وقد أُطلق عليها (المآتم الهادفة)، وهذه المآتم هي الأساس لما نشاهده هذا اليوم من ظاهرة المنبر الحسيني[٩].

إنّ المنابر الحسينية تتطرّق سنوياً ـ وعبر شبكة كبيرة من الخطباء ـ إلى كمّ كبير من المعلومات التاريخية التي تُشكل نقطة مفصلية في حياة الفرد المسلم عموماً، والشيعي على وجه الخصوص؛ وذلك لما تمثّله من أعظم مواجهة بين الحقّ والباطل، مواجهة برزت فيها كلّ معالم الرأفة، والرحمة، والوفاء، والإخلاص، ضدّ معالم الخسّة، والحقارة، والخذلان، واستخدام أقذر الوسائل من أجل كسب المعركة عسكرياً؛ وبالنتيجة فإنّ الدور الأساس الموكل إلى المنابر الحسينية التي تُقام سنوياً في شهري محرّم وصفر ـ ناهيك عن المناسبات الأُخرى ـ هو تسجيل أحداث النهضة الحسينية، وترسيخها في نفوس المسلمين؛ وذلك لكي تكون هذه النهضة مثلاً يُحتذى به من قِبل كلّ

الحركات التحرّرية في العالم.

وعلاوةً على ما تقدّم أنّه نتيجة للتماهي الحاصل بين الحركة الرسالية التي قادها رسول الإنسانية محمد ﷺ وبين الحركة الثورية والتغييرية التي قادها أبو عبد الله الإمام الحسين عليه السلام في واقعة الطف الخالدة، فإنّ المنبر الحسيني قد اتّخذ بُعدين آخرين فضلاً عن البُعدين العاطفي والتاريخي المتقدّمين، وهما:

١ـ **البُعد المعرفي**: فقد أصبح المنبر الحسيني ـ نتيجة لكونه يمثّل الحركة الحسينية التي هي امتداد للحركة المحمدية ـ عبارة عن موسوعة دينية تُعنى بالقضايا العقائدية، والفقهية، والتفسيرية، والروائية، والأخلاقية، ونحو ذلك، وأصبح من وظائف الخطيب الحسيني توجيه الناس وتوعيتهم وتثقيفهم ثقافة إسلامية، وكذلك الإجابة عن مجمل الشبهات في مختلف القضايا الدينية؛ فـ «من وظائف الخطيب الحسيني توجيه الناس وتوعيتهم... وهذه الأُمور تستوجب علم الخطيب بالإسلام: عقائده، وأحكامه، وأخلاقيّاته، وسائر شؤونه...»[١٠].

هذا، ولم تنحصر عجلة العطاء المعرفي للمنبر الحسيني بتعلّم العلوم الإسلامية فقط، فإنّه ـ بسبب تطوّر وسائل التواصل، وسهولة تداول المعلومات، وصيرورة الكثير من الناس أهل معرفة واطّلاع وثقافة ـ تحتّم على الخطيب الحسيني أن يكون على مستوى عالٍ في مجال العلوم الوضعية الحديثة؛ فـ «إنّ المنبر جزء لا ينفصل عن الوضعية الثقافية العامّة، من حيث الغنى في الأبعاد العلمية، وانعكاس التطوّرات التقنية على مجمل الأفكار، ونضوج الوعي بضرورة مواكبة المنبر للحركات الثقافية، وارتفاع مستوى الفرد حضارياً في كلّ النشاطات الثقافية»[١١].

وبكلمة جامعة: إنّ الخطيب كلّما زادت حصيلته العلمية زادت عطاءاته التي سوف تنعكس بصورة إيجابية على ترسيخ دور المنبر الحسيني في حياة الناس، وجعله جزءاً لا يتجزّأ منها، وعلى العكس من ذلك إذا كان الخطيب فقيراً من الناحية العلمية، فإنّ منبره سوف يكون باهتاً، بل سوف يكون مُبعِداً للناس عن الانتهال من معين النهضة الحسينية المباركة.

٢ـ البُعد التصحيحي للسلوك الفردي أو المجتمعي: إنّ المنبر الحسيني ـ فضلاً عن المسؤولية المعرفية الملقاة على عاتقه ـ قد تحمّل مسؤولية أُخرى لا تقلّ أهمّيةً عن الأُولى، تمثّلت بسعيه الحثيث إلى تصحيح المسار السلوكي للأُمّة الإسلامية أفراداً ومجتمعات، وذلك انطلاقاً من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو أحد الفرائض المهمّة في الشريعة الإسلامية، وقد كان تحمّل المنبر لهذه المسؤولية الجسيمة هو نتيجة لكونه الممثّل الأبرز للنهضة الحسينية، التي جعلت من العمل بالفريضة المشار إليها آنفاً الهدف الأبرز لها، فقد جاء على لسان قائدها الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام ما نصّه: «... وأنّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مُفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجتُ لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي صلى الله عليه وآله أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي عليّ بن أبي طالب...»[١٢].

المحور الأوّل: حاجة المنبر الحسيني إلى تقنين المعلومات التي يعرضها

وبعد اتّضاح ماهية الدور الذي من المفترض أن يؤدّيه المنبر الحسيني في دائرة التبليغ الديني، من خلال الأبعاد الأربعة المشار إليها، يأتي دور السؤال الأساس للبحث في هذه المقالة، وهو: ما هو مدى الحاجة إلى تقنين المعلومات المعروضة على المنبر الحسيني، سواء على

المستوى المعرفي، أم السلوكي، أم التاريخي، أم العاطفي؟

والجواب هو: إنّنا استناداً إلى مجموعة من الأدلّة، نرى أنّ الخطيب الحسيني لا يستغني عن التقنين والضبط بالنسبة إلى كلّ ما يطرحه على المنبر، وإنّه بذلك سوف يضمن ترتّب الثمار المتوخّاة من وجود المنبر بين الناس، وهذه الأدلّة عبارة عن:

الدليل الأوّل: قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ....﴾[١٣]، فالآية الشريفة تُعطي ضابطة عامّة وأساسية لكلّ دعوة تسعى إلى ربط الناس بالله (سبحانه وتعالى)، فهي تُشير إلى أنّ أساليب التفهيم التي تعتمد عليها هذه الدعوات ينبغي أن تكون عِبر ثلاث طرق، هي: الحكمة، والموعظة، والمجادلة[١٤]؛ إذاً، فالمجال ليس مفتوحاً يطرح فيه الداعي ما يحلو له من فنون وأساليب، فضلاً عن ذلك، فإنّ الآية الشريفة وفي هذا البيان نفسه لم تترك هذه الطرق من دون تقنين وضبط، فبالنسبة إلى الطريقين الثاني والثالث قد تمّ تقييدهما بكون الموعظة حسنة، والجدال يكون بالتي هي أحسن، وهذا الأمر فيه «دلالة على أنّ من الموعظة ما ليست بحسنة، ومن الجدال ما هو أحسن، وما ليس بأحسن ولا حسن، والله تعالى يأمر من الموعظة بالموعظة الحسنة، ومن الجدال بأحسنه»[١٥]، وبما أنّ المنبر الحسيني هو أحد سُبل الدعوة إلى الله، فلا بدّ له أن يكون خاضعاً للتقنين والضبط بحسب ما أفادته الآية الشريفة.

الدليل الثاني: قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ...﴾[١٦]، ففي مقام تفسير هذه الآية الشريفة يقول السيّد الطباطبائي ما نصّه: «لمّا فرغ [أي: الله (عزّ وجل)] من التنظير رجع إلى ما كان عليه من بيان حال القرآن وذكر

أوصافه، فذكر أنّه أنزله إنـزالاً مصـاحباً للحقّ، وقد نـزل هـو مـن عنـده نـزولاً مصاحباً للحقّ، فهو مصون من الباطـل من جهة مَن أنزله، فليس من لغو القول وهذره»[١٧]. وهنـا نقـول: إنّـه إذا كـان حال القرآن بهذا الشـكل مـن الإحكـام والتقنـين، والابتعـاد عـن لغـو القـول وهـذره، فحـريّ بالخطيـب الحسـيني ـ الــذي يُمثّــل الرســول صلى الله عليه وآله وأهــل بيته عليهم السلام الـذين هـم عِـدل القـرآن ـ أن يكون خاضعاً لضوابط وقـوانين تجعـل كلامـه لا ينحـو منحـى اللغـو والهـذر والعشوائية.

الدليل الثالث: جاء في وصية لأمير المــؤمنين عليه السلام لولديــه الحســن والحسين عليهما السلام بعدما ضربه اللعين ابن ملجم في مسجد الكوفة، ما نصّه: «... أُوصيكما وجميـع ولـدي وأهـلي ومَـن بلغــه كتــابي بتقــوى الله ونظــم أمركم...»[١٨]. ومن خـلال ملاحظـة أنّ هذا المقطع قد ورد في سـياق كـلام لأمـير المـؤمنين عليه السلام في آخـر لحظـات حياته المباركة، يُفهم أنّ رعايـة الـنظم والقوانين هي من الأُمور المهمّة، التـي ينبغي أن تتوافر عليها مجمـل الأعـمال الحسّاسـة، التـي يقـوم بهـا المسـلم في حياته اليوميـة، والتـي تترتّـب عليهـا أهداف فردية أو اجتماعية؛ ويمكننا أن نستشـهد لهـذا الفهـم بقـول صـاحب كتاب منهاج البراعة عند شرحـه لهـذا المقطع: «التزام النظم في كـلّ الأُمـور، فإنّ عدم رعايـة الـنظم يوجـب عـدم الوصول إلى المآرب والحوائج»[١٩].

ومـن المـوارد المهمّـة التـي تـرتبط بحياة المسلم الشـيعي موضـوع المنـبر الحسـيني، فهـل يمكـن أن يقـال: إنّ المعلومات التي تُطرح عليه بمنأى عن التقنــين والــنظم؟! أو إنّ هــذه المعلومــات ليســت قضــايا دينيــة، واجتماعيــة، وأخلاقيــة، وسياســية، ونحو ذلك ممّا يـرتبط بصـميم الحيـاة الفردية والاجتماعية؟!

الدليل الرابع: توجد مجموعة من الكلمات المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام، فيها دلالة واضحة على ضرورة تقنين الكلام وضبطه، والابتعاد عن الطرح العشوائي الذي يوجب الإخلال في فهم السامعين، ومن هذه الكلمات:

قوله عليه السلام: «إيّاك والكلام فيما لا تعرف طريقته ولا تعلم حقيقته؛ فإنّ قولك يدلّ على عقلك، وعبارتك تُنبِئ عن معرفتك، فتوقّ من طول لسانك ما أمنته، واختصر من كلامك ما استحسنته، فإنّه بك أجمل، وعلى فضلك أدل»[٢٠].

وقوله عليه السلام أيضاً: «أحسن الكلام ما لا تمجّه الآذان ولا يُتعب فهمه الأفهام [الأذهان]»[٢١].

وقوله عليه السلام كذلك: «أحسنُ الكلام ما زانه حسن النظام، وفهمه الخاصّ والعامّ»[٢٢].

إلى غير ذلك من الكلمات المرويّة عنه عليه السلام، والواردة تحت عناوين متعدّدة، من قبيل: اللسان ميزان، طريق الكلام، حُسن اللسان والكلام، لا تقلّ ما لا تعرف ولا تفعل، الفكر ثمّ القول، لسان العاقل والأحمق، قلّة الكلام وآثارها، وغير ذلك.

الدليل الخامس: من المسلّم به أنّ المعلومات المنطوقة أو المكتوبة التي يُراد من خلال طرحها أو تدوينها الحصول على نتائج معيّنة أن تكون منسّقة ومنظّمة، خصوصاً مع ملاحظة السعة العلمية والمعلوماتية التي نعيشها في هذه الأزمنة[٢٣]، وبعبارة أُخرى: إنّ المنهج الذي عُرّف بصفة عامّة بأنّه: «الترتيب الصائب للعمليات العقلية التي نقوم بها، بصدد الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها»[٢٤]، أصبح ضرورة ملحّة في كلّ عملية نقل للمعلومات، وتبادل للأفكار[٢٥]، وبما أنّ المنبر الحسيني بما يمتلكه من رصيد معلوماتي، هو واقع ضمن هذه الجَلَبة المعلوماتية، فهو يحتاج إلى السير على وفق خطوات ممنهجة، تؤمّن الوصول

إلى النتائج المرجوّة منه، من هنا؛ فإنّ تقنين المنبر لمعلوماته هو أمر في غاية الأهمّية، وفي مقابل ذلك فإنّ ذهاب المنبر إلى العشوائية في الطرح سوف يؤدّي إلى ضعفه وقلّة الفائدة منه، إن لم نقل: إنّه سوف يكون حينئذٍ حالة سلبية تؤثّر في انجذاب الناس نحو الدين الإسلامي، وانتهالهم من معين النهضة الحسينية المباركة.

المحور الثاني: ضوابط وقوانين عرض المعلومات على المنبر الحسيني

نظراً إلى كون المنبر الحسيني يُعنى بعدّة جوانب حياتية، كالجانب الديني، والأخلاقي، والاجتماعي، والسياسي، والمعرفي... نجد أنّ مَن يرتقيه بهدف إقناع مخاطبيه يتعرّض لأدلّة وقضايا متنوّعة، فهو تارةً يستخدم الأدلّة النقلية التي هي من قبيل الآيات القرآنية، والروايات الشريفة، والشواهد التاريخية، وأُخرى نراه يوظّف جملة من القضايا العقلية، في محاولة منه لتقوية الجانب الفكري والعقدي لدى الناس، وتارة ثالثة يعتمد على المشهورات والمسلّمات العقلائية، ورابعة يقوم باستقراء جزئيات معيّنة ليصل إلى نتائج محدّدة.

علاوةً على ذلك، فإنّه نتيجة اقتران نشأة المنبر الحسيني بما جرى في واقعة الطف الخالدة، نجد أنّ جزءاً كبيراً من المادّة الملقاة من على المنبر تتّخذ الطابع الشعري (القريض أو الشعبي)؛ وذلك بُغية تصوير أحداث هذه الواقعة تصويراً يهزّ المشاعر، ويولّد حالة من الانجذاب العاطفي نحو الإمام الحسين عليه السلام وأتباعه، وحالة من الحَنَق والرفض لأعدائهم الذين خذلوهم ولم ينصروهم.

وبناءً على ما تقدّم؛ يمكننا أن نُقسّم المعلومات التي تُلقى بواسطة المنبر على أقسام عدّة، هي:

١ ـ القضايا البرهانية والاستدلالية.

٢ـ المشهورات والمسلّمات.

٣ـ الآيات والروايات والشواهد التاريخية.

٤ـ المشاهدات الحسّية.

٥ـ القصص والأشعار.

ولكي نتعرّف على الضوابط والقوانين الحاكمة على ما يُطرح على المنبر من معلومات، يتحتّم علينا أن نتحدّث بشيء من التفصيل عن كلّ واحدٍ من الأقسام المذكورة أعلاه؛ لنتعرفّ على نوعية المنهج الصحيح الذي ينبغي تطبيقه للوصول إلى نتائج سليمة، تصبّ في مصلحة الهدف الرسالي الذي يسعى المنبر الحسيني إلى تحقيقه، وعرضها للمتلقي بطريقة تتناغم مع ذلك المنهج المتبع من قِبل الخطيب.

القسم الأوّل: القضايا البرهانية والاستدلالية

من الأدوار التي تكفّل بها المنبر الحسيني بعد التوسعة الوظيفية التي حظي بها، قيامه بتدعيم الجانب الفكري والعقدي لدى الناس، فقد أصبح الخطيب الحسيني يتناول قضايا العقيدة المتعلّقة بأُصول الدين وفروعها المترتّبة عليها، وفي أحيان كثيرة يكون الاستدلال على ما يطرحه من مدّعيات عقدية عقلياً، ومن هنا؛ فإنّ أحد المناهج المهمّة الحاكمة على الطرح المنبري هو المنهج العقلي الذي يعتمد بشكل أساس على الاستدلال البرهاني.

ونحن قبل أن نتناول طبيعة هذا الاستدلال، ونتعرّف على ضوابطه، نوّد تسليط الضوء على مكانة العقل في الآيات القرآنية والروايات، فقد مدح الله العقل والعقلاء في القرآن في آيات عدّة، منها قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[٢٦]، وقد ذكر الإمام الصادق عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان

يقول: «أصل الإنسان لُبّه وعقله ودينه، ومروّته حيث يجعل نفسه، والأيّام دُول، والناس إلى آدم شرع سواء»[٢٧]، إلى غير ذلك من الآيات والروايات الكثيرة.

والمنهج العقلي ـ مورد الحديث ـ يمكن أن نعرّفه بأنّه عبارة عن: المعلومات العقلية الأوّلية، التي تقوم على أساسها البنيات الفوقية للفكر الإنساني، التي تسمّى بالمعلومات الثانوية[٢٨]، كما أنّه يمكن أن يُطلق على قوّة التفكير نفسها التي يمتلكها الإنسان[٢٩]، والتي عُرّفت بأنّها: «العملية التي تستنبط بها معرفة نظرية من معارف سابقة»[٣٠].

بناءً على التعريف الثاني للمنهج العقلي، فإنّه قد يُطلق على عملية بذل الجهد في استنطاق الأدلّة النقلية للدلالة على أمر معيّن، وهذا ما سوف نبحثه في قسم المعلومات النقلية التي يوظّفها الخطيب الحسيني إن شاء الله تعالى.

ومن هنا؛ فنحن في المقام نُركز على المنهج العقلي بحسب المعنى الأوّل، هذا المنهج الذي يبتني على البرهان المنطقي، الذي هو: «قياس مؤلّف من يقينيات يُنتج يقيناً بالذات اضطراراً»[٣١]. إذاً، المعلومات التي ينطلق في ضوئها المنهج العقلي البرهاني هي اليقينيات التي هي نوع قضايا تؤدّي إلى حصول اليقين بالمعنى الأخصّ بمؤدّاها، وهذا اليقين عبارة عن: اعتقاد مطابق للواقع لا يحتمل النقيض، ولا يكون ناتجاً عن تقليد[٣٢]. وهذه القضايا اليقينية تارةً تكون بديهية، وأُخرى تكون كسبية، حيث يكون سبب الاعتقاد محتاجاً إلى الكسب؛ وذلك بسبب غيابه عن العقل، وهي بالنتيجة وبعد الكسب تنتهي إلى البديهيات.

ثمّ إنّ هذا النوع من القضايا قد ذُكرت له أقسام عدّة، يمكن للقارئ العزيز ـ لأجل التعرّف عليها ـ الرجوع

إلى المصادر المتخصّصة بهذا الشأن[٣٣].

القسم الثاني: المشهورات والمسلّمات

يعتمد المنبر الحسيني بكثرة على القضايا المشهورة، التي هي عبارة عن: «قضايا اشتُهرت بين الناس، وذاع التصديق بها عند جميع العقلاء، أو أكثرهم، أو طائفة منهم»[٣٤]، ويعتمد أيضاً وبالدرجة نفسها على القضايا المسلّمة التي هي سنخ «قضايا حصل التسالم بينك وبين غيرك [المخاطَب] على التسليم بأنّها صادقة، سواء كانت صادقة في نفس الأمر، أو كاذبة كذلك، أو مشكوكة»[٣٥].

والسرّ في اعتماد المنبر الحسيني على هذين النوعين من القضايا، هو أنّ المنبر يُعدّ أحد مظاهر صناعة الخطابة، فإنّ الأساس الذي يعتمد عليه هو إقناع الناس بما يطرحه من جوانب فكرية أو سلوكية، على الرغم من توظيفه للبرهان والجدل أثناء حديثه مع الناس في بعض الأحيان، وعليه؛ فإنّ المنهج الحاكم على هذا النوع من المعلومات هو الأُسلوب الخطابي الذي يمكننا أن نتعرّف على معالمه من خلال الوقوف على التعاريف التي ذُكرت لكلّ من الخطابة وعلم الخطابة.

فممّا ورد في تعريف صناعة الخطابة، ما قاله أرسطوطاليس من أنّها: «قوّة تتكلّف الإقناع الممكن في كلّ واحدٍ من الأُمور المفردة»[٣٦]، وممّا ورد في تعريفها أيضاً ما قاله الشيخ المظفّر من أنّها: «صناعة علمية بسببها يمكن إقناع الجمهور في الأمر، الذي يتوقع حصول التصديق به بقدر الإمكان»[٣٧].

أمّا المراد من علم الخطابة فهو ـ بحسب ما رجّحه أحد الباحثين[٣٨] ـ: «علم يُقتدر بتطبيق قواعده على مشافهة المستمعين بفنون القول المختلفة؛ لمحاولة التأثير في نفوسهم، وحملهم على ما يُراد منهم بترغيبهم وإقناعهم»[٣٩].

في ضوء هذه التعاريف يتّضح لنا أنّ الأُسلوب الخطابي وظيفته السعي إلى إقناع السامعين، وذلك من خلال الاعتماد على جملة من القضايا التي يؤمنون بها، سواء كان ذلك بسبب ثبوتها علمياً، أم بسبب شهرتها لديهم، أم تسليمهم بها، فإنّه «ليس كلّ صنف من أصناف الناس ينبغي أن يُستعمل معهم البرهان في الأشياء النظرية التي يراد منهم اعتقادها؛ وذلك لأنّ الإنسان قد نشأ على شهوات تخالف الحقّ، فإذا سُلك به نحو الأشياء التي نشأ عليها سهل إقناعه...»[٤٠].

أمّا بالنسبة إلى الضوابط والقوانين التي ينبغي اتّباعها من قِبل الذين يوظّفون هذا الأُسلوب أثناء حديثهم مع الناس، فيمكن أن نتصيّدها من بعض الكلمات، ونرتّبها إجمالاً بالشكل الآتي:

تحديد الموضوع الذي يُريد الخطيب الحديث عنه، وتحديد ما يودّ أن يقوله بشأنه[٤١]، وهذا الأمر يُعدّ الدعامة الأساسية لكلّ بحث، يُراد أداؤه بأُسلوب خطابي أو بأُسلوب كتابي.

أن يكون الحديث مقنعاً بحيث يشتمل على أدلّة تُثبت صحّة الفكرة التي يدعو إليها الحديث.

أن يكون الحديث بطريقة إلقائية، أي: تُعتمد فيها جهارة الصوت وتكييفه باختلاف أساليب الحديث، وتجسيم المعاني التي تتضمّنها الخطبة، وإبداء التأثّر بها؛ ومن مكمّلات هذه الطريقة أن تصحبها إشارات باليد أو بغير اليد.

أن يتوفّر في الخطبة عنصر الاستمالة[٤٢]، أي: توجيه عواطف السامعين واستجابتهم للرأي الذي تدعو إليه الخطبة[٤٣].

أن يكون مضمون الخطبة مرتبطاً بالقرآن، والسنّة الشريفة، والعقل، والوجدان.

أن يكون الحديث مراعياً لمقتضى

الحال وواقع المجتمع[٤٤].

هذا، وإنّ المعلومات التي يعتمد عليها الخطيب الحسيني قد تتداخل فيها المناهج، فقد تكون الأدلّة عقلية تصل إلى رتبة القضايا اليقينية، كما أنّها قد تكون أدلّة نقلية، وهو المشاهد بصورة كثيرة في منابرنا المعاصرة، فالخطيب يعتمد كثيراً على الآيات والروايات والقصص والحوادث التاريخية من أجل إقناع مخاطبيه ومستمعيه بالفكرة التي هو بصددها.

إلّا أنّنا في المقام نرى أنّ الخطيب يجب أن لا يفقد روح هذا الأُسلوب، هذه الروح التي تتمثّل في إذعان المخاطَب وتسليمه بالمعلومات التي يسوقها الخطيب كأدلّة على مدّعاه، فإنّه قد توجد أدلّة عقلية أو نقلية يمكن الاستناد إليها في مقام إثبات المطلوب، إلّا أنّ المخاطَب ـ رغم عدم قدرته على ردّها ـ قد لا يكون مذعناً أو مسلّماً بها، وعليه فمن المفترض للخطيب الحسيني ألّا يخلط بين المناهج وبين الغايات المترتّبة عليها، وذلك من خلال التوظيف الخاطئ للمعلومات المطروحة، وبعبارة أُخرى: إنّ عنصر اشتهار المعلومة لدى المخاطَب أو التسليم بها من قِبله، ينبغي أن يكون حاضراً عند استخدام الخطيب للأُسلوب الخطابي الذي هو مورد حديثنا في هذا القسم.

القسم الثالث: الآيات والروايات والشواهد التاريخية

إنّ الخطيب الحسيني ـ في مقام حديثه مع الناس ـ نجده في أحيان كثيرة عندما يريد أن يستدلّ على جملة من القضايا الدينية: كالحجاب، وعقوق الوالدين، والكذب، والشفاعة، والصدقة، ونحو ذلك، نجده يأتي بآيات قرآنية وروايات شريفة، يسعى بعد قيامه بتفسيرها إلى بيان دلالتها على المطلوب، كما أنّه يستعين ـ علاوةً على

ذلك ـ بجملة من الشواهد التاريخية على إثبات بعض من القضايا التي حدثت في غابر الزمان.

وهذه المعلومات المتمثّلة بالآيات والروايات والشواهد التاريخية تسمّى بالأدلّة النقلية، ومن هنا فإذا أردنا أن نتعرّف على الضوابط والقوانين الحاكمة على هذا النوع من المعلومات فعلينا معرفة ضوابط المنهج النقلي، فإنّها هي الحاكمة في المقام، ومن خلال مراجعتنا لمظانّ البحث وجدنا أنّ القوانين أو الضوابط أو كما يُعبر عنه بعضٌ عناصر المنهج النقلي عبارة عن:

١ ـ توثيق إسناد النصّ سواء كان روائياً، أم علمياً، أم شاهداً تاريخياً إلى قائله، وذلك من خلال الوقوف على مخرجات علمَي الرجال والدراية في هذا المجال، وكذلك المراجعة الدقيقة لمصادر الأبحاث العلمية والتاريخية، وعدم الاكتفاء بالنقل الشفهي.

لا شك في أنّ الطرح المنبري لا يشبه الطرح الدرسي، وعليه؛ فالخطيب لا يتمكّن ـ خصوصاً في المجال الروائي ـ من عرض سند كلّ رواية ينقلها، ويناقش رواتها واحداً واحداً، ويثبت وثاقتهم أو ينفيها، ولا يتمكّن أيضاً من معالجة نوعية السند من جهة كونه مسنداً، أو معلّقاً، أو مضمراً، أو ما أشبه ذلك، كما أنّ الحاضرين ليسوا كلّهم طلبة علم يفهمون المصطلحات التخصّصية في مقام تصحيح الروايات.

ومن هنا، فالمغزى من وضع هذه الضابطة هو أنّ الخطيب يسعى أثناء تحضيره للبحث ـ الذي يروم طرحه على الناس ـ إلى تحرّي الأخبار ذات السند الصحيح المتصل بالمعصوم عليه السلام؛ وذلك من خلال قيامه بتطبيق القواعد التي يتبنّاها هو في المقام، أو رجوعه إلى أهل الخبرة من العلماء والمجتهدين الذي نقّحوا مثل هذه الروايات.

هذا، وإنّ الخطيب الحسيني يمكنه ـ

علاوةً على ما تقدّم ـ الاستفادة من بعض الروايات ضعيفة السند، والاستشهاد بها على ثبوت المطلب، وذلك من خلال الاستيناس بها، وهذا الأمر قد سار عليه فقهاؤنا الأبرار في أبحاثهم.

نعم، الروايات الموضوعة والإسرائيليّات يجب عليه الابتعاد عنها وعدم ذكرها إطلاقاً.

٢ ـ التحقّق من سلامة النصّ الروائي، بمعنى التأكّد من أنّ النصّ لم يدخله تحريف، أو تصحيف، أو زيادة، أو نقصان؛ ولأجل الوصول إلى نتائج سليمة في المقام ينبغي للخطيب أن يراجع النصّ ـ مورد البحث ـ في مصادر أُخرى، ولا يكتفي بمصدر واحد فقط، ويراجع أيضاً النصوص الروائية المشابهة له.

٣ ـ فهم مدلول النصّ سواء كان قرآنياً، أم روائياً، أم علمياً، أم شاهداً تاريخياً، فإنّ الخطيب الحسيني لا بدّ أن تكون له قراءة صحيحة للنصوص التي يطرحها على منبره؛ وذلك من خلال امتلاكه دراية بعلم التفسير، وفقه الحديث، والأبحاث العلمية والتاريخية، أو يكون له اطّلاع واسع على مجمل ما كُتِب في ذلك(٤٥).

هذا، وإنّنا نجد أنّ هذه الضابطة تحتلّ مكانة في المجال الخطابي أهمّ من الضابطتين الأُوليين؛ وذلك لأنّ هذا المجال يعتمد ـ كما أسلفنا ـ على عنصر الإقناع، وعليه فالخطيب في الأعمّ الأغلب يسعى إلى الاستدلال والاستشهاد بالنصوص المقبولة أو المشهورة لدى المخاطبين، تلك التي تم التطرّق إليها من قِبل الباحثين في النهضة الحسينية، ومجمل القضايا الدينية.

نعم، في مقام تقديم القراءة الصحيحة للنصوص، بُغية توظيفها في المسائل التي هو بصددها، قد يقع الخطيب في الاشتباه؛ والسبب في ذلك

يعود إلى بعض الخلفيات العلمية التي تمثّل عاملاً مساعداً في تحقّق الفهم لدى كلّ إنسان، وهذا ما نلمسه بشكل واضح لا يقبل الشك، فالشخص العالم يكون فهمه وإدراكه للأُمور التي يراها، أو النصوص التي يقرأها، مختلفاً تماماً عن الشخص الجاهل، وهذا الأمر ـ بحدّ ذاته ـ صحّي وجيّد، إلّا أنّ ما يُخشى منه في هذا المجال، أنّ الأمر لا يتوقّف عند تدخّل الخلفيات العلمية الضرورية في مقام الفهم، بل إنّه ينسحب إلى لَيّ عنق النصوص إلى ما يخدم بعض النتاجات العلمية أو الفلسفية التي أنتجتها بعض الأيديولوجيات الفكرية البعيدة عن الرؤية الإلهية للعالم، أو ما يخدم ميول قارئ النصّ ورغباته وانتماءاته.

خذ على سبيل المثال تدخّل هذه الأُمور في فهم وتفسير النصّ القرآني، فإنّه ـ على الرغم من كونه أجلّ النصوص وأعظمها في الدين الإسلامي ـ لم يسلم من هذه المعضلة التي تعيشها عملية الفهم في جميع الأعصار، وفي هذا الصدد يقول العلّامة الطباطبائي: «ثمّ استوجب شيوع البحث الكلامي بعد النبي ﷺ في زمن الخلفاء باختلاط المسلمين بالفرق المختلفة، من أُمم البلاد المفتوحة بيد المسلمين، وعلماء الأديان والمذاهب المتفرّقة من جهة، ونقل فلسفة يونان إلى العربية... وانتشار البحث العقلي الفلسفي بين الباحثين من المسلمين من جهة أُخرى ثانية، وظهور التصوّف مقارناً لانتشار البحث الفلسفي، وتمايل الناس إلى نيل المعارف الدينية من طريق المجاهدة والرياضة النفسانية دون البحث اللفظي والعقلي من جهة أُخرى ثالثة، وبقاء جمع من الناس ـ وهم أهل الحديث ـ على التعبّد المحض بالظواهر الدينية من غير بحث، إلّا عن اللفظ بجهاتها الأدبية

من جهة أُخرى رابعة. [كلّ ذلك استوجب] أن اختلف الباحثون في التفسير في مسالكهم بعدما عمل فيهم الانشعاب في المذاهب ما عمل»[٤٦].

وقس على ذلك سائر النصوص التي يتمّ الاستفادة منها كأدلّة وشواهد من قِبل خطباء المنبر الحسيني؛ ومن هنا نرى ضرورة الاهتمام بالأُصول والقواعد التي تُعين الخطيب على الوصول إلى الفهم الصحيح، وذلك من خلال الرجوع ـ فيما يخصّ المقام ـ إلى كتب أُصول الفقه وقواعد التفسير، وكذلك الاستعانة بما دوّنه المفسّرون المنصفون في كتبهم التفسيرية، وكذلك ما أُلّف في مجال فقه الحديث.

وفوق كلّ هذا تحلّي الخطيب بجملة من الصفات الأخلاقية، من قبيل صفتي: الخشية والأمانة، فهما صمّام الأمان الذي يمنع الخطيب من السير وراء ميوله ورغباته أثناء محاولة فهمه للنصوص التي يريد طرحها على منبره، وبهذا الصدد نجد أنّ الله (عزّ وجل) قد وصف الأنبياء ـ الذين يهدف خطباء المنبر الحسيني إلى السير على خطاهم ـ بهاتين الصفتين، فقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾[٤٧]، وقال تعالى أيضاً: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[٤٨].

هذا، ويبقى شيء مهمّ نودّ الإشارة إليه قبل الانتقال إلى الحديث عن قسم آخر من المعلومات، وهو أنّ الشواهد التاريخية التي يستفيد منها الخطيب الحسيني كثيراً في إثبات بعض القضايا التي حدثت فيما مضى من الزمان، قد أفرد لها بعضٌ منهجاً خاصّاً أسماه المنهج التاريخي[٤٩]، وقوام هذا المنهج يعتمد على مرحلتين، هما:

١ـ التثبّت من صحّة الوثيقة، والاستعانة بمجموعة من العلوم المساعدة.

٢ ـ التثبّت من الواقعة في إطار نقد وثائق لا إرادية تدور حولها[٥٠].

وبما أنّ الخطيب الحسيني ـ بحسب العادة الغالبة ـ يكون ناقلاً عن الكتب التاريخية؛ فإنّه سوف يكون محكوماً بضوابط المنهج النقلي المتقدّمة، كما أنّه قد يكون أحياناً محكوماً بضوابط المنهج العقلي، وذلك فيما لو ترتّب على المعلومة مسألة عقائدية، أمّا إذا لم تترتّب على الواقعة التاريخية التي بصدد إثباتها عقيدة أو حكم فقهي، وكان «الهدف هو الاعتبار التاريخي أو الأخلاقي في مجال مفروغ عن ثبات حكمه، فلا ضير في النقل، ولو لم يخضع لمقاسات البحث العقائدي أو الفقهي في الفقه والعقائد، كما هو معوّل عليه في التاريخ وعلم الرجال»[٥١].

نعم، من المفترض أن تتمّ الاستفادة من الكتب التاريخية الموثوقة والرصينة التي تُراعي ضابطتي المنهج التاريخي المتقدّمتين أو غيرهما، خصوصاً في مجال إثبات الوقائع فيما مضى، لا مجرّد توظيف الشاهد التاريخي في التذكير والوعظ والتربية على أمر ثابت الحكم[٥٢].

القسم الرابع: المشاهدات الحسّية

بما أنّ الإصلاح المجتمعي يُعدّ من أبرز الأهداف التي قامت من أجلها النهضة الحسينية المباركة، وهو أيضاً يتصدّر قائمة الوظائف التي يقوم بها المنبر الحسيني؛ نجد أنّ الخطباء يسعون دائماً إلى رصد السلوكيات السلبية، سواء على الصعيد الديني، أم الاجتماعي، أم السياسي، ومحاولة إبراز صورتها السيّئة للناس؛ بُغية الابتعاد عنها أو مواجهة مَن يقوم بها.

ونظراً لكون هذه السلوكيات حاضرة في زمن الخطاب، تكون عادةً من قبيل المشاهدات الحسّية التي يراها الخطيب الحسيني ويعيشها بشكل يومي. نعم، قد تكون بعض هذه

السلوكيات والقضايا الاجتماعية منقولة عِبر وسائل الإعلام وصفحات التواصل الاجتماعي؛ وهنا ينبغي للخطيب ـ علاوةً على ما سنذكر ـ مراعاة وثاقة الجهة الناقلة لذلك، أو موثوقية المعلومة المنقولة.

وعلى أيّة حال، فإنّنا نرى أنّ الخطيب ينبغي له أن يراعي جانب الدقّة والحذر في مثل هذه الأُمور، فإنّ المجتمع تركيبة معقّدة، تتواجد ـ أحياناً ـ بين سلوكيّاته روابط مبهمة وغير واضحة، ومن هنا؛ نجد أنّ الخطيب أو الواعظ غير الواعي بطبيعة هذه العلاقات والروابط يُخفق في إيجاد حالة الإصلاح والتأثير الإيجابي الذي يصبو إليه.

وعليه؛ فـ «الخطيب حتّى يتحقّق له ذلك لا بدّ [له] من بصر وبصيرة، من بصر: ونعني به الوعي لواقعه وأحوال مجتمعه، والدراسة المتأنية لطبائع النفس البشرية، وثقافة عالية وواعية بكلّ ما يتّصل بهذه النفس البشرية، حتّى يتعرّف على مداخلها ومخارجها، فضلاً عن المعارف المتنوّعة، والاستفادة من خبرات السابقين...»[٥٣]، هذا أوّلاً.

وأمّا **ثانياً**: فعلى الخطيب أن يعمد إلى الأخطر من تلك السلوكيّات السلبية، لا سيّما ما كان منها قريب العهد، ومشتهراً على ألسنة الناس، أو ذائعاً في الصحف؛ أيّ: إنّه من المفترض أن يتدرّج في معالجته لظواهر الانحراف التي تُهدّد حياة الناس، فيُقدّم من تلك الظواهر أكبرها ضرراً، أو أسوأها أثراً، ويجعله محور خطابته، وموضع عِظته، ثمّ يُفكّر فيما ينشأ عن هذه الظاهرة المنكرة من الأضرار الخلقية والاجتماعية والصحّية والمالية، ثمّ يستحضر ـ بعد ذلك ـ كلّ ما جاء من الأدلّة القرآنية والروائية، وكلمات العلماء الدالّة على ضرورة الإقلاع عن الظاهرة المنظورة[٥٤].

ومن الجدير بالذكر هو أنّه من

المفترض ألّا يقتصر الخطيب على رصد الظواهر المجتمعية السلبية ونقدها، وإنّما عليه أيضاً أن يتعرّض لذكر الظواهر الاجتماعية الإيجابية، والقيام بالتشجيع عليها، والترويج لها، وذكر الأدلّة المتنوّعة الحاثّة على إشاعتها والعمل على وفقها، بل أكثر من ذلك، فمن المفترض أن يرصد الخطيب بعض السلوكيّات الإيجابية المحدودة التي لم ترقَ إلى مستوى ظاهرة اجتماعية، فيسعى إلى نشرها وتوسيع نطاقها بين الناس.

القسم الخامس: القصص والأشعار

بيّنا فيما سبق أنّ البُعد العاطفي المترتّب على الأحداث والمواقف المروّعة التي تضمّنتها واقعة الطف ومسيرة السبي، يُعدّ المنشأ الأوّل والرئيس للمنبر الحسيني، كيف لا؟ وقد تظافرت الروايات[٥٥] على رجحان البكاء على مصيبة أبي عبد الله الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه، ومحبوبيته، منها: ما رُوي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «نظر أمير المؤمنين عليه السلام إلى الحسين، فقال: يا عَبرة كلّ مؤمن، فقال [عليه السلام]: أنا يا أبتاه. قال: نعم يا بُنيّ»[٥٦]، ومنها: ما عن أبي عمارة المنشد، قال: «ما ذُكر الحسين عليه السلام عند أبي عبد الله عليه السلام في يوم قطّ فرُئي أبو عبد الله عليه السلام متبسّماً في ذلك اليوم إلى الليل، وكان عليه السلام يقول: الحسين عليه السلام عَبرة كلّ مؤمن»[٥٧]، ومنها: ما رُوي حول شدّة بكاء الإمام السجّاد على مصارع أبيه عليه السلام، وسائر مَن استُشهد في معركة الطفّ، فقد عدّه الإمام الصادق عليه السلام من البكّائين الخمسة (آدم، ويعقوب، ويوسف، وفاطمة الزهراء، وعلي بن الحسين عليهم السلام)، قائلاً: «... وأمّا علي بن الحسين فبكى على الحسين عليه السلام عشرين سنة، أو أربعين سنة، وما وُضع بين يديه طعام إلّا بكى، حتّى قال له مولى له: جُعلت فداك يابن

رسول الله، إنّي أخاف عليك أن تكون من الهالكين. قال: إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون، إنّي لم أذكر مصرع بني فاطمة إلّا خنقتني لذلك عَبرة»(٥٨).

ونظراً لهذا الدور المهمّ للبُعد العاطفي؛ فإنّنا نجد أنّ الحضور الشعري والتصوير القصصي لِما جرى في واقعة الطفّ وما بعدها قد شغل مساحة كبيرة من الخطاب المنبري، كما أنّ الخطيب قد يُوظّف في بعض الأحيان الجانب القصصي من أجل جذب الناس نحو التعاليم الدينية، فقهية كانت أم أخلاقية، ومن هنا؛ فإنّ ضبط هذا النوع من المعلومات وتقنينه، له أهمّية كبيرة، وتترتّب عليه ثمرات كثيرة تصبّ في مصلحة الحضور المنبري في حياة الناس، وهذه التقنينات عبارة عن:

ضرورة امتلاك الخطيب الذي يروم إثارة عواطف الناس شعوراً حارّاً، وانفعالاً صادقاً، وعبارات تناغم القلوب وتفتح أقفالها، وبعبارة أُخرى: ينبغي للخطيب أن توجد عنده سنخية بين ما يشعر به في داخله وبين ما يريد إثارته في نفوس مخاطبيه؛ ولهذا نُقل أنّ الإمام الحسن عليه السلام قال ـ عندما: «سمع متكلّماً يعِظ فلم تقع موعظته بموضع من قلبه ولم يرقّ عندها ـ يا هذا إنّ بقلبك لشرّاً أو بقلبي»(٥٩)، كما أنّه نُقل بهذا الصدد عن عامر بن عبد القيس قوله: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان»(٦٠).

إجادة إثارة الخيال في النصّ الشعري أو القصصي؛ وذلك باختيار المفردات والعبارات التي تُثير في النفوس أخيلة وذكريات، وتبعث فيها صوراً وأفكاراً ملائمة للموضوع، فيها إمكانية التداعي والتواقد، وكذلك ينبغي في المقام اختيار

الأساليب البيانية: كالاستعارة، والكناية، والتمثيل، والجنوح إلى التشبيهات والمبالغات المقبولة، في حال كون الخطيب شاعراً، أو قاصّاً، أمّا إذا لم يكن كذلك ـ وهو الغالب في هذا الزمان ـ فعليه الفحص والتدقيق من أجل اختيار النصوص الشعرية والقصصية التي فيها هذه المواصفات المذكورة، وإن تطلّب الأمر الرجوع إلى أهل الخبرة والاختصاص في ذلك.

عدم المساس بالثوابت الدينية، والمذهبية، والعقلية، وهذه الضابطة لا تختصّ بقسم الأشعار والقصص وحسب، بل إنّها من المفترض أن تكون حاضرة من بداية الخطبة وتستمر حتّى نهايتها.

نعم، كان التذكير بها في المقام بسبب كون الأشعار والقصص ـ نتيجة سعيها إلى تهييج مشاعر الحاضرين أو السامعين، وشحذ هممهم، وكذلك نتيجة غرقها في التشبيهات والمبالغات ـ قد تحتوي أحياناً على مداليل فيها مخالفة لبعض الثوابت المشار إليها أعلاه.

الابتعاد عن الخرافات والأساطير، فإنّ هذه القضايا تُشكّل الجانب الهدّام الذي يُضيّع الهدف المنشود من توظيف الشعر والقصّة في ربط الجمهور بمعطيات النهضة الحسينية، فإنّ الحسين عليه السلام يمثل رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه الحركة التغييرية التي أرادها للمجتمع الإسلامي، والشخص الذي يعتلي المنبر هو في الواقع يمثّل الحسين عليه السلام، فلا بدّ ألّا يبتعد في أُطروحاته وأشعاره عن الحقّ الذي سار عليه الرسول وأهل بيته عليهم السلام، «فإنّ تحرّي الصدق في كلّ ما يُذكر على المنبر، وفي كلّ ما ينقله الخطيب في مواعظه وخطاباته، أساس نجاح قراءة العزاء، وبلوغها أهدافها الموسومة لها، من حمل الأُمّة على فهم الخطّ الحسيني الثوري فهماً صحيحاً، يدفعها للوقوف بجانب

الحقّ، ورفض الظلم... وعلى خلاف ذلك إيراد القصص الكاذبة، والحكايات الباطلة، وتصوير ما حصل في كربلاء بصور مضخّمة، تسيطر عليها المبالغات والتهويلات»[٦١].

النتائج

إنّ المنبر الحسيني ـ نظراً إلى المهمّة الخطيرة والعظيمة الملقاة على عاتقه ـ يحتاج من القائمين عليه والمهتمّين بتطويره والارتقاء به، إلى بذل الجهود الكبيرة في مقام إبعاد كلّ ما يؤدّي إلى وهنه وإضعافه، في مقام أدائه لدوره الرسالي.

إنّ أُسلوب التبليغ البياني والقولي في مسألة التفهيم والتفاهم، تُعدّ من أهمّ الوسائل التي يتمّ توظّيفها من قِبل الأنبياء، والملوك، والقادة، والمصلحين، والخطباء، ونحوهم؛ من أجل إيصال رسائلهم إلى الناس.

أوّل مَن تصدّى لمهمّة التبليغ البياني والقولي في واقعنا الإسلامي هو الرسول محمد ﷺ.

إنّ المنبر الحسيني ـ بعد سلسة من التطوّرات ـ صار امتداداً للمنبر الرسالي الذي أسّسه النبي الأكرم ﷺ في إرساء دعائم الرسالة الإسلامية، وإن كان السبب في نشأته هو استحضار المصيبة التي حصلت في واقعة الطف.

يوظّف الخطيب الحسيني ـ عندما يُخاطب الناس ـ مجموعة منوّعة من المعلومات الموزّعة على مستويات متعدّدة: كالمستوى المعرفي، أو السلوكي، أو التاريخي، أو العاطفي.

توجد مجموعة من الأدلّة القرآنية والروائية والعلمية على ضرورة تقنين المعلومات المطروحة على المنبر.

تنقسم المعلومات المطروحة على المنبر بحسب الاستقراء إلى القضايا البرهانية والاستدلالية، والمشهورات والمسلّمات، والآيات والروايات،

والشواهد التاريخية، والمشاهدات الحسّية، والقصص والأشعار.

إنّ كلّ نوع من أنواع المعلومات المشار إليها في النقطة السابقة يخضع لمجموعة من الضوابط والتقنينات التي تتناسب مع المنهج أو المجال الذي ينضوي تحته ذلك النوع.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١ـ إصلاح الفكر الإسلامي (مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر)، طه جابر العلواني، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٢ـ أُصول البحث، عبد الهادي الفضلي (ت ٢٠١٣م)، مؤسّسة دار الكتاب الإسلامي، قم ـ إيران.

٣ـ أُصول المحاضرات، كامل الهاشمي، مؤسّسة أُمّ القرى للتحقيق والنشر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٤ـ أُصول المعرفة والمنهج العقلي، أيمن المصري، الديرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٥ـ الأمالي، محمد بن علي الصدوق (ت٣٨١هـ)، منشورات كتابجي، طهران، الطبعة السادسة، ١٤١٨هـ.

٦ـ بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي (ت١١١٠هـ)، تحقيق: جمع من المحقّقين، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٧ـ البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الليثي البصري المعروف بالجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق: فوزي عطوي، المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها مصطفى محمد، مصر، الطبعة الأُولى، ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م.

٨ـ تجاربي مع المنبر، أحمد الوائلي (ت٢٠٠٣م)، منشورات الشريف الرضي، قم المقدّسة، ١٣٧٨ش.

٩ـ تلخيص الخطابة، محمد بن أحمد المعروف بابن رشد، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م.

١٠ـ الخطابة (الترجمة العربية القديمة)، أرسطوطاليس، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٩م.

١١ـ الخطابة بين العلم النظري والفنّ التطبيقي، عبد الرحيم أرشد، جامعة العلوم الإسلامية، ماليزيا، الطبعة الأُولى، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
١٢ـ الخطابة بين النظرية والتطبيق، محمود محمد عمارة، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، المنصورة ـ مصر، الطبعة الأُولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
١٣ـ الخطابة وإعداد الخطيب، عبد الجليل عبده شلبي، دار الشروق، القاهرة، بيروت، لندن، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.
١٤ـ دراسات في الخطابة، محمد سعد علي شبيب، وعبد البصير علي علي، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
١٥ـ الشعائر الدينية، محمد السند، تقرير: السيّد جعفر الحكيم، دار الغدير، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
١٦ـ علم الخطابة، أحمد أحمد غواش، دار الجيل للطباعة، القاهرة، الطبعة الأُولى، ١٩٧١م.
١٧ـ غُرر الحكم ودُرر الكلم، عبد الواحد محمد التميمي الآمدي (ت٥٥٠هـ)، تحقيق: مهدي الرجائي، دار الكتاب الإسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.
١٨ـ فلسفتنا، محمد باقر الصدر (ت١٤٠٠هـ)، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
١٩ـ فنّ الخطابة الحسينية، محمد باقر المقدسي، مؤسّسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٩م/ ٢٠٠٨م.
٢٠ـ فنّ الخطابة، أحمد محمد الحوفي، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الرابعة.
٢١ـ الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ)، تحقيق: علي أكبر غفّاري، ومحمد آخوندي، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.
٢٢ـ كامل الزيارات، جعفر بن محمد بن قولويه القمّي (ت٣٦٨هـ)، تحقيق: جواد القيومي، لجنة التحقيق، مؤسّسة نشر الفقاهة، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ.
٢٣ـ لمحات في الكتاب والحديث والمذهب، لطف الله الصافي الكلبايكاني، قسم الدراسات الإسلامية، مؤسّسة البعثة، طهران.
٢٤ـ اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر، حسين النوري الطبرسي (ت١٣٣٠هـ)، تعريب: إبراهيم البدوي، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
٢٥ـ المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء، محمد بن المرتضى المعروف بالفيض الكاشاني

(ت١٠٩١هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفّاري، دفتر انتشارات إسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الثانية.
٢٦ـ المدخل إلى مناهج البحث العلمي، محمد محمد قاسم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٩م.
٢٧ـ المرشد إلى الخطابة، كريس ستيوارد، ومايك واكنسون، ترجمة: جورج خوري، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٠م.
٢٨ـ المنبر الحسيني نشوؤه حاضره آفاق المستقبل، فيصل الخالدي الكاظمي، دار المحجّة البيضاء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
٢٩ـ منطق تفسير القرآن، محمد علي رضائي إصفهاني، ترجمة ونشر: مركز المصطفى ﷺ العالمي للترجمة والنشر، الطبعة السادسة، ١٣٩٢ش.
٣٠ـ المنطق، محمد رضا المظفّر (ت١٣٨٣هـ)، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة.
٣١ـ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، الميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي (ت١٣٢٤هـ)، ترجمة: حسن حسن زاده آملي ومحمد باقر كمره اي، تحقيق: إبراهيم الميانجي، المكتبة الإسلامية، طهران، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.
٣٢ـ منهج تدوين (معجم مصطلحات العلوم الإسلامية)، محمد هادي يعقوب نجاد، ترجمة: خالد الغفّوري، مؤسّسة بوستان كتاب، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤٢٩هـ/ ١٣٨٦ش.
٣٣ـ موسوعة طبقات الفقهاء (المقدّمة)، جعفر السبحاني، مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤١٨هـ.
٣٤ـ الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ)، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في الحوزة العلمية بقم، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ.
٣٥ـ نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح، دار الهجرة للنشر، قم المقدّسة، ط١، ١٤١٤هـ.
٣٦ـ هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ، دار الاعتصام، الطبعة التاسعة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

الهوامش:

[١] الفيض الكاشاني، محمد بن المرتضى، المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء: ج٥، ص١٩٧.
[٢] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٨، ص١٤٨.

[٣] النحل: آية٤٤.
[٤] النجم: آية٣ ـ ٤.
[٥] أُنظر: السبحاني، جعفر، موسوعة طبقات الفقهاء (المقدّمة): ج١، ص٤٧.
[٦] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج١، ص٦٩.
[٧] المصدر السابق.
[٨] أُنظر: الهاشمي، السيّد كامل، أُصول المحاضرات: ص١٣.
[٩] أُنظر: المصدر السابق: ص٥٧.
[١٠] المقدسي، محمد باقر، فنّ الخطابة الحسينية: ص٦٠.
[١١] الوائلي، أحمد، تجاربي مع المنبر: ص١٥٥ـ ١٥٦.
[١٢] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٢٩ ـ ٣٣٠.
[١٣] النحل: آية١٢٥.
[١٤] فُسّرت الحكمة بـ: «الحجّة التي تُنتج الحقّ الذي لا مرية فيه، ولا وهن ولا إبهام. والموعظة: هو البيان الذي تلين به النفس، ويرق له القلب... والجدال: هو الحجّة التي تُستعمل لفتل الخصم عمّا يُصرّ عليه، وينازع فيه، من غير أن يريد به ظهور الحقّ، بالمؤاخذة عليه من طريق ما يتسلّمه هو والناس، أو يتسلّمه هو وحده في قوله أو حجّته». الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج١٢، ص٣٧١.
[١٥] المصدر السابق: ص٣٧٢.
[١٦] الإسراء: آية١٠٥.
[١٧] الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج١٣، ص٢٢٠.
[١٨] نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح: ص٤٢١.
[١٩] الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج٢٠، ص١٣١.
[٢٠] التميمي الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غُرر الحكم ودُرر الكلم: ص٢١٠.
[٢١] المصدر السابق.
[٢٢] المصدر السابق.
[٢٣] أُنظر: يعقوب نجاد، محمد هادي، منهج تدوين معجم مصطلحات العلوم الإسلامية: ص١٦ـ ١٧.
[٢٤] قاسم، محمد محمد، المدخل إلى مناهج البحث العلمي: ص٥٢.
[٢٥] أُنظر: العلواني، طه جابر، إصلاح الفكر الإسلامي مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر

الإسلامي المعاصر: ص١١٣ـ ١١٤.

[٢٦] البقرة: آية٢٦٩.

[٢٧] الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص٢٤٠.

[٢٨] أُنظر: الصدر، محمد باقر، فلسفتنا: ص٦٤.

[٢٩] أُنظر: رضائي إصفهاني، محمد علي، منطق تفسير القرآن: ج٢، ص١٤٣.

[٣٠] الصدر، محمد باقر، فلسفتنا: ص٦٤.

[٣١] المظفّر، محمد رضا، المنطق: ص٣٦٠.

[٣٢] أُنظر: المصدر السابق: ص٣٢٧.

[٣٣] أُنظر: المصدر السابق: ص٣٢٧ ـ ٣٣٨.

[٣٤] المظفّر، محمد رضا، المنطق: ص٣٤٠.

[٣٥] المصدر السابق: ص٣٥١.

[٣٦] طاليس، أرسطو، الخطابة الترجمة العربية القديمة: ص٩.

[٣٧] المظفّر، محمد رضا، المنطق: ص٤٢٤.

[٣٨] أُنظر: أرشد، عبد الرحيم، الخطابة بين العلم النظري والفنّ التطبيقي: ص١١.

[٣٩] غواش، أحمد أحمد، علم الخطابة: ص٩.

[٤٠] ابن رشد، محمد بن أحمد، تلخيص الخطابة، ص١٠.

[٤١] أُنظر: ستيوارد، كريس، وواكنسون، مايك، المرشد إلى الخطابة: ص٧.

[٤٢] إنّ عنصر الاستمالة وجذب المخاطبين والسامعين للعمل بمؤدّى الخطبة قد اشترطه بعض الباحثين، علاوةً على شرط الإقناع المتقدّم في تعريف الخطابة. أُنظر: عمارة، محمود محمد، الخطابة بين النظرية والتطبيق: ص٦. الحوفي، أحمد محمد، فنّ الخطابة: ص٩. شلبي، عبد الجليل عبده، الخطابة وإعداد الخطيب: ص١٣.

[٤٣] أُنظر: شلبي، عبد الجليل عبده، الخطابة وإعداد الخطيب: ص١٣.

[٤٤] أُنظر: أرشد، عبد الرحيم، الخطابة بين العلم النظري والفنّ التطبيقي: ص٢٨.

[٤٥] أُنظر: الفضلي، عبد الهادي، أُصول البحث: ص٥٢ ـ ٥٣.

[٤٦] الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٥.

[٤٧] الأحزاب: آية٣٩.

[٤٨] الأعراف: آية٦٨.

[٤٩] وهو المنهج الذي يكون عمل المؤرّخ فيه هو الاهتداء إلى الوقائع التي اختفت في الماضي،

والتثبّت منها، وذلك من خلال انتقاء الوثائق وجمعها وتصنيفها وتأويل الوقائع. أُنظر: قاسم، محمد محمد، المدخل إلى مناهج البحث العلمي: ص٦٠ ـ ٦١.

[٥٠] أُنظر: المصدر السابق: ص٦١.

[٥١] السند، محمد، الشعائر الدينية: ص٧٤.

[٥٢] أُنظر: المصدر السابق: هامش ص٧٤.

[٥٣] علي شبيب، محمد سعد، وعلي، عبد البصير، دراسات في الخطابة: ص٨٨.

[٥٤] أُنظر: محفوظ، علي، هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة: ص١٤٦.

[٥٥] وقد ذكر بعض العلماء أنّ الروايات في المقام قد تجاوزت حدّ التواتر. أُنظر: الصافي الكلبايكاني، لطف الله، لمحات في الكتاب والحديث والمذهب: ص٢٧٣.

[٥٦] ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٢١٤.

[٥٧] المصدر السابق: ص٢١٥.

[٥٨] الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص٢٠٤.

[٥٩] الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين: ص٥٩.

[٦٠] المصدر السابق.

[٦١] النوري، حسين، اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر: ص٥ ـ ٦.

د. الشيخ على العبادي
أستاذ في الحوزة العلمية، من العراق

ضوابط الخطابة ومقوّماتها في ضوء النصوص الشرعية

مقدّمة

قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[1].

استحوذ فنّ الخطابة على اهتمام الناس منذ القدم؛ إذ سجّل لنا التاريخ أنّ الخطابة نشأت قبل الإسلام، فكان الناس في الجاهلية يجتمعون في سوق عكاظ، ويتبارى الوعّاظ والشعراء في إلقاء ما عندهم من شعر ونثر.

وتتضاعف أهمّية الخطابة في كونها فنّ مخاطبة الناس وإقناعهم وجذبهم وترغيبهم، بطريقة مؤثرة تتناسب مع عقليتهم وثقافتهم، وتتفق مع أعمارهم ولهجاتهم، فتحرّك عزائمهم وتستثير وجدانهم.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نعرف عناية القرآن الكريم بالخطابة واهتمامه بها؛ لكونها ذات صلة وثيقة بالرسالات والدعاة، وقد تحدّث القرآن الكريم في مواضع متعدّدة عن الخطابة، فعلى سبيل المثال يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن

رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[٢]، أي: «البيان الذي يصحبه الإقناع ويثمر الاستجابة»[٣].

كما أشار القرآن الكريم إلى أهمّية الخطابة عند ذكر قصة موسى وهارون، بقوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[٤]. وهذه الآية فيها دلالة على أنّ موسى عليه السلام لديه فصاحة ولكن فصاحة أخيه أزيد من فصاحته، فكانت الفصاحة من العوامل المهمّة في ترشيحه للرسالة، وشدّ عضد أخيه[٥].

وقد اهتمّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالخطابة، فخطب في أهل مكّة ودعاهم إلى الإسلام حين أمره الله تعالى أن يصدح بالدعوة، وكان صلى الله عليه وآله آية في الفصاحة والبلاغة.

وهذه العناية بالخطابة نلمسها في أحد أوجه الإعجاز، وهو الفصاحة والبلاغة، اللتان تحدّى بهما القرآن العربَ الفصحاء في عقر دارهم، فقال تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾[٦].

وللخطابة أثر بالغ في الدفاع عن الإسلام، وفي قتال الأعداء، فكان لكلمات النبي صلى الله عليه وآله الأثر الأقوى في نفوس المسلمين، وكان صلى الله عليه وآله إذا أراد بيان أمر ما، ارتقى المنبر وخطب في الناس.

وفي غضون واقعنا المعاصر نجد أنّ الإسلام في أمسّ الحاجة إلى دعاة خطباء بلغاء، يعتنون بالخطابة عناية فائقة؛ للدفاع عن الإسلام ودرء الشبهات ومعالجتها.

تُبحث الخطابة في علوم مختلفة ومتنوعة، فنجد أنّها تدخل في علم الفقه كما في صلاة الجمعة والعيدين، فيُبحث عن شرائط الخطبة وأركانها، وكذلك تدخل الخطابة في علم

الاجتماع من جهة تأثير الخطبة في المجتمع، وكيفية بثّ روح الحماس فيه كما في الخطب التي تحثّ وتحفّز الناس على الجهاد، وكذلك تُبحث الخطابة في علم النفس من زاوية تأثير الخطيب في نفوس الجمهور، وتدخل أيضاً في علم السياسة، كما لا يخفى دخولها في علم المنطق واعتبارها فنّاً من الفنون وصناعة من الصناعات، فيبحث المناطقة عن قواعد وأُصول الخطابة وأركانها. وغير ذلك من العلوم التي يكون للخطابة دورٌ مهمّ فيها.

ومن هنا تتضح أهمّية دراسة فنّ الخطابة وآدابها وقواعدها؛ لذا لا بدّ للخطيب أن يكون على دراية تامّة بهذا الفنّ، وأن يُتقنه بالشكل الصحيح.

وقد جاءت هذه المقالة مستضيئة بالنصوص الشرعية لبيان المعالم المهمّة والأساسية في الخطابة، والأُسس والخطوات المهمّة التي ينبغي للخطيب أن يقف عليها، وقد تضمّنت أربعة محاور أساسية، كُرّس الأول للبحث في تعريف الخطابة وأقسامها، أمّا المحور الثاني فتناول البحث في محتوى الخطبة من حيث المقدّمة والموضوع، بينما تناول المبحث الثالث كيفية إعداد موضوع الخطابة. وأمّا المحور الرابع، فتضمّن ملاحظات عامّة حول الخطبة والخطيب.

المحور الأول: تعريف الخطابة وأقسامها

الخطابة (بفتح الخاء): مصدر على وزن (فعالة) بفتح الفاء، فيقال: «خَطُبَ (بالضم)، خَطابَةً (بالفتح): صار خَطِيباً»[٧]، وأصل الخطابة الكلام بين اثنين، يقال: خاطبه، يخاطبه، خطاباً[٨]، «وخطب الخاطب على المنبر، واختطب: يخطب خطابة... ورجل خطيب: حسن الخُطبة، وجمع الخطيب: خُطباء»[٩].

وأمّا اصطلاحاً فقد عُرّفت الخطابة بتعاريف عدّة أبرزها ما يلي:

١ـ قال أرسطو (ت٣٢٢ ق. م): «الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أيّ موضوع كان»[١٠].

٢ـ قال محمد أبو زهرة (ت١٣٩٤هـ): «صفة راسخة في نفس المتكلّم يقتدر بها على التصرّف في فنون القول؛ لمحاولة التأثير في نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم»[١١].

وذكر أبو زهرة أنّ تعريف أرسطو يظهر فيه المنطق واضحاً وضوحاً تاماً؛ لذلك تراه يتحدّث عن حدّ التعريف والرسم والدليل، وكيفية تكوّن القياس الخطابي، وكل ما يُعدّ من المنطق، وأكّد أبو زهرة على الصلة الوثيقة بين علمي الخطابة والمنطق، من حيث إنّ المنطق خادماً لها، فالكثير من قوانين الخطابة تعتمد على المنطق في مبادئه[١٢].

ويبدو أنّ أشمل تعريف للخطابة هو: «فنّ مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية، تشتمل على الإقناع والاستمالة»[١٣]؛ لأنّه أكّد فيه ثلاثة أُمور مهمّة في الخطابة لتحقّق معناها، وهذه الأُمور هي:

أوّلاً: وجود جمهور من الناس.

ثانياً: التأكيد على أن يكون الأُسلوب الخطابي إلقائياً، ممّا يستدعي جهارة الصوت، وتجسيم المعاني التي تتضمّنها الخطبة، وإظهار التأثر بها، مع مراعاة الإشارات الملائمة، سواء كانت باليد أم بتقليص وانقباض عضلات الوجه ونحو ذلك؛ ليُثير السامع ويجذب مشاعره؛ ليتحقّق الأمر الثالث.

ثالثاً: الإقناع من خلال الاستدلال والبرهنة على صحة ما جاء به في حديثه، فيستميل السامعين ويجذب عواطفهم لما تدعو إليه الخطبة[١٤].

الأمر الثاني: أقسام الخطابة

تنقسم الخطابة على أقسام متعددة، منها:

أولاً: الخطابة الحماسيّة، وغايتها

التحريض على القتال، وإثارة روح البسالة والإقدام، وتُلقى عادةً في ميادين القتال وسوح الوغى.

ثانياً: الخطابة السياسية، وغايتها تعريف الناس بحقوقهم السياسية والاجتماعية.

ثالثاً: الخطابة القضائية، ويُقصَد منها استدرار الشفقة والرأفة، كتلك التي يُلقيها ـ أحياناً ـ المحامون في المرافعات القضائية لاستدرار شفقة القضاة على المتّهمين؛ إمّا تخفيفاً من شدّة العقوبات الصادرة في حقّهم، أو تقليلاً من أهميّة الجرم وإثارة عواطف الرحمة.

رابعاً: الخطبة الدينية والأخلاقية، والغاية منها التعريف بالمفاهيم الدينية، وإثارة المشاعر الفطرية للناس[١٥].

المحور الثاني: محتوى الخطبة

تتكون الخطبة من أمرين، هما: المقدّمة والموضوع، وتفصيلهما كالآتي:

الأمر الأول: المقدّمة

فالبحث فيها من خلال النقاط الآتية:

النقطة الأُولى: في بيان وظيفة المقدّمة

إنّ وظيفة المقدّمة هي تهيئة الأذهان لموضوع الخطبة؛ لكي يستوعبه المستمع بشكل أفضل، ومن هنا تنبثق أهمّية المقدّمة وضرورة تغطيتها ومناسبتها للموضوع، فلو جاء الخطيب بمقدّمة لا تُبيِّن موضوع الخطبة بشكل واضح، ولا تُفيد السامع شيئاً عن الموضوع، فلا يمكن أن تكون مقدّمة صحيحة ومناسبة للموضوع.

وكذلك ينبغي أن تربط المقدّمة بين الموضوع وحاجة المستمعين، وأن تتضمّن تلخيصاً موجزاً للنقاط الرئيسة في الموضوع، كما لا بدّ أن تكون جذّابة ومشوّقة إلى الموضوع.

النقطة الثانية: كمّية المقدّمة

ينبغي أن لا تتجاوز المقدّمة نسبة الخمسة بالمائة من الوقت المخصص للموضوع؛ لأنّ دور المقدّمة يتلخّص في التمهيد للدخول في صلب الموضوع، وعلى هذا الأساس ينبغي الابتعاد عن الإطناب فيها على حساب وقت الموضوع الأصلي، فإن أطال الخطيب في المقدّمة، فسيوحي إلى المستمع بأنّه قد نسي موضوع البحث، أو أهمله.

النقطة الثالثة: ضرورة المقدّمة وعدمها

لا ريب في أنّ ضرورة الإتيان بمقدّمة موضوع الخطبة وعدم ذلك، يعتمد على ظروف عدّة مرتبطة بخصوصيات الخطبة، وعلى هذا الأساس فقد تكون المقدّمة ضرورية أو ليست ضرورية، وقد يكون الإتيان بها منافياً للبلاغة أو أنّ ذكرها معيب ومخلّ بالموضوع؛ وعلى هذا يكون الإتيان بالمقدّمة أو عدمه على ثلاث صور:

الصورة الأُولى: ضرورة الإتيان بالمقدّمة لأجل توضيح موضوع البحث، ففي حالة كون المستمع لا يتوصل إلى هدف الخطبة بشكل جيّد، فحينئذٍ يكون ذكر المقدّمة ضرورياً، كما لو أنّ الخطيب أراد أن يتحدّث حول تكامل الإنسان الاختياري، فقرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١٦]، وحينئذٍ عليه أن يمهّد لهذا الموضوع بمقدّمة، وهي: إنّ الإنسان له جنبتان، حيوانية وإنسانية، ففي الجنبة الحيوانية لا يختلف عن بقيّة الحيوانات؛ إذ تبدأ حياتها بالجبر وتنتهي به، فالحشرة ـ مثلاً ـ تدبّ فيها الحياة وتنتهي، ولكن ذلك ليس بإرادتها، وكذلك الإنسان يخلقه الله تعالى فيعيش مدّة من الزمن، ثمّ تنتهي حياته من دون أن تكون له

مدخلية في ذلك.

أمّا الجنبة الثانية، وهي الجنبة الإنسانية، فهي مرتبطة بإرادة الإنسان، فيستطيع أن يعيش إنساناً ويموت إنساناً، ويستطيع بإرادته أيضاً أن يصبح حيواناً ويعيش الحياة الحيوانية.

وبهذه المقدّمة يستطيع الخطيب إيضاح الحياة الإنسانية للمستمعين، وكيف أنّ الله تعالى حثّ الناس على الاستجابة لدعوته ودعوة رسوله بالآية المذكورة آنفاً.

الصورة الثانية: عدم ضرورة الإتيان بالمقدّمة، ولكن ذكرها لا يخلو من فائدة، من قبيل ما لو أراد الخطيب أن يتناول بحث الصوم، فمن الواضح أنّ بحث الصوم لا يستوجب ذكر مقدّمة، بل يمكنه الدخول في الموضوع مباشرةً، فيذكر بعض الروايات حول آثار وفوائد الصوم الدنيوية والأُخروية.

وكذلك يمكن أن يتناول بحث التقوى الوارد في الآية المتعلّقة بالصوم، من دون ذكر مقدّمة، فيأتي ببعض الروايات المتعلّقة بالتقوى ويستدل بها على أنّ الصوم هو أحد الطرق لتحصيل التقوى.

الصورة الثالثة: عدم ضرورة الإتيان بالمقدّمة، بل إنّ ذكرها مناف للبلاغة، من قبيل أن يطلب من الخطيب إلقاء كلمة قصيرة في موضوع ما، فالخطيب هنا لا يريد أن يتكلّم عن موضوع أو قضية خاصّة، فلا يحتاج إلى مقدّمة أو تمهيد، بل يمكنه أن يختار موضوعاً يتناسب مع حال المستمعين من دون حاجة إلى مقدّمة. إذاً؛ فالمقدّمة في هذه الصورة ليست ضرورية، بل إنّ ذكرها مناف للبلاغة.

وقد رُوي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه طلب من الإمام الحسن عليه السلام أن يُلقي خطبة، فقد قال له: «قم فاخطب؛ لأسمع كلامك. فقام فقال: الحمد لله الذي مَن تكلّم سمع كلامه، ومَن سكت علم ما في

نفسه، ومَن عاش فعليه رزقه، ومَن مات فإليه معاده. أمّا بعدُ، فإنّ القبور محلتنا، والقيامة موعدنا، والله عارضنا. أنّ عليّاً بابٌ، مَن دخله كان مؤمناً، ومَن خرج عنه كان كافراً»[١٧].

فالإمام الحسن عليه السلام دخل في موضوع الخطبة من دون مقدّمة؛ لأنّ الخطبة قصيرة لا تحتاج إلى مقدّمة.

وبهذا يتّضح أنّ الإتيان بالمقدّمة أو عدم الإتيان بها، يدور مدار الظروف المحيطة بالخطيب، والأوضاع الخاصّة بالمجلس، وأنّ على الخطيب أن يلحظ تلك الظروف ويُشخّص ما إذا كان مجلس الخطبة يحتاج إلى مقدّمة أو لا، وهل الإتيان بها ضروري أو لا؟

الأمر الثاني: الموضوع

والمراد به المضمون الذي تتناوله الخطبة، ويشترط فيه شروط عدة، منها:

١ـ أن يكون الهدف من الموضوع واضحاً

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «فكّر ثمّ تكلّم؛ تسلم من الزلل»[١٨]، وقال أيضاً: «قدّر ثمّ اقطع، وفكّر ثمّ انطق، وتبيّن ثمّ اعمل»[١٩].

يسجّل الإمام عليه السلام في هذين النصّين الشريفين ضرورة معرفة الخطيب بالأمر الذي يريد التحدّث عنه، وأن يكون الغرض والهدف من الحديث واضحاً عنده، فالخطيب كالخيّاط الذي بيده المقص، فلا بدّ أن يقدّر ويحدد المقياس المطلوب؛ لكي يكون القطع بقدر المطلوب.

لذا؛ على الخطيب أن يعرف على أي شيء يريد أن يحثّ الجمهور، وإلّا فلن يكون حديثه واضحاً بيّناً، ولا تترتب عليه الفائدة المرجوّة.

ومن الواضح أنّ أروع ما يرشدنا إليه الحديث المذكور آنفاً، هو ضرورة

أن يعرف الخطيب ماذا يريد أن يقول، وماذا سيورد من آيات وروايات وشواهد، ونحو ذلك، فإنّ كلّ ذلك يُعطيه الثقة بنفسه.

وفي ضوء ما سلف وتأسيساً عليه، ينبغي للخطيب أن لا يُصاب بالغرور حينما يجد نفسه قادراً على أن يتكلّم من دون توقف، فيتكلّم في كلّ ما يخطر بذهنه معتقداً أنّه فنّان ماهر وخطيب بارع، وقد غفل عن أنّ الخطبة التي لم يكن فيها الهدف واضحاً تكون خطبة جوفاء خالية من الفائدة.

يقول صاحب فنّ الخطابة: «لا يستطيع الإنسان أن يشعر بالارتياح حين يواجه مستمعيه، إلّا بعد أن يفكّر ملياً ويُخطط حديثه، ويعرف ما الذي سيقوله؛ لأنّه إن لم يفعل ذلك سيكون كالأعمى الذي يقود أعمى... كتب (تيدي روزفلت) في مذكراته: انتُخبتُ إلى المجلس التشريعي... وقد وجدت نفسي أصغر رجل في المجلس... وجدت صعوبة بالغة في تعلّم الخطابة، وقد استفدت كثيراً من نصيحة رجل ريفي عجوز... والنصيحة هي: لا تتكلّم حتّى تتأكد أنّ لديك ما تقوله، واعرف عمّا ستتحدّث، ثمّ قله واجلس»[٢٠].

ولكي يكون الموضوع واضحاً ومحدداً لا بدّ أن يكون موضوعاً واحداً من البداية إلى النهاية، فإنّ الخطيب الناجح هو الذي يتسلسل في خطبته، ولا يخرج عن الموضوع إلّا بمقدار الضرورة، فلا يكون مثل الطير الذي ينتقل من غصن لآخر، بل الخطابة بمنزلة الموجود الحيّ الذي له رأس وصدر وأيدي وأرجل؛ وعليه ينبغي التناسب بين الأعضاء.

وإذا استلزم الأمر الخروج عن الموضوع، كما في بعض الحالات التي تستلزم الخروج عن البحث لتطعيم المجلس ببعض الإثارات، أو الشواهد الداعمة للموضوع، فلا بدّ أن لا يؤثر

ذلك في تسلسل البحث بالشكل الذي يؤدي إلى ضياعه وغيابه عن أذهان المستمعين.

٢ـ الترتيب والتسلسل والترابط المنطقي بين الأفكار

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أحسن الكلام، ما زانه حسن النظام، وفَهِمَه الخاصّ والعامّ»[٢١].

في هذا النص الشريف تحتشد الدلالات للتأكيد على أنّ عناصر الكلام والخطاب بمنزلة المواد الإنشائية من الطابوق والحديد والإسمنت وغيرها لبناء البيت، فكل عنصر يجب أن يوضع في الموضع المخصص له، وهكذا الحال بالنسبة إلى الخطبة، فيجب أن تأخذ عناصرها المواضع المناسبة المتناسقة، بل على الخطيب أن يهذّب كلامه، ويرتّبه بتنسيق خاصّ، وترتيب متجانس[٢٢].

وهنالك فوائد أُخرى للتنظيم والتسلسل في الحديث، يمكن استفادتها من حديث الإمام عليه السلام المذكور آنفاً، منها:

أ ـ إنّ «نقص التنظيم يؤدي إلى عدم نجاح الحديث، حتّى إذا كانت الأفكار فعّالة، فقد يكون لدى المتحدّث موضوع شيّق وجمهور، ولكن تنقصه صياغة الحديث، فعندها سيفقد الحديث ترابطه؛ لأنّ هذا يشبه السقوط من على السلم بسبب عدم وجود درجة، وسيؤدي ذلك إلى تشتت الجمهور»[٢٣].

ب ـ إنّ الحديث إذا كان منظماً متسلسلاً منطقياً، فإنّ هذا يساعد الجمهور على التركيز وعدم تشتت الانتباه، وسوف يجد الخطيب تجاوباً ملموساً من قِبل الجمهور.

ج ـ التنظيم والتسلسل المنطقي للخطبة يساعد الخطيب على التخلّص من الحشو الزائد.

د ـ يساعد على اختيار أفضل

المعلومات التي تدعم الحديث.

هـ ـ يساهم في كشف الفجوات والأخطاء الموجودة في الخطبة.

و ـ يسهّل عملية الأداء بصورة أفضل؛ لأنّ الخطيب يستطيع أن يتصوّر الأفكار الرئيسة المهمّة في ذهنه، فيما إذا كان حديثه منظّماً ومتسلسلاً بصورة صحيحة.

ز ـ يمكّن الخطيب من تعديل الخطبة لتتناسب مع المواقف والاحتياجات المختلفة، فيمكن أن يختصر حديثاً يستغرق ثلاثين دقيقة، أو أكثر في حديث يستغرق عشر دقائق أو أقل؛ وذلك من خلال حذف بعض النقاط الأقل أهمّية من الخطبة.

٣ـ الحذر من الترتيب المعقد

ينبغي للخطيب تجنّب الترتيب المعقّد لمسائل موضوعه، كأن يخطط ـ مثلاً ـ لمناقشة مسائل متعددة، ثمّ يناقش جزئيات كلّ مسألة وما ورد فيها من أقوال وردود، فهذه طريقة خاطئة تسبب ضعف الحديث والخطبة، فضلاً عن أنّها تسبب العناء والتعب للجمهور الذي يتكوّن من مختلف الطبقات، ففي هذه الحالة ينبغي للخطيب أن يحدد المسائل المهمّة، من قبيل تحديد ثلاث أو أربع أفكار رئيسة ليناقشها؛ ولذا ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أحسن الكلام، ما لا تمجّه الآذان، ولا يُتعب فهمه الأفهام»[٢٤]، ومن الواضح أنّ الكلام الذي يفتقد للترتيب المنظّم مما تمجّه الآذان.

ونطوي هذه النقطة بقول صاحب كتاب (فنّ التحدّث)، الذي يُفصح عن عدد من الأساليب الأساسية التي تمّت تجربتها واتضح نجاحها، كما أنّها ليست مملّة بحسب قوله. وهذه الأساليب نستعرضها ضمن النقاط الآتية:

أ ـ الأُسلوب التسلسلي: بمعنى تقديم الأحداث وفق التسلسل الزماني.

ب ـ الأُسلوب التصنيفي: يأتي هذا الأُسلوب حينما لا يكون للموضوع تسلسل زماني، فيُقسّم الموضوع على شكل نقاط رئيسة.

ج ـ أُسلوب عرض المشكلة والحل: وفي هذا الأُسلوب يقوم الخطيب بعرض المشكلة وأسبابها، ثمّ يُبيّن كيفية معالجتها، ومعظم الخطب التي تستحوذ على اهتمام الجمهور هي الخطب التي تُلقى بهذا الأُسلوب.

وهذا الأُسلوب يتألف من عرض المشكلة وبيان سلبياتها، فيتعرّف الجمهور على المشكلة وضرورة معالجتها، وبعد ذلك يتطرّق الخطيب إلى بيان الحلول الممكنة لها، وينبغي ألّا تشتمل الخطبة على قائمة من الحلول والتوصيات المفصّلة والمطوّلة، بل ينبغي اختصار تلك الحلول والتوصيات باستخدام أفضلها.

د ـ أُسلوب المقارنة والتناقض: وفي هذا الأُسلوب يقوم الخطيب بجعل المستمعين قادرين على تقديم خطط وأفكار أُخرى؛ وذلك من خلال شدّ انتباههم للاختلافات والتشابهات بين الأمرين المقارنين، مثلاً: يقارن بين رأيين أو ظاهرتين وغير ذلك[٢٥].

وقد استخدم القرآن الكريم هذا الأُسلوب في مواضع عدّة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾[٢٦].

ولو انتقلنا إلى أحاديث أهل البيت عليهم السلام للمسنا التركيز نفسه على استعمال هذا الضرب من الخطاب، فعن الإمام الهادي عليه السلام في قوله للمتوكّل: «لا تطلب الصفا ممّن كدرت عليه، ولا النصح ممّن صرفت سوء ظنّك إليه، فإنّما قلب غيرك لك كقلبك له»[٢٧]. وهذا النص الشريف يلتقي في الدلالة مع نص آخر ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، يقارن فيه بين الأيّام كما في قوله: «مَن استوى يوماه

فهو مغبون»[٢٨]، فالإمام عليه السلام أجرى مقارنة بين أيّام عمر الإنسان؛ لأنّ الدنيا للإنسان بمنزلة سوق للتجارة، وعمر الإنسان بمنزلة رأس المال، والبضاعة التي يتاجر بها هي الإيمان والكفر، فعليه أن يستثمر عمره ـ الذي هو رأس ماله ـ في تجارة نافعة لن تبور، وأن يتزوّد من الفضائل ويبتعد عن البضاعة الرديئة، وهي هوى النفس[٢٩].

٤ـ التدليل والاستشهاد على الأفكار والآراء قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٣٠].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّما المستحفظون لدين الله هم الذين أقاموا الدين ونصروه، وحاطوه من جميع جوانبه، وحفظوه على عباد الله ورعوه»[٣١].

في هذه النصوص الشريفة وغيرها يلحظ التأكيد على ضرورة أن يكون المبلّغ لدين الله عالماً ومتسلطاً على ما يطرحه من أفكار ومفاهيم مرتبطة بالدين؛ ليُقنع بها الجمهور من خلال الأدلّة والبراهين.

ولا يخفى أنّ الخطبة تكون فاقدة لاهتمام الجمهور إذا لم تكن مدعومة بالأدلّة والشواهد والقصص والمصادر المشهورة، وغير ذلك ممّا يُساهم في جذب انتباه الجمهور.

ومن الجدير بالذكر أنّ على المبلغ مخاطبة عقول الجمهور ومشاعرهم، ولا يقتصر على مخاطبة العقول فقط؛ ولذا ينبغي له مراعاة ما يلي:

أـ تحديد الأفكار الرئيسة للخطبة، ثمّ دعم كلّ فكرة رئيسة بدليل عقلي، فيما لو كانت الفكرة التي يتحدّث عنها تحتاج إلى الأدلّة العقلية لإقناع

الجمهور، كما لو كان بصدد الردّ على الماديين الذين ينكرون الخالق.

أمّا في القضايا التي لا تحتاج إلى أدلة عقلية، فلا بدّ أن يأتي بالأدلّة النقلية كالنصوص القرآنية والروائية لإقناع الجمهور، ويمكن استخدام الطريقين معاً.

ب ـ على الخطيب أن لا يكتفي ببيان الأدلّة العقلية فقط، بل عليه أن يعمل على ترغيب الجمهور بالفكرة التي يطرحها؛ ولهذا نجد أنّ النبي ﷺ بدأ دعوته لإنقاذ الناس من الشرك بقوله: «يا أيّها الناس قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا»[٣٢]. فهذا النص الروائي يفصح عن ضرورة، وهي أن تكون الخطبة مشفوعة بترغيب الجمهور بالفكرة المطروحة، وعدم الاقتصار على بيان دليلها فقط.

إن قيل: إنّ المهم هو إقناع الجمهور بالفكرة من خلال إقامة الأدلّة، فليس من الضروري إيجاد الرغبة لدى الجمهور بالفكرة التي يتحدّث عنها الخطيب.

والجواب: إنّ الإنسان يمكن أن يقتنع بالفكرة من خلال الأدلّة التي يطرحها الخطيب، لكنّه لا يستطيع العمل وفق ما تمليه الأدلّة والبراهين؛ وذلك لوجود الموانع كالأهواء والميول؛ ولذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وكم من عقل أسير تحت هوى أمير»[٣٣]، فالإنسان يمكن أن يقتنع بالفكرة من خلال الأدلّة العقلية، لكن هوى النفس يمنع من الانصياع العملي للفكرة؛ لأنّ العقل أسير هوى النفس كما أشار عليه السلام إلى ذلك في الحديث المذكور آنفاً.

ج ـ استخدام القصص المؤثّرة؛ لأنّ القصة المؤثّرة أفضل من عرض كمّ هائل من الحقائق، وليس من الضروري أن تكون هذه القصص عجيبة ومدهشة، بل يمكن أن تكون من الحوادث المجتمعية المتعارفة، أو

من الحوادث التي جرت مع شخص الخطيب، وغير ذلك. «وعندما سُئل الشاعر أحمد شوقي: لماذا يكتب القصائد ذات الحكايات الخرافية؟ قال: لأنّ الأمثال وحدها بدون حكاية عبارة جافة سرعان ما تُنسى، كما أنّها لا تُثير الاهتمام، أمّا الحكاية فهي تستثير اهتمام الطفل لمتابعة حوادثها حتّى النهاية، وبالتالي لفهم العظة الأخلاقية التي هي هدف القصيدة ويقتنع بها»[٣٤].

ومن الجدير بالالتفات أنّ أهمّية القصة لا يعني أن تكون الخطبة عبارة عن سلسلة من القصص، بل يجب استخدام القصة وكذلك أدوات الدعم الأُخرى في تأكيد النقاط الرئيسة للخطبة، وليس في كلّ موضوع.

ولأجل تأكيد الصلة بين القصة والموضوع، يجب التأكيد على أنّ القصة وغيرها من أدوات الدعم لا بدّ أن تكون مرتبطة بالهدف من الخطبة؛ لأنّه من السهل أن يأتي بقصة معيّنة، لكن لا ربط لها بهدف الخطبة، وعليه فإنّها تتسبب في حدوث تشتت أفكار الجمهور.

٥ـ ألّا يكون موضوع الخطبة طويلاً مملاً، ولا قصيراً مخلاً

عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «آفة الكلام الإطالة»[٣٥]، وقال أيضاً عليه السلام: «مَن أطال الحديث فيما لا ينبغي فقد عرّض نفسه للملامة»[٣٦].

لا يخفى أنّ أحد العناصر الأساسية للبلاغة، هو أن يكون الخطيب محيطاً بالموضوع، وأن لا يُطيل الكلام فيه؛ ولذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حينما سُئل عن البلاغة، قوله: «إنّما سُمي البليغ بليغاً؛ لأنّه يبلغ حاجته بأهون سعيه»[٣٧].

وبهذا يتضح أنّ إطالة الكلام في الخطبة له مردودات سلبية على الجمهور، لا سيّما أنّ الإطالة في الكلام

فيما هو خارج عن موضوع البحث خلاف البلاغة؛ لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ثلاثة فيهن البلاغة: التقرب من معنى البُغية، والتبعّد من حشو الكلام، والدلالة بالقيل على الكثير»(٣٨).

والمراد من حشو الكلام كما عند بعض، هو أن يأتي بكلام خال من الفائدة، وذلك استهلاكاً واستنزافاً للوقت؛ ولذا نجد الإمام الحسين عليه السلام يحذّر من هذه الحالة، فيقول لابن عباس: «... ولا تكلّمن فيما يعنيك حتّى ترى للكلام موضعاً»(٣٩).

فالإمام عليه السلام يحذّر من الكلام النافع فيما لو لم يكن له مناسبة، فضلاً عن تحذيره من الكلام غير النافع، من قبيل أن يذكر في حديثه بعض المشاهد التي رآها أثناء سفره، التي لا تعود على المستمعين بالنفع والفائدة، كأن يصف الأنهار، والجبال، وغابات الأشجار، ونحو ذلك.

ومن الأُمور التي ينبغي تجنّبها هو الخروج عن الموضوع لأدنى مناسبة، فإنّ هذا يؤدي إلى إطالة الخطبة، فضلاً عمّا يسببه من تشتت أذهان الجمهور.

وما دمنا في هذه النقطة لا بأس بالإشارة إلى إضمامة من الأحاديث الشريفة في هذا المجال، التي تؤكّد على عدم الإطالة في الخطبة، ومن هذه الأحاديث ما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «الكلام كالدواء، قليله نافع وكثيره قاتل»(٤٠)، وعنه عليه السلام: «... واختصر من كلامك على ما استحسنته؛ فإنّه بك أجمل وعلى فضلك أدّل»(٤١)، وعنه عليه السلام: «إيّاك وكثرة الكلام؛ فإنّه يُكثر الزلل ويُورث الملل»(٤٢).

٦ـ الانتقال السلس بين فقرات الموضوع

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أحسن الكلام، ما زانه حسن النظام، وفَهمه الخاصّ والعامّ»(٤٣).

يؤكّد الإمام عليه السلام في هذا الحديث الشريف على أنّ الكلام الحسن أو الأحسن هو الذي يزينه حسن انتظامه، ومن الواضح أنّ من حسن انتظام الكلام هو أن يكون الانتقال بين فقرات الموضوع بشكل سلس، فكما أنّ الربط المنطقي بين فقرات الموضوع مهم جدّاً، كذلك الخروج بسلاسة من الفكرة والدخول في الفكرة التي تليها، فالخروج السلس من الفقرة السابقة بمنزلة علامة إرشادية للجمهور إلى الفكرة القادمة.

ويتحدّث صاحب كتاب (فنّ التحدّث) عن أنّ الأساليب الانتقالية من فكرة إلى أُخرى تعدّ من أكبر المشكلات التي يواجهها المتحدّثون[٤٤].

لذا؛ يجب على المتحدّث أن يجعل من أُولى مهامه عمل قائمة بالأفكار التي يُريد أن يتحدّث عنها، فعلى سبيل المثال: (الوالدين ـ الأولاد ـ الأرض الخراجية ـ التربية).

ففي هذه الحالة يكون الحديث بين الفقرة الأُولى والثانية سهل الانتقال، لكن الانتقال منه إلى الأرض الخراجية فيه صعوبة واضحة، فإذا لم يجد طريقة للانتقال، فهذا يعني أنّ هناك خطأ في التنظيم، وقد تكون فقرة الأرض الخراجية لا ربط لها بالموضوع، فيجب حذفها وإعادة تنظيم الحديث بشكل أسهل للانتقال بين فقراته.

وإليك بعض هذه الأساليب الانتقالية من فقرة إلى أُخرى[٤٥].

أـ كلمات الربط من قبيل أن يقول المتحدّث علاوةً على هذه النقطة توجد نقطة أُخرى، وهي... أو يقول: وفي نهاية هذه الفقرة ننتقل إلى فقرة أُخرى... أو يقول: لكي تتضح هذه النقطة نتحدّث عن كذا... أو يقول: يمكن تلخيص الموضوع بنقطة وهي... أو يقول: ومن ناحية أُخرى أنّ هناك... أو يقول: وهناك طريقة

أفضل... ونحوها من العبارات التي تهيئ ذهن الجمهور للانتقال إلى الفقرة اللاحقة.

ب ـ الانتقال من خلال إعادة تلخيص النقطة السابقة، كأن يقول: وخلاصة النقطة الأُولى هي... أمّا الثانية فكذا.

ج ـ الانتقال من خلال الأسئلة، كأن يقول: بعد أن عرفنا ما هي التقوى فعلينا أن نعرف ما هي الطرق لتحصيلها.

د ـ إذا لم تكن الأفكار متعددة في الموضوع، فيمكن الانتقال من فقرة إلى أُخرى بسهولة، من قبيل القول: إنّ هناك ثلاثة أعمال لزيادة الرزق، ثمّ يتحدّث عنها واحدة تلو الأُخرى.

ولا يخفى أنّ الأساليب الانتقالية هي بمنزلة خيوط الربط بين فقرات الموضوع وأجزائه، وتساعد الجمهور على معرفة ما يريد المتحدّث.

٧ـ تجنّب الخوض فيما لا يعلم

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «مَن وقف عند قدره أكرمه الناس»[٤٦]، يؤكّد هذا النص الشريف ـ وما يشاركه في المضمون ذاته ـ على مسألة في غاية الأهمّية، وهي أنّ الخطيب يجب عليه البحث في الموضوع المسلّط عليه، الذي له وعي ودراية به، وأن يكون على دراية بمستواه العلمي بشكل واضح، لكي لا يكون مغروراً ومتخطياً لحدوده وصلاحيته العلمية.

وقد كانت هذه المسألة محطّ اهتمام أهل البيت عليهم السلام في وصاياهم لشيعتهم، فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «هلك امرؤ لم يعرف قدره»[٤٧]، حيث تُشير هذه الوصايا إلى خطورة التكلّم بما لا علم له.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «للعالم إذا سُئل عن شيء وهو لا يعلمه، أن يقول: الله أعلم، وليس لغير العالم أن يقول ذلك»[٤٨]، ففي هذا الرواية

يحدد الملاك والضابطة في الحديث، وهي أنّ الإنسان حتّى لو كان قد درس شيئاً من العلوم، لكن عليه أن لا يتخطّى حدوده في المسائل التي لم يقف عليها، فالخطيب إذا تناول مسائل لا علم له بها، فسيكون ذلك أحد أسباب ضياع الهيبة والوقار وفقدان الثقة فيه والنفور منه؛ لذا يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[٤٩].

وهنالك عدد من الروايات تؤكّد على لزوم الوقوف عند حدّ العلم، منها: ما ورد عن زرارة، قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام: ما حقّ الله على العباد؟ قال: أن يقولوا ما يعلمون، ويقفوا عند ما لا يعلمون»[٥٠].

«والمراد: أنّ الحقيق بهذا الاسم الاقتصار على القول بما يعلمه، والوقوف عن القول بما لا يعلمه، كما في قوله تعالى حكاية عن قول موسى عليه السلام: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾[٥١]، والقول في العلوم الدينية عند عدم العلم قول على الله بغير الحقّ؛ فإنّ القول دال على اعتقاد القائل وعِلمه بالمقول، وكلّ قول في العلوم الدينية قول على الله، فالقول فيها من غير العالم قول على الله بغير الحقّ من حيث عدم مطابقته لما عليه الأمر في نفسه، أو من حيث عدم معلوميّته له وإن طابق اتّفاقاً، فمن حقّ الله على العباد أن يقفوا عن القول عندما لا يعلمون، وأن يقتصروا على القول بالحقّ فيها»[٥٢].

وعن أبي بصير قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: يرد علينا أشياء ليس نعرفها في كتاب ولا سنّة فننظر فيها؟ قال: لا، أما إنّك إن أصبت لم تؤجر، وإن أخطأت كذبت على الله»[٥٣].

وقد تقدّم في نقطة سابقة ضرورة التدليل والاستشهاد على صحة الآراء المطروحة ممّا يدعم هذه النقطة أيضاً.

٨ـ أن لا يتكلّم بكل ما يسمع

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «... ولا تحدّث الناس بكل ما سمعت، فكفى بذلك كذباً، ولا ترد على الناس كلّ ما حدّثوك به فكفى بذلك جهلاً»(٥٤).

يُشير هذا الحديث وما يشاركه في المضمون نفسه، إلى أنّ الخطيب يجب أن يتجنب التحدّث عن كلّ شيء يسمع؛ لأنّ مثل هذه المسموعات لا تخلو من الكذب، فعلى الخطيب أن يتأكّد من نقل المعلومة من مصادرها الصحيحة ولا يعتمد على سماعها من غيره.

وكذلك ينبغي على الخطيب أن يتجنب الحديث في الأُمور التي لا تصدّق بسهولة؛ لأنّ هذا يجعله عرضه للاتهام، وهذا ما يُشير إليه الإمام موسى الكاظم عليه السلام بقوله لهشام: «يا هشام، إنّ العاقل لا يحدّث مَن يخاف تكذيبه»(٥٥)، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «مَن طال لسانه وحسن بيانه، فليترك التحدّث بغرائب ما سمع، فإنّ الحسد لحسن ما يظهر منه يحمل أكثر الناس على تكذيبه»(٥٦)، بمعنى أنّ واحدة من السبل التي يستخدمها الحسّاد لضرب الخطيب البارع، هو ما ينقله من غرائب المسموعات التي عادةً ما يكذّبها الناس.

ومن هنا يتضح أنّه لا بدّ للخطيب أن يتحدّث مع الجمهور بما يعرفون؛ لذا ينبغي الحذر من خوض الخطيب في دقائق العلوم والمعارف والخلافات والعلوم التجريبية البحتة، ممّا لا تدركه أفهام عموم المستمعين؛ الأمر الذي يكون له الأثر الكبير في الانصراف عن الخطيب أو الاستهانة به وبموضوعه.

٩ـ ملاءمة موضوع الخطبة لاحتياج الجمهور

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «كن كالطبيب الرفيق الذي يدع الدواء

بحيث ينفع»[٥٧].

يُشير الحديث المبارك ـ بعمومه ـ إلى نقطة أساسية في الخطبة، وهي أن يقع مضمونها ضمن اهتمام الجمهور واحتياجاته، فإنّ تشبيه الإمام عليه السلام المتكلم بالطبيب، يُشير إلى أنّ الخطيب ينبغي له أن يشخّص حاجة الجمهور؛ لكي يكون كلامه نافعاً، كالدواء إذا وضِع في موضعه الصحيح.

إذاً؛ من النقاط الأساسية التي تساهم في كسب الجمهور، هي التحدّث بالأُمور التي يهتمّ بها الناس، فإذا كان الحديث يتناسب مع احتياجاتهم فهم يضطرون إلى الانصات والاستماع إليه، وهذا ما يؤكّده الإمام علي عليه السلام في وصف النبي صلى الله عليه وآله، فقد قال: «طبيب دوّار بطبّه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة إليه، من قلوب عمي، وآذان صمّ، وألسنة بُكم، مُتتبّع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة»[٥٨].

١٠ـ مراعاة عادات الناس وأعرافهم

لكل مقام مقال، ولكل جماعة أو قوم لسان، ومن الواضح أنّ الحديث المتوجّه إلى الفقراء ليس كالحديث المتوجّه إلى الأغنياء، وحديث العامّة يختلف عن حديث الخاصّة، والخطاب الموجّه إلى المثقفين ليس كالخطاب الموجّه إلى الأُميين، والخطاب في حالة الخوف والشدّة غير الخطاب في حالة الأمن والرخاء، والحديث مع المتحمّسين يختلف عن الحديث مع غير المتحمّسين، والخطيب الجيّد هو الذي يعرف مستوى السامعين وأحوالهم؛ لذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تتكلّمنّ إذا لم تجد للكلام موقعاً»[٥٩].

وكذلك لكل جماعة من الناس بعض الأعراف والعادات التي تسودها وتحكمها وتسيطر عليها،

ولهذه العادات سلطان وسيطرة على القلوب، وعلى هذا الأساس فإنّ غفلة الخطيب عن مراعاة ذلك من أعظم أسباب فشله.

وقيل للأحنف بن قيس ـ وهو من أبلغ البلغاء والخطباء ـ: «بِمَ سدت قومك أنت ولست بأتمهم ولا أشرفهم؟ فقال: إنّي لا أتناول ـ أو قال: لا أتكلف ـ ما كفيت، ولا أضيع ما وليت، ولو أنّ الناس كرهوا شرب الماء ما طعمته»[٦٠]، وهذا يعني ضرورة الاهتمام بالأعراف والعادات.

المحور الثالث: كيفية إعداد موضوع الخطابة

وتتضح كيفية إعداد الموضوع من خلال اتّباع الخطوات الآتية:

الخطوة الأُولى: تحديد موضوع الخطبة

قيل للإمام الصادق عليه السلام: ما البلاغة؟ فقال عليه السلام: «مَن عرف شيئاً قلّ كلامه فيه، وإنّما سُمّيَ البليغ؛ لأنّه يبلغ حاجته بأهون سعيه»[٦١].

أشار الإمام عليه السلام في فقرة «مَن عرف شيئاً» إلى أنّ مَن عرف وحدّد الموضوع الذي يتكلّم فيه، فحينئذٍ يقلّ كلامه، ويكون كلامه مطابقاً للبلاغة، ومن هنا تتضح ضرورة تحديد الخطيب للموضوع الذي يريد التحدّث عنه في خطبته، ومن الواضح أنّ الأفضل للخطيب أن يحدّد موضوع الخطبة قبل إلقائها بعدّة أيّام؛ لكي يتسنى له التفكير به مراراً، فالخطيب الجيّد هو الذي يجعل موضوعه محطّ اهتمامه في ذهابه ومجيئه، وأثناء تناوله الطعام، وفي طريقه إلى بيته، ويناقشه مع أصدقائه، ويسأل نفسه الأسئلة الممكنة التي ترتبط بالموضوع، فلو كنت تريد أن تتحدّث عن الطلاق، فسلْ نفسك: ما أسباب الطلاق؟ وما آثاره السلبية؟[٦٢] وهل

يمكن علاج هذه الظاهرة، أو على الأقل التقليل منها؟ ونحوها من الأسئلة.

الخطوة الثانية: جمع المعلومات الكافية

قال رسول الله ﷺ ـ لابن مسعود ـ: «يابن مسعود، لا تتكلّم بالعلم إلّا بشيء سمعته ورأيته؛ فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾»[٦٣].

ينبغي للخطيب أن يجمع معلومات كافية حول الموضوع، وألّا يكون مصداقاً للذين يتكلّمون بغير علم، الأمر الذي نُهي عنه في الكتاب والسنّة كما في الحديث المتقدّم وغيره من الأحاديث المتضافرة[٦٤].

ولا يخفى أنّ عملية البحث والإحاطة بالموضوع في الوقت الحاضر أصحبت يسيرة جدّاً، ويمكن الوصول إلى المعلومة بسهولة؛ وذلك من خلال شبكة الأنترنت أو المكتبات العامّة.

وعلى الخطيب أن يجمع الأفكار المرتبطة بالموضوع، ثمّ ينتقي المعلومات المناسبة لموضوعه وللجمهور، ويحذف الحقائق غير المرتبطة بالموضوع وإن كانت حقائق مهمّة؛ وذلك لأنّ مهمّته ليست التوسّع والإسهاب، بل بيان ما يرتبط بالموضوع.

ومن الواضح أنّ عملية البحث تزوّد الباحث بمعلومات احتياطية يمكن استخدامها في مواضيع أُخرى فضلاً عمّا يكتسبه من خبرة عن الموضوع؛ ولذا يقال: إنّ النحلة تمتصّ مليون زهرة حتّى تعطينا مائة غرام من العسل.

ومن الجدير بالذكر أنّه يجب أن تكون المعلومات حول الموضوع صحيحة ومن مصادر موثّقة، وعلى الخطيب أن يترك الأفكار التي لا تتناسب مع الموضوع، وكذلك عليه

إعادة صياغة الأفكار الصعبة مشفوعة ببعض التعليقات والتوضيحات.

ينقل صاحب كتاب فنّ الخطابة تجربة بعض الخطباء الغرب المشهورين، حينما سئل كيف حضّر خطبته التي جعلته مشهوراً عبر التاريخ؟ «قال مجيباً عن هذا السؤال: ليس لدي أيّ سرٍّ، حين أختار موضوعاً أكتب اسمه على مغلف كبير، فإذا وجدت أثناء القراءة شيئاً جيّداً حول الموضوع الذي سأتحدث عنه، أنقله إلى المغلف الصحيح وأضعه جانباً، ودائماً أحمل معي دفتر ملاحظات، أسجلها، ثمّ أنقلها إلى المغلف، وربما تركته جانباً لمدّة سنة أو أكثر، وحين أريد أن ألقي خطبة، أتناول ما أكون قد جمعته، فأجد مادةً كافيةً ممّا أجده هناك إضافة إلى أُسلوبي الخاصّ»[٦٥].

ومن الأُمور المهمّة التي ينبغي الالتفات إليها، هو أنّ التحضير الجيّد والصحيح لا يعني جمع بعض الأفكار والمعلومات فقط، بل ـ مضافاً إلى جمع المعلومات ـ لا بدّ من التفكير والاستنتاج والتذكر واختيار المفيد، وجمعه وصقله وصياغته صياغة فنية جميلة[٦٦].

ولاشك في أنّ هذا العمل يحتاج إلى التركيز والتفكير الهادف، فيجب كتابة الأفكار والمعلومات حول الموضوع، ثمّ القيام بعملية فكرية، وهذه العملية الفكرية هي الوسيلة التي تدفع العقل للنمو لكي يصبح قوة منتجة.

الخطوة الثالثة: عمل مخطط للخطبة

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أحسن الكلام، ما زانه حسن النظام، وفَهمه الخاصّ والعامّ»[٦٧].

يتضح من خلال هذا الحديث وجوب وضع عناصر الخطبة في المواضع المناسبة المتناسقة، بل على

الخطيب أن يهذّب كلامه، ويرتّبه بتنسيق خاصّ، وترتيب متناسق ومتجانس؛ والغاية من ذلك هي أن يكون الخطيب متمكناً من موضوعه، مسيطراً على أداء الكلمات وتركيب الجمل، ولا يكون عرضة للنسيان أثناء إلقاء الخطاب؛ لأنّ بعضاً قد يتوهّم أنّه ملمّ ومسلّط على الموضوع، لكن في الواقع هو ليس كذلك؛ لذلك من العوامل المساعدة في هذا المجال هو إعمال مخطّط لموضوع الخطبة ليسهل عليه حفظه، والتمرين المتكرر، لا سيّما أنّ إلقاء الخطب في المجالس الكبيرة تختلف عن المجالس الصغيرة، وذلك من قبيل السباحة في الأنهار الكبيرة والبحار، تختلف عن السباحة في الأحواض الصغيرة؛ لذا ينبغي لمَن ينوي ارتقاء المنبر في المجالس الكبيرة أن يتمرّن كثيراً. أمّا مَن أوحى لنفسه إيحاء كاذباً بالقدرة على السباحة في الأنهار الكبيرة، فهذا كمَن رمى بنفسه في البحر، وسيكون عرضة للموت أو الخطر، كذلك الأمر في الخطابة، فمَن أوحى لنفسه بأنّه قادر على الخطابة إيحاء كاذباً، فمن الطبيعي أنّه يتعرّض للفشل والانهيار، وهذا ما يشير إليه الإمام الباقر عليه السلام بقوله: «وإيّاك والرجاء الكاذب، فإنّه يوقعك في الخوف الصادق»[٦٨].

يقول ديل كارنيجي: «يجب أن يكون الخطيب سيّد موضوعه، ويعني هذا أن تجمع الحقائق وتنسّقها وتدرسها وتفهمها، وليس من ناحية واحدة، بل من جميع النواحي، كما يجب التأكد من أنّها حقائق وليست مجرد افتراضات أو تأكيدات غير مبرهن عليها، وبعد أن تجمع وتُنظّم حقائق أيّ موضوع، فكّر في الحلّ الذي تستلزمه هذه الحقائق، فيكتسب خطابك جدّة وقوة، ويكون حيوياً ومؤثراً، بعدئذٍ اكتب أفكارك بأقصى ما يمكنك من الوضوح والمنطق. بمعنى آخر: قدّم الحقائق من

كلا الجانبين، ثمّ قدّم النتيجة التي توضّحها تلك الحقائق وتحديدها»[٦٩].

المحور الرابع: ملاحظات أُخرى حول الخطبة والخطيب

ينبغي للخطيب مراعاة الأُمور الآتية:

١ـ إيصال المطالب والمفاهيم بطريقة يسيرة

قال رسول الله ﷺ: «إنّ من البيان لسحراً»[٧٠]، و «البيان: الكشف عن الشيء، وهو أعمّ من النطق؛ لأنّ النطق مختصّ بالإنسان، ويُسمّى ما بيّن به بياناً»[٧١].

من العناصر الأساسية في الخطابة هي قدرة الخطيب على إيصال المطالب والمفاهيم بطريقة سهلة ويسيرة، لا سيّما في البحوث العميقة والمعقّدة، فإنّ إيصال الموضوع ببيان واضح ويسير يكون له الأثر البالغ في النفوس، بخلاف البيان المعقّد، وهذا ما أشار إليه الحديث المذكور آنفاً، الذي شبّه البيان بالسحر، ووجه الشبه فيه هو قوّة التأثير، فيقال: سحر الكلام؛ لما له من تأثير عميق في نفوس سامعيه.

ولذا؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٧٢]، و «التيسير: التسهيل، وتيسير القرآن للذكر هو إلقاؤه على نحو يسهل فهم مقاصده للعامي والخاصّي، والأفهام البسيطة والمتعمّقة كلّ على مقدار فهمه»[٧٣].

ومن الأُمور الداعمة للموضوع والتي تُساهم في إيصال المطالب والأفكار العميقة إلى السامعين، هو التطرّق إلى القصص والأشعار ونحوها. فعلى الخطيب أن يبذل جهداً كبيراً في تحصيل تلك الأُمور التي تدعم حديثه وتضيف إليه حيوية؛ لكي لا يكون مملاً وصعباً[٧٤].

٢ـ تجنّب الكلمات المستهجنة

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إيّاك وما يُستهجن من الكلام؛ فإنّه يحبس عليك اللئام وينفّر عنك الكرام»(٧٥).

ينبغي للخطيب أن يبتعد عن استخدام المفردات القبيحة والمستهجنة، ولو استدعت الضرورة ذلك فعليه أن يتناولها من طريق الكناية والمجاز.

٣ـ أن يطرح الموضوع بشكل لافت لانتباه السامعين

قال الإمام الحسين عليه السلام: «مالُك إن لم يكن لك كنت له، فلا تبقِ عليه فإنّه لا يُبقي عليك، وكُله قبل أن يأكلك»(٧٦).

والملاحظ في هذا الحديث الشريف أنّ الإمام عليه السلام طرح الموضوع بشكل مثير ولافت لانتباه السامعين والمتلقّين، فقد يتبادر إلى ذهن السامع سؤال وهو: إذا أنا أملك أموالي، فكيف أصبح مملوكاً لها؟ وإذا أنا قادر على أكل أموالي، فكيف يستطيع المال أن يأكلني؟

ولا نريد الخوض في معنى الحديث، إلّا أنّ المستفاد منه في المقام أهمّية طرح الموضوع بالشكل الذي يترك آثاراً في أعماق المتلقّين والمستمعين.

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «أيّكم مال وارثه أحبّ إليه من ماله؟ قالوا: ما فينا أحد يحبّ ذلك يا نبي الله. قال: بحسبكم، بل كلكم يحب ذلك. ثمّ قال: يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت، وما عدا ذلك فهو مال الوارث»(٧٧).

فنجد أنّ الرسول صلى الله عليه وآله بدأ الحديث بطرح سؤال على الحاضرين، وكان الجواب على خلاف توقعاتهم، ولم يلتفت إليه أحد، وبعد ذلك بيّن صلى الله عليه وآله

كيف أنّ الإنسان يحبّ مال الوارث أكثر من ماله، فقد أوضح ﷺ في هذه المقولة حقيقة غائبة عن الإنسان بطريقة لافتة لكل الحاضرين، وهي أنّه ينبغي للإنسان أن يسارع في الخيرات بماله؛ لكي يهيئ زاده في الآخرة.

وهذه الطريقة تساهم في شدّ انتباه المستمع لهذا الحديث بنحو أفضل ممّا لو طُرحت هذه المسألة بشكل طبيعي، كما لو قال ﷺ ـ مثلاً ـ: اعملوا لأنفسكم قبل أن تفارقوا الدنيا، وتنتقل أموالكم إلى الورثة، فلم يكن لهذا الطرح الطبيعي والبسيط أثراً في أعماق الناس كما في الطريقة التي تحدّث بها ﷺ على شكل سؤال وجواب.

وهذا الأُسلوب في الحديث يترك آثاراً في أعماق المستمعين ويظل محفوراً في أذهانهم لا ينسى.

الخاتمة

لقد وقف البحث على جملة من النتائج، أهمّها:

١ــ إنّ الخطابة هي فنّ مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة.

٢ـ للخطابة أقسام متعددة، منها: الخطابة الحماسية، الخطابة السياسية، الخطابة القضائية، الخطابة الدينية، والخطابة الأخلاقية.

٣ـ يتكوّن محتوى الخطبة من أُمور عدّة، منها: المقدمة، ووظيفتها تهيئة الأذهان لموضوع الخطبة؛ لكي يستوعبه المستمع بشكل أفضل، كما ينبغي أن تكون المقدّمة متضمّنة موجزاً وتلخيصاً للنقاط الرئيسة في البحث، وأن لا تتجاوز نسبة الخمسة بالمائة من الوقت المخصص للموضوع، أمّا ضرورة الإتيان بالمقدّمة أو عدمه فيعتمد على ظروف عدّة مرتبطة بخصوصيات الخطبة.

٤ــ كذلك تتكوّن الخطبة من الموضوع الذي يُشترط فيه شرائط

متعددة، منها: أن يكون الهدف من الموضوع واضحاً وموحّداً، وأن تكون أجزاؤه مترابطة ومنسجمة.

٥ـ ينبغي أن تتضمّن الخطبة أُموراً تهمّ المستمعين، وألّا تكون طويلة مملة ولا قصيرة مخلّة، وأن يكون الانتقال بين فقرات الموضوع سلساً وسهلاً، كما أنّ على الخطيب ألّا يخوض في المسائل التي لا علم له بها.

٦ـ من أساليب عرض الموضوع: الأُسلوب التسلسلي، والأُسلوب التصنيفي، وأُسلوب عرض المشكلة والحل، وأُسلوب المقارنة والتناقض.

٧ـ ينبغي استخدام الكلمات والعبارات الواضحة التي يفهمها عامّة الجمهور، وتجنّب الألفاظ المعقّدة وغير المألوفة، والابتعاد عن الكلمات المستهجنة، وأن يكون طرح الموضوع بشكل لافت لانتباه السامعين.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. الأمالي، محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسّسة البعثة، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٤هـ.

٢. بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، تحقيق: السيّد إبراهيم الميانجي، ومحمد الباقر البهبودي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة المصححة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣. البيان وفنّ الخطابة، محمد تقي فلسفي، مؤسّسة البعثة، بيروت، الطبعة الأُولى.

٤. تحف العقول عن آل الرسول، الحسن بن علي بن شعبة الحرّاني، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٣٦٣ش.

٥. التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن حمدون، تحقيق: إحسان عبّاس، وبكر عبّاس، دار صادر للطباعة والنشر، الطبعة الأُولى، ١٩٩٦م.

٦. الحاشية على أُصول الكافي، محمد بن حيدر النائيني، تحقيق: محمد حسين الدرايتي، دار الحديث للطباعة والنشر، الطبعة الأُولى، ١٤٢٤هـ/ ١٣٨٢ش.

٧. خطب الإمام علي عليه السلام، شرح: الشيخ محمد عبده، دار الذخائر، قم ـ إيران، الطبعة الأُولى، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠ش.
٨. روح المعاني، محمود بن عبد الله الآلوسي.
٩. شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسّسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع.
١٠. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، تقديم: عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠ م.
١١. عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، الطبعة الأُولى.
١٢. غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد بن محمد الآمدي التميمي، مكتب الإعلام الإسلامي، قم.
١٣. فنّ التحدّث مع الآخرين بلباقة، مركز تدريب دمشق، دار الفاروق للطباعة والنشر، دمشق.
١٤. فنّ الخطابة، ديل كارنيجي، الطبعة الأُولى، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠١م.
١٥. الفوائد الطوسية، محمد بن الحسن المعروف بـ (الحرّ العاملي)، علّق عليه وصححه: السيّد مهدي اللازوردي، والشيخ محمد درودي.
١٦. الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الخامسة، ١٣٦٣ش.
١٧. كشف الغمّة، علي بن أبي الفتح الإربلي، نشر دار الأضواء، بيروت ـ لبنان.
١٨. كنز الفوائد، أبو الفتح الكراجكي، مكتبة المصطفوي، الطبعة الثانية، ١٣٦٩ش.
١٩. المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد البرقي، تصحيح وتعليق: السيّد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٧٠هـ/ ١٣٣٠ش.
٢٠. مستدرك سفينة البحار، علي الشاهرودي النمازي، تحقيق وتصحيح: الشيخ حسن ابن علي النمازي، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، ١٤١٩هـ.
٢١. مَن لا يحضره الفقيه، محمد بن علي المعروف بـ (الصدوق)، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، الطبعة الثانية.

الهوامش:

[١] ص: آية ٢٠.

[٢] إبراهيم: آية٤.

[٣] عطية محمد سالم، أُصول الخطابة والإنشاء، على الموقع: https: //www. alukah. net /. /٣٨٢٤/ ٠/ sharia/

[٤] القصص: آية٨٤.

[٥] أُنظر: الآلوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني: ج٢٠، ص٧٧.

[٦] الزمر: آية٢٣.

[٧] ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج١، ص٣٦١.

[٨] أُنظر: ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة: ج٢، ص١٩٨.

[٩] ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج١، ص٣٦١.

[١٠] طاليس، أرسطو، الخطابة: ص٢٩.

[١١] أبو زهرة، محمد، الخطابة أُصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب: ص١٩.

[١٢] أُنظر: المصدر السابق: ص٢.

[١٣] شلبي، عبد الجليل عبده، الخطابة وإعداد الخطيب: ص١٥.

[١٤] أُنظر: المصدر السابق: ص١٥ـ١٦. وأيضاً: فاروق سعد، فنّ الإلقاء العربي الخطابي والتمثيلي: ص٢٨.

[١٥] أُنظر: الريشهري، محمد، التبليغ في الكتاب والسنة: هامش ص١٥٠.

[١٦] الأنفال: آية٢٤.

[١٧] الإربلي، علي بن أبي الفتح، كشف الغمّة: ج٢، ص١٩٥.

[١٨] الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص٣٥٩.

[١٩] المصدر السابق: ص٣٧١.

[٢٠] كارنيجي، ديل، فنّ الخطابة: ص١٩ ـ ٢٠.

[٢١] الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص١٢٤.

[٢٢] أُنظر: فلسفي، محمد تقي، البيان وفنّ الخطابة: ص٢١٢.

[٢٣] مركز تدريب دمشق، فنّ التحدّث مع الآخرين: ص٥٥.

[٢٤] الريشهري، محمد، ميزان الحكمة: ج١، ص٢٩٠.

[٢٥] أُنظر: مركز تدريب دمشق، فنّ التحدث مع الآخرين: ص٥٩. وأيضاً: فلسفي، محمد تقي، البيان وفنّ الخطابة: ص٢٠٩.
[٢٦] الرعد: آية١٦.
[٢٧] النمازي، علي، مستدرك سفينة النجاة: ج٨، ص٥٦٩.
[٢٨] الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص٣٤٢.
[٢٩] أُنظر: فلسفي، محمد تقي، البيان وفنّ الخطابة: ص٢١٢.
[٣٠] التوبة: آية١٢٢.
[٣١] الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص١٧٩ـ١٨٠.
[٣٢] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٠٢.
[٣٣] عبده، محمد، شرح نهج البلاغة: ج٤، ص٤٨.
[٣٤] كارنيجي، ديل، فنّ الخطابة: ص١٤٢.
[٣٥] الريشهري، محمد، ميزان الحكمة: ج١، ص٨٥.
[٣٦] ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص٣١٧.
[٣٧] الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، الفوائد الطوسية: ص١٨٢.
[٣٨] ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص٣١٧.
[٣٩] أبو الفتح، محمد بن علي، كنز الفوائد: ص١٩٤.
[٤٠] الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص٦٧.
[٤١] المصدر السابق: ص١٠٠.
[٤٢] المصدر السابق: ص٩٧.
[٤٣]المصدر السابق: ص١٢٤.
[٤٤] مركز تدريب دمشق، فنّ التحدّث مع الآخرين: ص٢٢.
[٤٥] أُنظر: المصدر السابق: ص٢٣.
[٤٦] الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص٤٦٠.
[٤٧] عبده، محمد، شرح نهج البلاغة: ج٤، ص٣٨.
[٤٨] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج١، ص٢٤.
[٤٩] الإسراء: آية٣٦.
[٥٠] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج١، ص٤٣.
[٥١] الأعراف: آية١٠٥.

[٥٢] النائيني، محمد بن حيدر، الحاشية على أُصول الكافي: ص١٣٥ـ ١٣٦.
[٥٣] البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن: ص١٨١.
[٥٤] عبده، محمد، شرح نهج البلاغة: ج٣، ص١٢٩.
[٥٥] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج١، ص٢٠.
[٥٦] ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج٢٠، ص٣٣٦.
[٥٧] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٢، ص٥٣.
[٥٨] عبده، محمد، شرح نهج البلاغة: ج١، ص٢٠٧.
[٥٩] الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص٥٢٢.
[٦٠] البيهقي، أحمد، شعب الإيمان: ج٥، ص٣٢٣.
[٦١] ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص٣٥٩.
[٦٢] أُنظر: كارنيجي، ديل، فنّ الخطابة، ص٣٤.
[٦٣] الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق: ص٤٥٥.
[٦٤] الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص٥٢٢.
[٦٥] كارنيجي، ديل، فنّ الخطابة: ص٢٨.
[٦٦] أُنظر: المصدر السابق.
[٦٧] الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص١٢٤.
[٦٨] ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص٢٨٥.
[٦٩] كارنيجي، ديل، فنّ الخطابة: ص٤٦.
[٧٠] الراوندي، فضل الله، النوادر: ص١٥٥.
[٧١] الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص١٥٧.
[٧٢] القمر: آية١٧.
[٧٣] الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان: ج١٩، ص٦٩.
[٧٤] أُنظر: مركز تدريب دمشق، فنّ التحدّث مع الآخرين: ص٣٤.
[٧٥] الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص٩٩.
[٧٦] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٦٨، ص٣٥٧.
[٧٧] الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص٥١٩.

الشيخ صباح عبّاس الساعدي
باحث اسلامي/ حوزة النجف الأشرف

الحضور القرآني في بيانات الإمام الحسين عليه السلام

نتناول في هذا المدخل التمهيدي جانباً من الجوانب المهمة التي لها علاقة وثيقة بواقعة الطف، وهو ما يرتبط بالأبعاد القرآنية في بيانات الإمام الحسين عليه السلام، متناولين فيه الآيات القرآنية التي وُظّفت من قِبله عليه السلام في خطاباته الصادرة إبان نهضته المباركة، وقد اخترنا من ذلك موضوع (الحضور القرآني في بياناته عليه السلام)؛ ليكون مدخلاً رئيساً ومهماً إلى مجموعة من المواضيع التي سنتناولها في سلسلة متراتبة حول الأبعاد القرآنية التي وردت في بياناته عليه السلام، ومدى ارتباطها بالحدث الذي أدَّى إلى استشهاده عليه السلام، بعد استشهاد جميع مَن كان معه من أهل بيته وأصحابه؛ إذ نؤمن بضرورة البحث عن علاقة الآيات التي قرأها الإمام الحسين عليه السلام وقام بتطبيقها على نفسه من جهة، وأيضاً مدى توافق تلك الآيات مع المضامين الواردة في الزيارات التي صدرت عن الأئمّة عليهم السلام في حق الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه الذين استُشهدوا في واقعة الطف في بحث مستقل آخر، ثمّ تناول العلاقة بين الآيات التي قرأها في حق أهل بيته وأصحابه

ومدى علاقتها بهؤلاء الشهداء الكرام الأبرار، وكذا البحث حول مدى انطباق بعض الآيات التي استشهد بها عليه السلام على المخاطَبين الذين حضروا في الجبهة المعادية من جهة أُخرى، وقد أفردنا لكل موضوع من المواضيع المتقدّمة بحثاً مستقلاً نطمح أن يتم نشره في أعداد مجلّة الإصلاح الحسيني ضمن سلسة بحوث[1].

السابقة الدراسية

قبل الدخول في البحث حول الحضور القرآني في بيانات الإمام الحسين عليه السلام نود أن نشير إلى السابقة الدراسية حول الآيات القرآنية، أو محورية القرآن والمساحة التي تشغلها في واقعة الطف، أو الآيات التي تناولها العلماء والباحثون في كتبهم وبحوثهم التي سُلّط الضوء فيها للنظر في العلاقة بين الإمام الحسين عليه السلام والقرآن الكريم، لمعرفة هل أنّ هناك من البحوث والدراسات ما تلتقي مع الدراسة التي يسعى الباحث لتناولها في هذه السلسلة المذكورة آنفاً.

وفي حدود اطّلاعنا ـ وبعد التتبع والمسح الميداني ـ فقد وقفنا على مجموعة قليلة من الكتب المستقلة، أو البحوث والدراسات القرآنية المرتبطة بالإمام الحسين عليه السلام في ثنايا المجلات، كما أنّ هناك بعض البحوث التي نُشرت في المواقع الإلكترونية[2]، فقد كتب في هذا الموضوع مجموعة من العلماء والباحثين من الطيف الحوزوي والأكاديمي، إلّا أنّ معظمها أجنبي عن الموضوع الذي يراد بحثه في هذا المشروع، كما أنّ ما كان مرتبطاً بموضوع بحثنا لم يكن متناسباً مع حجم المسألة وأهميتها[3].

وكيف كان، فإن البحوث التي تطرّقت إلى البعد القرآني في النهضة الحسينية لا تتجاوز عدد أصابع اليدين، وسوف نذكر قائمة بأسماء بعض مَن

تطرّق إلى ذلك مع العناوين التي تناولوها في حدود اطّلاعنا:

١ـ الشيخ محمد جواد مُغنية؛ له كتاب عنوانه (الحسين والقرآن)، وهو من الكتب القيّمة والمهمة جداً، احتوى على مطالب دقيقة ونكات مفيدة، معتمداً في معظمها على الآيات القرآنية، إلّا أنّ مطالبه أجنبية عن موضوعنا؛ إذ إنّ كتابه هذا عبارة عن محاولة لإبراز أنّ الإمام الحسين عليه السلام ترجم القرآن بروحه وعمله ولحمه ودمه، كما ذكر ذلك في المقدّمة[٤]، وكما هو واضح من ثنايا مطالب الكتاب. ويمكن للقارئ أن يجد ذلك في مؤلفه القيّم الموسوم بـ (عقليات إسلامية)[٥].

٢ـ د. محمد علي رضائي الإصفهاني؛ في بحثه الموسوم بـ (المباني القرآنية لنهضة عاشوراء). وهو أيضاً من البحوث القيّمة، إلّا أنّه لا علاقة له بموضوعنا، فقد تناول الكاتب في بحثه بعض الآيات القرآنية التي يمكن أن تكون مستنداً لنهضة الإمام الحسين عليه السلام والأهداف التي خرج من أجلها، ويستطيع القارئ أن يطّلع على هذا البحث في العدد الخامس من مجلّة الإصلاح الحسيني الصادرة عن مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية[٦].

٣ـ الأُستاذ مرتضى الباشا؛ إذ كتب بحثاً بعنوان (الإمام الحسين والقرآن الكريم)، وقد تناول في بحثه هذا الآيات النازلة في الإمام الحسين عليه السلام. وهو من البحوث التي لا علاقة لها بموضوع بحثنا. يجده القارئ منشوراً في الموقع الإلكتروني لدار السيّدة رقية عليها السلام[٧].

٤ـ الشيخ إسكندر الجعفري؛ تطرّق إلى بعض الآيات القرآنية ضمن بحثه الموسوم بـ (تكلُّم الرأس الشريف في مصادر الفريقين)، وهو

من البحوث القيّمة التي تناولت الآيات التي تلاها الإمام الحسين عليه السلام بعد أن فُرّق بين رأسه وجسده، ورُفع رأسه فوق الرمح، وهو من الدراسات التوثيقية للآيات التي تكلّم بها الرأس الشريف. ويجد القارئ هذا البحث في العدد السابع من مجلّة الإصلاح الحسيني[٨].

٥ــ الشيخ رسول كاظم عبد السادة؛ له بحث بعنوان: (الشواهد القرآنية في النهضة الحسينية). وقد عمل الباحث على الجانب التوثيقي للشواهد القرآنية التي استشهد بها الإمام الحسين عليه السلام، وهو من البحوث التي قد يبدو للقارئ الكريم أنّ لها علاقة بموضوع بحثنا، حيث تناول الآيات التي استشهد بها الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته، إلّا أنّ مهمة الباحث قد اقتصرت على الجانب التوثيقي ولم يتناول الجانب التحليلي إطلاقاً، ويجده القارئ الكريم منشوراً في العدد التاسع من مجلّة العقيدة، الصادرة عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية[٩].

٦ـ أ. م. د. خولة مهدي الجرّاح؛ في بحثها الموسوم بـ: (المبادئ والأُسس القرآنية للقضية الحسينية)، ويُعنى بالبحث حول مبادئ وأُسس نهضة الإمام الحسين عليه السلام من منطلق قرآني، وهو من البحوث التي شاركت فيه الباحثة في مؤتمر الإصلاح الحسيني الأول، الذي أقامته مؤسسة وارث الأنبياء بالاشتراك مع كلية التربية المختلطة في جامعة الكوفة، وقد نُشر في العدد الرابع عشر من مجلّة الإصلاح الحسيني[١٠].

٧ــ أ. د. فاطمة عبد الأمير الفتلاوي، و م. د. زهراء رءوف الموسوي في بحثهما الموسوم بـ: (الترغيب والترهيب منهج تربوي للقرآن الكريم والإمام الحسين عليه السلام)؛ وقد تناول البحث الجوانب المشتركة

بين منهج القرآن والإمام الحسين عليه السلام في استعمال الترغيب والترهيب، وأثرهما في هداية المجتمع، وهو من البحوث التي شاركت فيه الباحثتان في مؤتمر الإصلاح الحسيني آنف الذكر كما نُشر في العدد السادس عشر من مجلة الإصلاح الحسيني[11].

وعلى العموم، فإن الدراسات المرتبطة بهذا الموضوع لم تكن بمستوى الطموح، سواء من الجانب الكمّي أم الكيفي؛ إذ إنّ أغلبها لم تكن ناظرة إلى الآيات التي تم توظيفها من قِبل الإمام عليه السلام، وما كان منها ناظراً إلى هذا الجانب اقتُصر فيه على الدراسة التوثيقية فقط.

وتأسيساً على ذلك وجدنا ضرورة مُلحَّة لتعميق الدراسات القرآنية في الجانب الحسيني، وبالأخص ما يرتبط منها بالآيات التي تلاها الإمام الحسين عليه السلام في نهضته المباركة، فبادرنا إلى دراسة هذا الموضوع ـ بعد المتابعة المضنية والقراءة المعمّقة ـ ضمن سلسلة من البحوث في عناوين متعددة ذكرناها في المقدّمة آنفاً.

وقد جعلنا هذا البحث مدخلاً أساسياً لتناول بعض الأُمور المتعلّقة بالحضور القرآني في بيانات الإمام الحسين عليه السلام.

وأمّا الخطة التي اعتمدناها هنا، فهي تتكون من مباحث أربعة:

المبحث الأول: التوظيف القرآني في المعسكر الحسيني وانعدامه في الجبهة المعادية.

المبحث الثاني: إشكالية تصادم التوظيف القرآني في واقعة كربلاء مع المنع عن الحجاج بالكتاب.

المبحث الثالث: أنماط الاستعمال القرآني في كلمات الإمام الحسين عليه السلام.

المبحث الرابع: نظرة تحليلية إلى الواقع التفسيري لهذه الآيات.

وسوف نذكر ذلك تباعاً إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول: التوظيف القرآني في المعسكر الحسيني وانعدامه في الجبهة المعادية

نرى من المناسب جداً أن نصدِّر هذا المبحث بأحد الأهداف التي دعت الإمام الحسين عليه السلام لاستعمال الآيات القرآنية في خطاباته وبياناته، وبشكل ملفت وأُسلوب متقن؛ إذ إنّنا حين نقرأ خطابه الذي يقول فيه: «أيّها الناس، اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتّى أعظكم بما يحقّ لكم عليَّ، وحتى أُعذر عليكم، فإن أعطيتموني النَّصف، كنتم بذلك أسعد، وإن لم تعطوني النصف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾»[12]. ونستفيد من مطلع هذا النص الوارد عنه عليه السلام أنّ الغرض والهدف الأساس هو التأثير بالأُمّة التي شخّص عليه السلام فيها داء الهزيمة، كما يروم هداية المجتمعات التي تأتي بعده أيضاً.

دواعي التوظيف القرآني

من خلال قراءتنا لسيرة الإمام الحسين عليه السلام ومسيرته التي دوّنها المؤرّخون في كتبهم نستطيع أن نخلص إلى أنّ الأهداف والدواعي لحضور الآيات القرآنية في بيانات الإمام الحسين عليه السلام وتوظيفه لها في خطاباته تتمحور في النقاط الآتية:

١ـ الارتباط الحقيقي بين الإمام الحسين عليه السلام وكتاب الله (عز وجل) وتعلّقه عليه السلام بكلام الله) عز وجل)، وحبّه لتلاوة آياته والتفكّر بها، وهذا ما نلحظه بوضوح حينما أمر أخاه العباس عليه السلام أن يطلب من القوم تأخير المعركة إلى صباح يوم العاشر، فقال له: «ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى الغدوة [وفي بعض المصادر إلى غد[13]] وتدفعهم عنّا

العشية، لعلّنا نُصلّي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنّي قد أحبّ الصلاة له، وتلاوة كتابه، والدعاء والاستغفار»[١٤].

وممّا يجدر الإشارة إليه هنا أنّ بعض الباحثين يرى في هذه الخطوة وفي هذا الطلب الذي أراده الإمام الحسين عليه السلام في ليلة العاشر من المحرّم بُعداً إعلامياً كبيراً[١٥]؛ إذ حقّق مكسباً مهماً للإمام وأصحابه من الناحية العسكرية؛ حتّى تحوّل جمع من الجيش المعادي إلى معسكر الإمام الحسين عليه السلام وقاتل بين يديه حتّى استُشهد، وبناءً على الروايات الواردة حول أهمّية هداية الآخرين والقائلة: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمر النعم»[١٦]، فيعتبر انضمام شخص واحد وتحوّله من معسكر ابن سعد إلى معسكر الإمام الحسين عليه السلام إنجازاً كبيراً، فكيف إذا كان مَن تأثّر بموقف الإمام في ليلة العاشر هم مجموعة من الناس الذين قاتلوا في سبيل الحق حتّى سقطوا شهداء؟!

٢ـ تضمّن القرآن الكريم مفاهيم عالية ومؤثرة تساعد على هداية المجتمع وإصلاحه، سواء في ظرفه المعاصر لنهضته المباركة أم في الأزمنة اللاحقة، وبما أنّ هذه النقطة تُعدُّ من أهم الأهداف التي خرج الإمام الحسين عليه السلام من أجلها؛ لذا تجد هذا الحضور القرآني في خطبه ومواعظه التي وردت في واقعة الطف.

٣ـ العمل على أن يكون للقرآن الكريم دورٌ فاعلٌ ومساحةٌ كبيرةٌ في حياة المسلمين، وتنبيههم على أنّه المصدر الأساس في حلّ الاختلافات والنزاعات التي تقع بينهم، فيما لو اعتمدوا في فهمه على تفسير أهله وعِدْله.

٤ـ بيان مكانته الدينية وأحقّيته بالأمر والعلاقة الوثيقة بينه وبين الأشخاص الذين ذكرهم الله تعالى في

الآيات التي استشهد بها الإمام عليه السلام، وهذا ما نوكل بيانه إلى بحوث لاحقة إن شاء الله تعالى.

٥ــ الكشف عن حقيقة العدو وبيان وجه الشبه بين مَن ورد في الآيات التي تتحدّث عن الأقوام الذين قاتلوا الأنبياء ووقفوا في وجه المصلحين، وبين مَن وقف بوجه الإمام الحسين عليه السلام.

وبعد التتبع الواسع في النصوص الحسينية التي وردت في الموسوعات التاريخية وكتب المقاتل وجدنا أن هناك كمّاً هائلاً من الآيات التي تلاها الإمام في واقعة كربلاء منذُ انطلاق نهضته المباركة ومروراً بشهادته إلى أن رُفع الرأس الشريف على رمح طويل وهو يقرأ القرآن.

الآيات المتكرّرة في بيانات الإمام الحسين عليه السلام

حينما نُحصي الموارد القرآنية التي استخدمها الإمام الحسين عليه السلام في خطاباته الصادرة عنه في أحداث واقعة الطف نجدها تجاوزت العشرين مورداً. فضلاً عن أنّ الإمام عليه السلام كان يُكثر من قراءة بعض الآيات بنحو متكرّر، كما هو صريح بعض النصوص الواردة في كتب التاريخ والمقاتل، وظاهر بعضها الآخر، فعلى سبيل المثال:

١ـ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[١٧].

فقد روى الطبري: «لمّا بلغ الحسين عليه السلام إلى عُذيب الهجانات، جاءه أربعة نفر... فسألهم الحسين عليه السلام عن الناس وعن رسوله، فأجابوه عن الناس، وقالوا له: رسولك مَن هو؟ قال: (قيس). فقال مجمع العائذي: أخذه الحُصين، فبعث به إلى ابن زياد، فأمره أن يلعنك وأباك، فصلّى عليك وعلى أبيك، ولعن ابن زياد وأباه،

ودعانا إلى نصرتك، وأخبرنا بقدومك، فأمر به ابن زياد، فأُلقي من طمار القصر، فمات رضي الله عنه. فترقرقت عينا الحسين عليه السلام وقال: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾، اللّهمَّ، اجعل لنا ولهم الجنّة منزلاً، واجمع بيننا وبينهم في مُستقرّ رحمتك ورغائب مذخور ثوابك»[18].

وفي موقف آخر ذكره المؤرخون أيضاً قرأ الإمام الحسين عليه السلام هذه الآية المباركة، وذلك حين استُشهد مسلم بن عوسجة، فمشى إليه الحسين فإذا به رمق، فقال: «رحمك ربّك يا مسلم بن عوسجة ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾»[19]. وهذه الآية من الآيات التي نطمئن بتكرارها في بيانات الإمام عليه السلام. فضلاً عن المصادر التي ذكرت أنّ الإمام عليه السلام كان يقرأ هذه الآية عندما يستأذنه أحد أصحابه للقتال، ما يعني أنّه عليه السلام قد قرأها بعدد أصحابه الذين استأذنوه للقتال[20].

٢ـ قوله (عز وجل): ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[21].

ذكر الشيخ المفيد في إرشاده أنّه: «سار الحسين إلى مكة، وهو يقرأ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾»[22]. مما يعني أنّ الإمام يُكثر من هذه الآية؛ إذ إنّ المتفاهم لغوياً من قوله: (وهو يقرأ..) الاستمرارية في قراءة هذه الآية الكريمة، ولا يعني أنّه عليه السلام قرأها مرّة واحدة.

٣ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ﴾[23].

نقل ابن أعثم الكوفي: أنّ الإمام الحسين عليه السلام حين وصل إلى مكة و «نظر إلى جبالها من بعيد جعل يتلو هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء

مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ﴾»[٢٤]، فنستفيد من قوله: (جعل يتلو) أنّ الإمام كرر قراءة هذه الآية أيضاً، إذ لم يقلْ: تلا هذه الآية، أو ما شابه ذلك من التعبيرات المتعارفة في القراءة مرّة واحدة، كما في الآيات الأُخرى الآتية لاحقاً.

٤ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٢٥].

قال الطبري: «فلما أمسى حسين وأصحابه، قاموا الليل كلّه يصلّون ويستغفرون ويدعون ويتضرّعون. قال: فتمرّ بنا خيل لهم تحرسنا، وإن حسيناً ليقرأ: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾»[٢٦]. فقوله: (وإنّ حسيناً ليقرأ)، تفيدنا بأنّه كان يردد الآية الكريمة ويُكثر من قراءتها.

أضف إلى ذلك الآيات التي تكلّم بها الرأس الشريف وهو على رمح في طريقه إلى الكوفة والشام، فقد كان يردد قصّة أصحاب الكهف في كتاب الله) عز وجل).

الآيات غير المتكررة في بيانات الإمام الحسين عليه السلام

إن الآيات التي قرأها الإمام الحسين عليه السلام مرّةً واحدةً ولم يكررها كثيرة وفي مصادر متعددة؛ ولذا فإننا سوف نفهرس بعضها على عجالة، ونترك تفصيل البحث حولها إلى محلّه في بحوث مستقلة:

١ـ قوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢٧]. فقد ورد في الفتوح أنّ الإمام الحسين عليه السلام حينما كلّمه مروان بن الحكم لأجل إقناعه بمبايعة يزيد وطال بينهما الكلام، قال له عليه السلام: «ويلك يا مروان، إليك عنّي

فإنّك رجس وإنّا أهل بيت الطهارة الذين أنزل الله) عز وجل) على نبيّه محمد ﷺ، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾... فنكس مروان رأسه لا ينطق بشيء»[٢٨].

٢ و٣ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٣٠]. «... هذه وصيتي إليك يا أخي! ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾...»[٣١].

٤ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٣٢]. فقد ذكر الطبري وابن كثير وغيرهما أنّ الإمام الحسين عليه السلام قرأها في جوابه لأصحاب عمرو بن سعيد بن العاص[٣٣].

٥ـ قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾[٣٤].

٦ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[٣٥].

ذكر الإمام الحسين عليه السلام هاتين الآيتين في سياق الوعظ والنصح حينما خاطب العدو؛ إذ ورد في كتب السير والتاريخ أنّه عليه السلام قال: «أيّها الناس، اسمعوا قولي، ولا تعجلوني حتّى أعظكم بما يحقّ[٣٦] لكم عليّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدّقتم قولي، وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليَّ سبيل، وإن لم تقبلوا منّي العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾»[٣٧].

وغير ذلك من الموارد التي ذكرها المؤرّخون في هذا المضمار تركنا ذكرها خوفاً من الإطالة من جهة، ولأنّنا سوف نتناولها مفصّلاً في البحوث اللاحقة إن شاء الله تعالى.

انعدام الآيات القرآنية في خطابات المعسكر المعادي

بعد أن لاحظنا أنّ الخطابات الحسينية كانت ثرية بالآيات القرآنية نجد في المقابل أنّ الخطابات الصادرة من الجبهة المعادية خالية من أيِّ استعمال أو توظيف قرآني، مع أنّهم كانوا حريصين أشدّ الحرص على مجابهة الإمام الحسين عليه السلام، والردِّ عليه، وعدم السماح له بالكلام، بل كانوا حريصين على استخدام شتّى السبل والوسائل الإقناعية لتحشيد الجماهير ضدّه عليه السلام، وهذا ما سوف نبرهن عليه بالأُمور الآتية:

١ـ إنّ حراجة الموقف وخطورته كانت تُحتم عليهم أن يستخدموا الأساليب التي تحافظ على بقاء جيشهم، وتمنع من تأثرهم بكلام الإمام الحسين عليه السلام؛ ولذلك خاطب عمر بن سعد أصحابه قائلاً: «ويلكم! كلّموه؛ فإنّه ابن أبيه، والله، لو وقف فيكم هكذا يوماً جديداً لما انقطع ولما حُصر، فكلّموه. فتقدّم شمر (لعنه الله) فقال: يا حسين، ما هذا الذي تقول؟ أَفهمنا حتّى نفهم؟ فقال: أقول: اتقوا الله ربّكم ولا تقتلوني؛ فإنّه لا يحلّ لكم قتلي، ولا انتهاك حرمتي، فإنّي ابن بنت نبيّكم وجدّتي خديجة زوجة نبيّكم...»[٣٨].

٢ـ ما نقله المؤرّخون من أنّ بعض قادة الجيش حاول أن يستميل أصحاب الإمام الحسين عليه السلام من خلال بعض المفاهيم الدينية التي عمل بنو أُميّة على ترسيخها في أذهان عامّة الناس ـ من قبيل: لزوم طاعة الحاكم وإن كان جائراً، أو حرمة تفريق وحدة

المسلمين وغيرها من الشعارات التي تخدم مصالحهم، فقد ذكروا أنّ: «عمرو بن الحجاج حين دنا من أصحاب الحسين يقول: يا أهل الكوفة، الزموا طاعتكم وجماعتكم ولا ترتابوا في قتل مَن مرق من الدين وخالف الإمام. فقال له الحسين: يا عمرو بن الحجاج، أعليَّ تحرّض الناس؟! أنحن مرقنا وأنتم ثبتم عليه؟! أَما والله، لتعلمنّ لو قد قُبضت أرواحكم ومُتم على أعمالكم أيُّنا مرق من الدين ومَن هو أوْلى بصليِّ النار...»[٣٩].

٣ـ إنّهم استعملوا الدين واتخذوه وسيلة لتنفيذ أوامرهم، كما نادى: «عمر بن سعد: يا خيل الله، اركبي وأبشري. فركب الناس...»[٤٠].

نعم، قد يُعتقد بأن قول شمر بن ذي الجوشن: (هو يعبد الله على حرف) جاء تمثلاً بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾[٤١]، وذلك حين خاطبهم الإمام الحسين عليه السلام وذكرهم بمكانته: «فقال له شمر بن ذي الجوشن: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول. فقال له حبيب بن مظاهر: والله، إنّي لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنّك صادق ما تدري ما يقول قد طبع الله على قلبك...»[٤٢]. ولكن هذا النمط من الكلام هو عبارة عن اقتباس للاستعمالات المتداولة بينهم، وإلّا فيكون معظم كلام العرب تمثلاً بالقرآن مع أنّهم غير ملتفتين إلى هذا الجانب أساساً.

والسؤال الذي يُطرح في هذا الصدد: لماذا لم يحتج القوم ولم يستخدموا آيات القرآن في كلامهم مع الإمام الحسين عليه السلام، مع أنّهم كانوا بأمس الحاجة إلى التوظيف القرآني؟

وبتقديري أنّ موقف الإمام الحسين عليه السلام كان واضحاً بحيث لم يدعْ لهم مجالاً للردّ والإنكار القرآني.

المبحث الثاني: إشكالية تصادم التوظيف القرآني في واقعة الطف مع المنع عن الحجاج بالكتاب

من المتسالم عليه بين العلماء والباحثين هو صلاحية القرآن الكريم للاحتجاج والاستدلال على المواقف والتصرفات التي يُدَّعى انتسابها إلى الشريعة، وهذه المسألة ممّا توافق عليها جميع المسلمين في الأزمنة والأماكن كافة، وقد ذكر بعض علمائنا الأعلام أنّ هذا الأمر لم يقتصر على النصوص الصريحة، بل يمتدّ ذلك ليشمل النصوص القرآنية الظاهرة التي لا معارض لها في الكتاب والسنّة؛ مستدلاً بمجموعة من الأدلة الواضحة(٤٣).

وبناءً على هذا التوافق بين العلماء ومسلّمات الدين يصبح ما قام به الإمام الحسين عليه السلام في احتجاجه على القوم بآيات من الكتاب من المألوف والمستساغ جداً؛ إذ يكون على وفق القاعدة التي ذكرناها آنفاً.

إلّا أنّنا نواجه إشكالية ـ بل شبهة ـ تصطدم مع هذه الحقيقة المسلَّمة، وتصطدم بالدرجة الأُولى مع السلوك الذي صدر عن الإمام الحسين عليه السلام في احتجاجه على القوم في كثير من خطاباته وبياناته المرتبطة بواقعة الطف، وهذه المشكلة هو ما يُستفاد من الوصية المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، حين بعث عبد الله بن عباس إلى المارقين ـ الذين خرجوا على إمام زمانهم ـ للمحاورة فقال عليه السلام له: «لا تخاصمهم بالقرآن؛ فإن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنَّة؛ فإنّهم لن يجدوا عنها محيصاً»(٤٤). فهل هذا الحديث يتقاطع مع الرأي المتسالم عليه حول صلاحية القرآن للهداية والاستدلال والحجاج أو لا؟ وفي الوقت نفسه هل يتعارض مع ما قام به الإمام الحسين عليه السلام حين

استعمل الآيات القرآنية للاحتجاج على مواقفه في واقعة الطف؟

الإجابة عن الإشكالية المذكورة

وفي مقام الإجابة عن هذا الإشكالية نقول:

أولاً: إنّ هذا السلوك الصادر عن الإمام الحسين عليه السلام فيما يرتبط بالاحتجاج القرآني على أعدائه قد أثبتت المتابعة والتحقيق حوله أنّ له أثراً بالغاً في نفوس كثير من المخاطَبين أثناء الحدث وبعده إلى يومنا هذا، كما تقدّم ذكر ذلك في مطلب سابق؛ ما يعني أنّ واقع هذه الاحتجاجات يبطل شمولية الحديث الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام لكل الأزمان والأماكن.

ثانياً: بعد المتابعة الدقيقة في كل مجريات الاحتجاج الذي قام به الإمام الحسين عليه السلام مع عدوه لم يرد اعتراض أو ردّ من قِبل الأعداء على آية من الآيات التي احتج بها الإمام عليه السلام، وهو بحدّ ذاته يبيّن لنا عدم صدق المقولة المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام، أو أنّ لها توجيهاً ومعنى مراد غير ما فهمه وأثبته المؤرّخون.

ثالثاً: نجد في بعض الاحتجاجات التي اعترض عليها الأعداء بعدم ثبوتها وعدم معلوميتها لديهم اضطر الإمام عليه السلام إلى إثباتها عن طريق التوظيف القرآني، كما في مخاطبته لعمر بن سعد حين قال عليه السلام له: «قطع الله رحمك...» فقد روى المؤرّخون في صدد ذلك: «ثمّ أقبل رجل آخر من عسكر عمر بن سعد، يقال له: محمد بن الأشعث ابن قيس الكندي، فقال: يا حسين بن فاطمة، أية حرمة لك من رسول الله ليست لغيرك؟ فتلا الحسين عليه السلام هذه الآية ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ الآية، ثمّ قال: والله، إنّ محمداً لمن آل إبراهيم، وإنّ العترة

الهادية لمن آل محمد. مَن الرجل؟ فقيل: محمد بن الأشعث بن قيس الكندي. فرفع الحسين عليه السلام رأسه إلى السماء، فقال: اللهمّ أرِ محمد بن الأشعث ذلاً في هذا اليوم، لا تعزّه بعد هذا اليوم أبداً. فعرض له عارض فخرج من العسكر يتبرز، فسلّط الله عليه عقرباً فلدغته، فمات بادي العورة»[٤٥]. فلم يواجه الإمام عليه السلام أحد من الأعداء بكلمة أو اعتراض بعد استدلاله بهاتين الآيتين.

نظرة إلى وصية أمير المؤمنين عليه السلام لابن عباس

وأمّا إذا أردنا أن نضع هذا الحديث المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام ـ والذي يظهر منه عدم جواز الاحتجاج على الأعداء بالكتاب الكريم ـ على طاولة النقد والتحكيم العلمي؛ فإن ذلك يوصلنا إلى تسجيل بعض الملاحظات المهمة حوله؛ إذ يلاحظ عليه:

١ــ إن هذا المقطع لم يُذكر في الموسوعات التاريخية والروائية التي اعتنت بنقل تفاصيل حروب أمير المؤمنين عليه السلام، مع أنّها نقلت لنا جزئيات تلك الحوادث، كأنساب الأشراف للبلاذري، وشرح الأخبار للقاضي النعمان[٤٦] وغيرهما من المصادر، فأقدم المصادر التي نقلت هذا المقطع هو نهج البلاغة، فلا نستطيع الاطمئنان بثبوته.

٢ـ حينما نقرأ مجريات المحاورة التي دارت بين ابن عباس والخوارج نجد أنّه قد احتج عليهم وخاصمهم بآيات من القرآن، واستطاع من خلالها أن يقنع الخصم ويرجع بعضهم إلى الحق؛ إذ نقل المؤرّخون أنّه قال لهم: «أمّا قولكم: إنّه حكم الرجال في أمر الله، فأنا أقرأ عليكم من كتاب الله) عز وجل) أنّه قد صيَّر حكمه إلى الرجال في ربع درهم، وأمر الرجال أن يحكموا فيه، وذلك أرنب

قتله محرم. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾»[٤٧]. وغير ذلك من الآيات التي استدل بها، وقد استطاع أن يهدي بعضهم إلى الحق.

٣ــ إنّ البحث في تفاصيل الحادثة يوصلنا إلى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد احتج على الخوارج بآيات من القرآن أيضاً، فقال: «وأمّا قولكم: إنّي شككت في نفسي؛ حيث قلت للحكمين: اُنظرا، فإن كان معاوية أحق بها منّي، فأثبتاه. فإن ذلك لم يكن شكاً منّي، ولكنّه نصف من القول، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، فلم يكن ذلك شكاً، وقد علم الله: أنّ نبيّه كان على الحق. قالوا: وهذه لك خرجت منها. وأمّا قولكم: إنّي جعلت الحكم إلى غيري، وقد كنت عندكم أحكم الناس. فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله قد جعل الحكم إلى سعد يوم بني قريظة، وقد كان أحكم الناس. وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فتأسيت برسول الله صلى الله عليه وآله...»[٤٨].

٤ـ وفقاً للقاعدة المحكمة في باب قبول الحديث الذي ينسب إليهم عليهم السلام ـ وهي ما ورد في قولهم عليهم السلام: فاعرضوه على الكتاب.. نتوصل إلى أنّ الكتاب الكريم له مساحة كبيرة في إمكانية الاحتجاج به وإثبات المراد منه في آياته، وفي الوقت ذاته لو عرضنا هذا الحديث المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام لتبيّن لنا أنّه مخالف لكتاب الله الصريح بكونه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٤٩]، وكقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٥٠]، وغيرها من الآيات الأُخرى، التي تتنافى مع هذا الحديث القائل: «حمال ذو وجوه» والتي تعني عدم وضوح الكلام الذي يحتويه

القرآن؛ فينتج لنا عدم إمكان الأخذ بهذا الحديث على إطلاقه على أقل التقادير.

٥ـ يمكن أن يكون قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مختصّاً بتلك الحادثة فقط، أو كما يُعبر عنه في المصطلح المنطقي والأُصولي قضية خارجية، فقد رُوي عن الإمام الصادق أنّه قال ـ عمّن أنكر ولاية أهل البيت وخالفهم: «وذلك أنّهم ضربوا بعض القرآن ببعض، واحتجوا بالمنسوخ، وهم يظنون أنّه الناسخ، واحتجوا بالمتشابه، وهم يرون أنّه المحكم، واحتجوا بالخاص، وهم يقدّرون أنّه العام، واحتجوا بأول الآية، وتركوا السنّة في تأويلها. ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره؛ إذ لم يأخذوه عن أهله، فضلوا وأضلوا»[٥١].

٦ـ على أسوأ الاحتمالات أن يكون الإمام عليه السلام قد نهى ابن عباس عن الاحتجاج بالمتشابه والذي يحمل وجوهاً مختلفة ما يؤدي إلى عدم إلزام الخصم، وهذا ما يُشير إليه بعض العلماء حينما أشار إلى هذه الوصية، فقال: «أقول: يُستفاد منه عدم جواز الاحتجاج بالقرآن في غير النصوص والمحكمات التي لا يحتمل إلّا وجهاً واحداً»[٥٢].

وبعد ذكر هذه النقاط المتقدّمة نصل إلى نتيجة تضعنا أمام ثلاثة أُمور:

أـ إمّا أن نقول بعدم صحة هذا المقطع من الحادثة.

ب ـ وإمّا أن نخطّئ أمير المؤمنين عليه السلام في رأيه هذا، وهو ما لا يمكن قبوله.

جـ ـ أو نقول: بأنّ هذا المقطع له خصوصياته المعهودة بين أمير المؤمنين عليه السلام وابن عباس، وأنّ الظروف التي مرّ بها الإمام الحسين عليه السلام غير ما مرّ به أمير المؤمنين عليه السلام؛ ولذا ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح هذا الحديث:

«... فإن قلت: فهل حاجّهم بوصيته؟ قلت: لا، بل حاجّهم بالقرآن، مثل قوله: ﴿فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾، ومثل قوله في صيد المحرم: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، ولذلك لم يرجعوا والتحمت الحرب، وإنّما رجع باحتجاجه نفر منهم. فإن قلت: فما هي السنّة التي أمره أن يحاجّهم بها؟ قلت: كان لأمير المؤمنين عليه السلام في ذلك غرض صحيح، وإليه أشار، وحوله كان يطوف ويحوم، وذلك أنّه أراد أن يقول لهم: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عليٌّ مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار. وقوله: اللهمّ وال مَن والاه وعاد مَن عاداه، وانصر مَن نصره، واخذل مَن خذله، ونحو ذلك من الأخبار التي كانت الصحابة قد سمعتها من فلق فيه (صلوات الله عليه)، وقد بقيَ ممّن سمعها جماعة تقوم الحجة وتثبت بنقلهم، ولو احتج بها على الخوارج في أنّه لا يحلّ مخالفته والعدول عنه بحال لحصل من ذلك غرض أمير المؤمنين في محاجتهم، وأغراض أُخرى أرفع وأعلى منهم، فلم يقع الأمر بموجب ما أراد، وقضى عليهم بالحرب حتّى أكلتهم عن آخرهم، وكان أمر الله مفعولاً»[٥٣].

المبحث الثالث: أنماط الاستعمال القرآني في كلمات الإمام الحسين عليه السلام

تنوعت الدواعي والأسباب التي من أجلها تكلّم الإمام الحسين عليه السلام بآيات من كتاب الله، وبتبع ذلك تعددت الأنماط والأشكال التي استخدمها الإمام عليه السلام؛ وسنجمل بعضها في هذا المبحث:

النمط الأول: الاستدلال والاحتجاج على القوم

إنّ هدف الإمام الحسين عليه السلام في كثير من المواقف التي قام بها في نهضته المباركة، كان لأجل إلقاء الحجة والاستدلال على أحقيته؛ ليبرهن

للناس بأنّه لم يخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً؛ ولذا نجد أنّ أكثر الخطب والمواعظ التي نطق بها في نهضته المباركة كانت بهذا الغرض والهدف السامي.

وقد ضمَّن كلامه هذا آيات قرآنية احتج بها على القوم، واستدل بها على صحة حركته الإصلاحية، ويتجلّى هذا النمط في الآيات الآتية:

١ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٥٤].

وقد مرّ في الأسطر المتقدّمة ذكر الحادثة التي احتج بها عليه السلام على محمد بن الأشعث في يوم العاشر من المحرّم.

٢ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[٥٥].

وهو ما رواه محمد بن سليمان الكوفي قائلاً: «رأيت رأس الحسين بن علي على الرمح وهو يتلو هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾. فقال رجل من عرض الناس: رأسك يابن رسول الله أعجب!»[٥٦].

النمط الثاني: الوعظ والنصيحة

اهتم الإمام الحسين عليه السلام بالوعظ والنصيحة في محطات متعددة من كلامه؛ لأجل إعادة المجتمع إلى مساره الصحيح سواء في زمن الحدث ـ كما حصل لبعض أفراد جيش عمر بن سعد ـ أم في الأزمنة اللاحقة، كما نلمس تأثير هذه الآيات حينما تُقرأ في ضمن النصوص الواردة عن الإمام الحسين عليه السلام، ومن بين تلك الآيات:

١ـ قوله (عز وجل): ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[٥٧].

إذ ذكر الطبري في تاريخه أنّ الإمام الحسين عليه السلام خطب في القوم فقال: «أيّها الناس، اسمعوا قولي، ولا

تعجلوني حتّى أعظكم بما يحق لكم عليَّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي، وأعطيتموني النَّصف كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليَّ سبيل، وإن لم تقبلوا منّي العذر، ولم تعطوا النَّصف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾»[٥٨].

٢ــ قوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾[٥٩].

فقد روى الطبري في دلائل الإمامة عن الحارث بن وكيدة، قال: «كنت فيمَن حمل رأس الحسين عليه السلام فسمعته يقرأ سورة الكهف، فجعلت أشك في نفسي وأنا أسمع نغمة أبي عبد الله عليه السلام، فقال لي: يابن وكيدة، أَما علمت أنّا معشر الأئمّة أحياء عند ربّنا نرزق؟! فقلت في نفسي: أسرق رأسه. فنادى: يابن وكيدة، ليس لك إلى ذلك سبيل، سفكهم دمي أعظم عند الله تعالى من تسييرهم رأسي، فذرهم فسوف يعلمون ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾»[٦٠].

النمط الثالث: الدعم المعنوي والتطميني لأصحابه

كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[٦١].

فقد تقدّم سابقاً أنّه عليه السلام تلا هذه الآية حين سمع باستشهاد قيس بن مسهر الصيداوي تارةً، وأُخرى حين سقط مسلم بن عوسجة على الأرض[٦٢].

وهناك أنماط أُخرى قصدها الإمام الحسين عليه السلام في استعماله لآيات الكتاب نوكل الحديث عنها في بحوث لاحقة إن شاء الله تعالى.

المبحث الرابع: نظرة تحليلية إلى الواقع التفسيري لهذه الآيات

من المقرر في علوم القرآن وكتب التفسير أنّ للقرآن شأن نزول وسبباً نزلت لأجله الآيات المباركة، وهذان الجانبان لهما الدور الكبير في تفسير الآيات ومعرفة معناها؛ إذ يعتمد المفسِّر في فهم الآية القرآنية على مجموعة من الأُمور؛ لكي يستوضح المعنى المراد من الآية التي يراد تفسيرها، وهذا النمط من المعنى يعتمد على ظاهر القرآن، وأمّا لو اعتمد المفسّر أو الباحث على بطون الآية فسوف يكون من المعنى التأويلي، وكلتا الطريقتين قد اعتمدها الأئمّة عليهم السلام في توضيح القرآن للناس؛ فقد روى فضيل ابن يسار، قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام، قول الله في كتابه ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٦٣]؟ قال: من حرق أو غرق. قلت: فمَن أخرجها من ضلال إلى هدى؟ فقال: ذلك تأويلها الأعظم»[٦٤]. وغير ذلك من الأحاديث التي لا يسعنا نقلها في المقام.

ومن أهم النظريات التي بحثت في المجال التفسيري وعلوم القرآن هو ما اصطلح عليه علماؤنا بنظرية (الجري والانطباق)، وهي من القواعد المدعمة بأدلة متينة ومنقّحة في بحوث ودراسات معمّقة ودقيقة؛ إذ تطرّق إليها كبار العلماء وساقوا الروايات الواردة في هذا المقام[٦٥].

والخوض في هذا المجال بشكل مفصّل يخرجنا عن موضوع بحثنا؛ لذا سوف نكتفي بإعطاء لمحة مختصرة عن بعض خواص هذه النظرية ومدى انطباقها على التوظيف القرآني في بيانات الإمام الحسين عليه السلام، فنقول:

١ـ معنى النظرية

المراد من نظرية الجري والانطباق ـ أو الجري والتطبيق ـ: هو عملية تطبيق لمضمون آيةٍ من آيات القرآن النازلة

في شأن أو معنىً محدد أو مفهوم من المفاهيم التي تناولها حين نزوله، وإسقاطه على شخص أو مفهوم أو معنى لم يكن موجوداً في زمن النص، أو لم يكن مورداً للآية، إلّا أنّه مشتمل على الخصوصيات ذاتها التي اشتمل عليها موردها الذي نزلت في حقّه، فيكون وجه الشبه بين المواردين هو المصحح والمبرر لتطبيقها على المتأخر بعد أن نزلت في حق المتقدّم، والذي يُعبّر عنه في علم التفسير بـ (شأن النزول) أو (مورد النزول)[٦٦].

ومن نماذج وتطبيقات هذه النظرية المهمة ما ذكره الطباطبائي ﵀ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾؛ إذ قال ﵀: «... وفي البصائر عن أبي حمزة قال: سألت أبا جعفر ﵇ عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. قال: تفسيرها في بطن القرآن: ومن يكفر بولاية علي. وعلي هو الإيمان. أقول: هو من البطن المقابل للظهر بالمعنى الذي بيناه في الكلام على المحكم والمتشابه في الجزء الثالث من الكتاب، ويمكن أن يكون من الجري والتطبيق على المصداق، وقد سمّى رسول الله ﷺ علياً ﵇ إيماناً حينما برز إلى عمرو بن عبد ودٍّ يوم الخندق؛ حيث قال ﷺ: برز الإيمان كلّه إلى الكفر كلِّه»[٦٧].

٢ـ أدلة النظرية

هناك مجموعة من الروايات الواردة عن الأئمّة ﵈ يستفاد منها أنّ القرآن قابل للانطباق على موارد وأفراد في كل زمان ومكان، وأنّه لا يقتصر على زمن من الأزمنة أو مكان من الأمكنة، ومن هذه الروايات استنتج العلماء والمفسّرون نظرية الجري والانطباق، أو ما تسمّى بنظرية الجري والتطبيق، وكنموذج لهذه الروايات نذكر الموارد الآتية:

١ـ ما رواه العيّاشي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام: «إنّ القرآن حيٌّ لا يموت، والآية حيَّةٌ لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين»[٦٨].

٢ـ ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «ولو أنّ الآية إذا نزلت في قوم ثمّ مات أُولئك ماتت الآية لما بقيَ من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات والأرض، ولكل قوم آية يتلوها هم منها من خير أو شر»[٦٩].

٣ـ عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنّ القرآن حيٌّ لم يمت، وإنّه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا»[٧٠].

وعلى هذا الأساس؛ فيتحتم علينا أن نبحث في الآيات التي استعملها الإمام الحسين عليه السلام في خطاباته الصادرة عنه في واقعة الطف، لنرى ما هي الصلة والعلاقة بين موارد نزولها وبين الأفراد الذين طبقها عليهم.

إذاً؛ سوف تكون حيثية البحث في سلسة البحوث اللاحقة ـ إن شاء الله تعالى ـ عن إمكانية توظيف نظرية الجري والانطباق على الأشخاص الذين طبّق الإمام الحسين عليه السلام في حقّهم بعض الآيات التي تضمّنتها بياناته المباركة التي خاطبهم بها؛ من خلال المقارنة بين موارد نزولها وبين أُولئك الشخصيات الذين عاصروا الإمام الحسين عليه السلام، وهذا ما سوف نوكل الحديث عنه في أبحاث لاحقة إن شاء الله تعالى.

على أنّ هناك بعض الآيات التي ذكرها الإمام الحسين عليه السلام في بياناته المباركة إلّا أنّ انطباقها عليه من جهة نزولها في حقه؛ كونه من ضمن الأشخاص الذين خصهم الله (عز وجل) بهذه المنزلة الكريمة؛ كما في آية

التطهير التي احتج بها على مروان بن الحكم في المدينة المنورة[٧١].

نتيجة البحث

ومن خلال ما تقدّم في المباحث المتقدمة نستنتج النقاط الآتية:

١ـ إنّ البحوث التي تطرّقت إلى البعد القرآني في النهضة الحسينية لا تتناسب مع المساحة التي يشغلها القرآن الكريم في واقعة الطف؛ ولذا نرى من الضروري جداً تعميق الدراسات القرآنية في الجانب الحسيني، ومن هذا المنطلق خصّصت مجلّة الإصلاح الحسيني ملفاً مستقلاً لهذه الأبحاث يحتوي مجموعة من العناوين المهمة في الجانب القرآني.

كما أنّ الدراسات المرتبطة بالآيات التي تلاها الإمام الحسين عليه السلام في نهضته المباركة، لا تكاد تذكر سوى ما أشرنا إليه في السابقة الدراسية، وفي ضوء ذلك بادرنا إلى دراسة هذا الموضوع ضمن سلسلة من الأبحاث لعلّنا نُسهم في إثراء الساحة الفكرية من هذه الزاوية المهمة.

٢ـ تعرّفنا على الأسباب التي دعت الإمام الحسين عليه السلام إلى التوظيف القرآني في نهضته الإصلاحية، وأنّ ذلك قد أعطى نتائج مهمة وثماراً كثيرة جداً. فيما نلحظ خلو الخطاب في الجبهة المعادية من أيّ استعمال قرآني، مع أنّهم استعملوا شتى الطرق والأساليب من أجل استمالة الأُمّة وتحريضها على قتل الإمام الحسين عليه السلام.

٣ـ استطعنا أن نجيب عن إشكالية التنافي بين التوظيف القرآني في الخطابات الحسينية وبين ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام من نهي عن الاحتجاج بالقرآن وأنّه حمال ذو وجوه، وتبيّن أنّ هناك عدّة أجوبة يمكن ذكرها في المقام.

٤ـ تبيّن لنا أنّ هناك مجموعة من الأنماط التي استعملها الإمام

الحسين عليه السلام في خطاباته المتضمّنة للآيات القرآنية، وقد ذكرنا بعضاً منها.

٥ـ إنّ نوع الاستعمال للآيات القرآنية في كلمات الإمام الحسين عليه السلام والمسوّغ لتطبيقها في بياناته المباركة هو اندراجها تحت نظرية الجري والانطباق.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.
* نهج البلاغة.
١. الإرشاد، محمد بن محمد المفيد، منشورات دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.
٢. الأمالي، محمد بن علي الصدوق، منشورات مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم المقدّسة ـ إيران، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ.
٣. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
٤. بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، منشورات مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.
٥. البداية والنهاية، إسماعيل بن كثير، منشورات مكتبة المعارف، بيروت ـ لبنان.
٦. تاريخ الأُمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣م.
٧. تفسير العيّاشي، محمد بن مسعود العيّاشي، منشورات المكتبة العلمية الإسلامية، طهران ـ إيران.
٨. خصائص أمير المؤمنين، أحمد بن شعيب النسائي، منشورات مكتبة المعلا، الكويت، الطبعة الأُولى، ١٤٠٦هـ.
٩. دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري، منشورات مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم المقدّسة ـ إيران، الطبعة الأُولى، ١٤١٣هـ.
١٠. شرح الأخبار، القاضي النعمان بن محمد المغربي، منشورات مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدّسة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
١١. شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٩٩٨م.
١٢. عقليات إسلامية، محمد جواد مُغنية، منشورات عزّ الدين للطباعة والنشر.

١٣. الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي، منشورات دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٩٩١م.
١٤. الفوائد الطوسية، محمد بن الحسن الحر العاملي، منشورات المطبعة العلمية، قم المقدّسة ـ إيران، ١٤٠٣هـ.
١٥. القرآن في الإسلام، محمد حسين الطباطبائي، منشورات دار الزهراء للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولى، ١٩٧٣م.
١٦. الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم بن الأثير، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٥ه.
١٧. المحاسن، أحمد بن محمد البرقي، منشورات دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، ١٣٧٠هـ.
١٨. مستدرك سفينة البحار، علي النمازي الشاهرودي، منشورات مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدّسة، ١٤١٨هـ.
١٩. المسترشد، محمد بن جرير الطبري، منشورات مؤسسة الثقافة الإسلامية لكوشانبور، الطبعة الأُولى، ١٤١٥هـ.
٢٠. مع الركب الحسيني، علي الشاوي، نشر مركز الدراسات الإسلامية لممثلية الولي الفقيه، قم المقدّسة ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.
٢١. مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، محمد بن سليمان الكوفي، منشورات مجمع إحياء الثقافة الإسلامية قم المقدّسة ـ إيران، الطبعة الأُولى، ١٤١٢هـ.
٢٢. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدّسة.
٢٣. وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الخامسة، ١٩٨٣م.

المجلات

٢٤. مجلّة الإصلاح الحسيني، منشورات مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية، النجف الأشرف ـ العراق.
٢٥. مجلّة العقيدة، منشورات المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف الأشرف ـ العراق، ٢٠١٦م.

المواقع الإلكترونية

٢٦. http: //www. ruqayah. net /subject. php?id

الهوامش:

[١] البحث عبارة عن محاضرة في ندوة علمية أُلقيت في مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية فرع الأهواز، بتاريخ ١٢/ ٤/ ٢٠١٨م.

[٢] ما قمنا به من مسح ميداني إنّما كان حول النتاجات التي كُتبت باللغة العربية، وأمّا البحوث أو المقالات التي كتبت بلغات أُخرى فقد تكون غير قليلة؛ إذ إننا وجدنا مجموعة من المقالات التي كُتبت باللغة الفارسية يجدها القارئ الكريم في (مركز التحقيقات الكومبيوترية للعلوم الإسلامية ـ نور) وغيره من المجلات والمواقع الإلكترونية الإيرانية، فضلاً عن بقيّة اللغات الأُخرى التي ليست لنا معرفة بها.

[٣] بما أنّ هذا البحث قد أُعدَّ لغرض طرحه في ندوة علمية مشتركة مع جامعة القادسية بتاريخ ١٤/ ٣/ ٢٠١٧م ـ التي لم تسمح الظروف بانعقادها وقتئذٍ ـ فقد أجريت هذه الإحصائية في ذلك الوقت، ثمّ أُلقيت هذه المحاضرة في مدينة الأهواز، بتاريخ ١٢/ ٤/ ٢٠١٨م. بدعوة من قِبل مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية، إحدى فروع مؤسستنا هناك، وحينها لم نحصل على نتاجات ذات صلة بالملف القرآني سوى العناوين التي أُدرجت آنفاً.

إلّا أنّنا ومنذُ مدّة قصيرة ـ ومن خلال المتابعة المستمرة حول الموضوع ـ اطّلعنا على رسالة ماجستير للباحث وسيم راقم رحيم، تحت عنوان (توظيف النص القرآني في الثورة الحسينية/ دراسة تفسيرية تحليلية) تمّت مناقشتها في كلية الفقه/ جامعة الكوفة بتاريخ ١٠/ ٦/ ٢٠١٩م، فاقتضى التنويه.

ومع أنّ هذه الرسالة القيّمة تلتقي مع ما تناولناه في هذه السلسة من حيث المادة والنصوص التي اعتمدها الباحث وهي الآيات القرآنية التي وردت في بيانات الإمام الحسين عليه السلام ـ بالإضافة إلى الآيات التي وظّفها أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الشهداء، بل إنّه أورد كذلك الآيات التي استدل بها أعداء الإمام الحسين عليه السلام بعد استشهاده كما في الآيات التي استشهد بها ابن زياد ويزيد بن معاوية وغيرهما ـ إلّا أنّ الآلية التي اتّبعها مختلفة عمّا نقوم به هنا؛ إذ كانت أدوات بحثه معتمدة على علم الألسنيات ونظرياته الحديثة: «عِبْرَ التحليل الصوتي، والتحليل المُعجمي، والتحليل الصرفي، والتحليل النحوي، والتحليل الايحائي، والتحليل السياقي القرآني...» ـ على ما ذكره في ص٦ وما وقفنا عليه من خلال قراءتنا لمحتوى الرسالة ـ في حين أنّنا سعينا لتوظيف نظرية الجري والانطباق في محاولة جادّة لمعرفة العلاقة بين الأشخاص الذين نزلت في حقّهم هذه الآيات المباركة وبين مَن طبق الإمام الحسين عليه السلام الآيات المباركة في حقّهم، من خلال قراءة الوقائع التي عاشتها الذوات التي طُبقت الآيات في حقّهم،

بعد البحث عن المعنى التفسيري لهذه الآيات المباركة.

[٤] أُنظر: مُغنية، محمد جواد، عقليات إسلامية: ج٢، ص٥٠٩.

[٥] أُنظر: المصدر السابق.

[٦] أُنظر: مجلّة الإصلاح الحسيني، العدد٥، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٣م: ص٣٩.

[٧] أُنظر: الموقع http: / /www. ruqayah. net /subject. php?id.

[٨] أُنظر: مجلّة الإصلاح الحسيني، العدد٧، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م: ص١٩٩.

[٩] أُنظر: مجلّة العقيدة، العدد٩، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م: ص٩.

[١٠] أُنظر: مجلّة الإصلاح الحسيني، العدد ١٦، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م: ص٩٣.

[١١] أُنظر: المصدر السابق: ص١٦٥.

[١٢] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٢٢.

[١٣] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٩٢.

[١٤] المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٩٠.

[١٥] أُنظر: الشاوي، علي، مع الركب الحسيني: ج١، المقدّمة.

[١٦] الكوفي، محمد بن سليمان، مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ج٢، ص٥٠٧.

[١٧] الأحزاب: آية٢٣.

[١٨] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٠٦.

[١٩] المصدر السابق: ج٤، ص٣٣١.

[٢٠] أُنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص٢٥.

[٢١] القصص: آية٢١.

[٢٢] المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٣٥.

[٢٣] القصص: آية٢٢.

[٢٤] الكوفي، أحمد بن أعثم، الفتوح: ج٥، ص٢٣.

[٢٥] آل عمران: آية١٧٨.

[٢٦] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣١٩.

[٢٧] الأحزاب: آية٣٣.

[٢٨] الكوفي، أحمد بن أعثم، الفتوح: ج٥، ص١٧.

[٢٩] الحج: آية٧.

[٣٠] هود: آية٨٨.

[٣١] الكوفي، أحمد بن أعثم، الفتوح: ج٥، ص٢١.
[٣٢] يونس: آية٤١.
[٣٣] أُنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٢٨٩. وأيضاً: ابن كثير، إسماعيل ابن كثير، البداية والنهاية: ج٨، ص١٧٩.
[٣٤] يونس: آية٧١.
[٣٥] الأعراف: آية١٩٦.
[٣٦] في المصدر (لحق). وهو خطأ واضح، والصحيح ما أثبتناه في النص عن بعض المصادر. أُنظر: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٩٧. كما ذكر في الكامل: «يجب لكم عليَّ». ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج٤، ص٦١.
[٣٧] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٢٢.
[٣٨] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص٦.
[٣٩] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٣١. وأيضاً: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج٤، ص٦٧.
[٤٠] المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٨٩.
[٤١] الحج: آية١١.
[٤٢] المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٩٨.
[٤٣] أُنظر: الحر العاملي، محمد بن الحسن، الفوائد الطوسية: ص١٦٣.
[٤٤] نهج البلاغة (خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام): ج٣، ص١٣٦.
[٤٥] الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص٢٢٢.
[٤٦] أُنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ج٢، ص٣٦٠. وأيضاً: القاضي المغربي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار: ج٢، ص٤٧.
[٤٧] القاضي المغربي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار: ج٢، ص٤٩. وأيضاً: النسائي، أحمد بن شعيب، خصائص أمير المؤمنين: ص١٤٨.
[٤٨] الطبري، محمد بن جرير، المسترشد: ص٣٩٣.
[٤٩] الزمر: آية٢٨.
[٥٠] فصلت: آية٣.
[٥١] الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٨، ص١٤٨.
[٥٢] النمازي الشاهرودي، علي، مستدرك سفينة البحار: ج٨، ص٢٠٠.

[٥٣] ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج١٨، ص٧٢.
[٥٤] آل عمران: آية٣٣.
[٥٥] الكهف: آية٩.
[٥٦] الكوفي، محمد بن سليمان، مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ج٢، ص٢٦٧.
[٥٧] الأعراف: آية١٩٦.
[٥٨] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٢٢.
[٥٩] غافر: آية٧١.
[٦٠] الطبري، محمد بن جرير، دلائل الإمامة: ص٧٨.
[٦١] الأحزاب: آية٢٣.
[٦٢] أُنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣٠٦.
[٦٣] المائدة: آية٥.
[٦٤] البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن: ج١، ص٢٣٢.
[٦٥] أُنظر: الطباطبائي، محمد حسين، القرآن في الإسلام: ص٥٢. الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٤٢.
[٦٦] أُنظر: الطباطبائي، محمد حسين، القرآن في الإسلام: ص٥٢.
[٦٧] الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج٥، ص٢١٨.
[٦٨] العيّاشي، محمد بن مسعود، تفسير العيّاشي: ج٢، ص٢٠٣.
[٦٩] المصدر السابق: ج١، ص١٠.
[٧٠] المصدر السابق: ج٢، ص٢٠٣.
[٧١] أُنظر: الكوفي، أحمد بن أعثم، الفتوح: ج٥، ص١٧

مطالعات معرفية

السيّد محمّد الموسوي
باحث اسلامي/ العراق

الخلفيّات المعرفية للمستشرقين في ترجمة القرآن دراسة نقدية

مقدّمة

انكبَّ المستشرقون الغربيُّون كثيرًا على دراسة القرآن الكريم، من حيث تاريخه، وترجمته، وبنيته، ومضامينه، وأسلوبه، ولغته، واتِّساقه، وانسجامه، وترتيب سوره، وتبيان مختلف تقنيَّات قراءة القرآن، وتفسيره، وتأويله، واختلفوا في ذلك بين باحثٍ موضوعيّ، وآخر جاحدٍ منكرٍ يخدم الأغراض الدينيَّة، والتبشيريَّة، والاستعماريَّة. ومن هنا، فما خلَّفه المستشرقون من ترجماتٍ قرآنيَّة هي ـفي الحقيقةـ عبارة عن تفسيراتٍ وتأويلاتٍ وشروحٍ لمعاني القرآن الكريم، وليست ترجمات حقيقيَّة لهذا الكتاب؛ لأنَّه من الصعب الحديث عن ترجمة مثاليَّة أمينة وصادقة للقرآن الكريم؛ وذلك لأنّ القرآن الكريم كتابٌ معجزٌ بلفظه، ومعناه، ومقاصده التشريعيَّة. لذا، يستحيل ترجمة القرآن الكريم وفق المعنى دون اللفظ؛ لأنَّ

الإعجاز البيانيّ القرآنيّ يكمن في حرفه، وصوته، ومقطعه، وكلمته، ونظمه، وتركيبه، وإيقاعه، وتنغيمه، ومقاصده، ومعانيه. فتبقى ترجمات المستشرقين نسبيَّةً، وناقصةً، وعاجزةً عن المماثلة الكلِّيَّة للنصِّ الأصليّ. لذا من الصعب بمكانٍ الحديثُ عن ترجماتٍ وفيَّةٍ وأمينةٍ للنصِّ المقدَّس؛ بقدر ما يمكن الحديث عن تفسيراتٍ، وتأويلاتٍ مبتسرة خضعت لمقصِّ التصرُّف، والحذف، والنقص، والزيادة، والتغيير، والتلخيص، والتحشية، والتقديم، والتعليق. ومن ثمَّ، يمكن الحديث عن تفسيرات معنويَّة شائبة، ومغرِضة، ومضلِّلة. بيد أنَّ هناك تفسيراتٍ معنويَّةٍ موضوعيَّةٍ لبعض المستشرقين الذين ترجموا القرآن الكريم إلى لغاتٍ أجنبيَّةٍ معيَّنة، ولكنْ تبقى تلك الترجمات غير كافية للإحاطة ببلاغة القرآن الكريم ونظمه، والتعبير عن جماليَّاته الفنيَّة والبيانيَّة من خلال التأثير في المتلقِّي؛ بغية إثارته وإبهاره وإدهاشه.

إنّ الترجمة كنوع من إعادة خلق النصّ تجعل منها ميدانًا لعكس أفكار الكتّاب والمترجمين على حدٍّ سواءٍ؛ إذ يتعامل المترجم مع شروط تطغى على موقعه أداةً للتواصل، فيتناول مجموعة من الفرضيّات المسبقة ثقافيًّا، سياسيًّا، عقديًّا، وعوامل أخرى مؤثّرة في نقل رسالة النصّ للغة المقصد، ويقوم في عمليّة إعادة الخلق تلك بتحليل النصّ ضمن نطاق أفكاره ورؤيته الخاصّة؛ ليخلق مجموعة من التعديلات والتغييرات فيه على أساس فرضيّاته المسبقة، فيخرج النصّ المترجم في نهاية العمليّة انعكاسًا لمزيج من الأفكار والنزعات؛ وبعبارة أخرى: تركيبًا مزجيًّا من رؤية صاحب النصّ والخلفيّة الفكريّة للمترجم معًا.

وهناك مجموعة من العوامل تدفع المترجم لخلق تعديلات وتغييرات في

النصّ بلغة المقصد، وهي عبارة عن: الموقف الفكري، الفرضيّات المسبقة ثقافيًّا وعقديًّا، فضلًا عن عوامل أخرى مؤثّرة في هذا السياق. فالمترجم يرى في النصّ المراد ترجمته بيئة مؤاتية لإسقاط أفكاره الخاصّة، ناهيك عن تحقيق طموحات وحاجات الخلفيّة الفكريّة التي ينتمي إليها عاطفيًّا وعقديًّا، فينبري لإعادة خلق النصّ. ولهذا فإنّ التأثير في ترجمة النصوص لا سيّما السياسيّة، الفلسفيّة والدينيّة يستدعي مزيدًا من الدقّة والحساسيّة في التعامل معها.

خلفيّة ترجمات القرآن الإنجليزيّة

أوّل ترجمة غربيّة للقرآن تمّت على يد الباحث الإنجليزي روبرتوس ريتننس في القرن ١٢ ميلادي، وذلك عن ترجمة بطرس المبجّل، وانتهى العمل عليها ١١٤٣م، وانتشرت نسخها الخطّية بشكل لافت. وبعد مرور أربعة قرون، طبعت تلك الترجمة في مدينة بازل، وراجعها تئودور بيبليياندر بوخمان من زيورخ. وكانت تلك الترجمة مليئة بالأخطاء وعدم الدقّة وسوء الفهم، ويظهر أنّها كانت مغرضة كتبت بأسلوب الردّ. ومع ذلك اتّخذت أساسًا لأولى الترجمات باللغات الأوروبيّة الحديثة، إذ ترجمت تلك الترجمة للّغات الإيطاليّة، الألمانيّة والهولنديّة على الترتيب.

وفي العام ١٦٤٧م، قام أندريه دوريه بنشر ترجمة فرنسيّة للقرآن...، وفي العام ١٦٨٩م، أصدر ماراتشي ترجمة لاتينيّة أخرى للقرآن مرفقًا بالنصّ العربي، واقتباسات انتقائيّة من مختلف كتب التفسير العربيّة بصورة متعمّدة؛ كي يرسم أسوأ صورة عن الإسلام. وقد تجلّى هدفه المغرض من عنوان المجلّد الأوّل لعمله، إذ حمل عنوان: «ردًّا على القرآن». وهناك العديد من الترجمات الإنكليزيّة

للقرآن الكريم حتّى زماننا المعاصر.

إنّ الضربة التي وجّهها أولئك المترجمون غير المسلمين لصورة الإسلام بقصد أو بدون قصد، دفع الباحثين المسلمين لقبول التحدّي، فانبروا لتقديم ترجمات دقيقة وسليمة عن القرآن باللغات الغربيّة، لا سيّما الإنجليزيّة.

فكانت أوّل ترجمة إنجليزية لمترجم مسلم على يد محمّد عبد الحكيم خان في العام ١٩٠٥م، ثمّ صدرت ترجمة لميرزا حيرت دهلوي في العام ١٩١٩م. وتعدّ ترجمة حافظ غلام سرور من أنفس الترجمات الإسلاميّة والتي صدرت في العام ١٩٣٠م دون أن تكون مرفقة بالنصّ القرآني العربي. وفي عام ١٩٣٠م، صدرت ترجمة إنجليزيّة على يد إنجليزي كان قد أسلم، يدعى مارمادوك بيكتال (حسين عبد الرؤوف، ١/ ٧١ـ٧٢؛ ريتشارد بيل، ٢/ ٩١ـ٩٨؛ قدواني، ١٠/ ٢١٠ـ٢١٢).

أنواع ترجمات القرآن الإنجليزيّة

هناك نوعان من ترجمة القرآن:

النوع الأوّل: الترجمة المعنويّة التي تقوم على تبنّي اللغة القديمة أو النثر القديم فضلًا عن استعمال المحسّنات اللفظيّة أو العبارات الدقيقة، من قبيل ترجمات بيل (١٩٣٧)، بيكتال (١٩٦٩)، أربوري (١٩٨٠)، عبد الله يوسف علي (١٩٨٣). وتلك الترجمات الأدبيّة بمثابة مقاربة ترجماتيّة تتيح للغة النصّ الأصلي أن تحيط بلغة المقصد.

النوع الثاني: الترجمة التواصليّة أو الصحفيّة التي تتيح نقل القرآن إلى اللغة الإنجليزيّة المعاصرة من قبيل ترجمات أكبر (١٩٨٧)، إيرفنغ (١٩٨٥) وترنر (١٩٩٧).

فيرى أكبر أنّ أغلب الترجمات الإنجليزيّة المتداولة للقرآن تعاني من عيوب الترجمة الحرفيّة، ويضيف أنّ تلك الترجمات تقوم على لغة الكتاب

المقدّس الإنجليزيّة القديمة التي تزيد من إبهام معاني القرآن، ناهيك عن تقسيم القرآن إلى أجزاء على هواهم وترقيمها، والتعامل مع كلّ منها كحزمة مستقلّة، وإبرازها على أنّها كذلك، ما يسلبون القرآن حياته وحيويّته.

يسعى إيرفنغ في ترجمة القرآن لتقديم عمل مفيد يسهل فهمه، مستعملًا أبسط الكلمات وأكثرها مباشرةً لنقل رسالة القرآن بسهولة للناشئة المسلمين في هذا القرن، فضلًا عن المهتمّين به من غير المسلمين؛ الأمر الذي دعاه لخلق مفردات مبتكرة وجديدة بالكامل، بالرغم من المشكلات التي تحمّلها من حيث المعنى، وذلك تحاشيًا لاستعمال مصطلحات أكل الدهر عليها وشرب، وتستعمل معانيها في حقول أخرى. وقد دافع إيرفنغ عن مقاربته تلك في الترجمة مدعيًا أنّ الأنواع الأخرى من الترجمة لا تخلق شعورًا بالكمال والجمال في ذهن المستمع أو القارئ.

ويعترف أكبر بصعوبة نقل فحوى أو ما يدعوه بالهالة المعنويّة للكلمة العربيّة إلى اللغة الإنجليزيّة، ما قد يجعل من الترجمة الحرّة أفضل، وذلك من خلال التعامل مع كلّ جملة عربيّة كوحدة مستقلّة لترجمتها إلى الإنجليزيّة.

خلفيّات المستشرقين السلبيّة في ترجمة القرآن (آراء المستشرقين السلبيّة حول الرسول والقرآن)

١. التأثّر بتعاليم الكنيسة والكتاب المقدّس في ترجمة القرآن

سعت أوروبا طوال قرون للتقليل من شأن إنجازات المسلمين وإغفال أعمالهم الحضاريّة، وقد طبع تلك النظرة الأعمال البحثيّة والدراسات هناك (أربري، خدمة وخيانة مترجمي القرآن، ١٤).

لطالما أكّد البروفيسور أربري على ضرورة الإحاطة بمفردات القرآن ومترادفاتها معيارًا لتقييم الترجمة وحسنها. في حين تأثّرت مجموعة من المترجمين بألفاظ الكتاب المقدّس وتعابيره حتّى جعلوا من ترجماتهم للقرآن عرضة للشبهات والسخافة، بينما ضرب آخرون خطوط التفاهم من خلال خلق الشبهات وتشكيك القارئ المسيحي الغربي في القرآن (م. ن). وهذا ما يؤكّده المستشرق الهولندي دوزي الذي يعتبر أنّ الغرب بنى أمره منذ البداية على حالة العداء المتجذّر للإسلام (م. ن).

وفي السياق نفسه يعترف المستشرق الإنجليزي السير دنيستن روس بأنّ معلومات أغلب الغربيّين عن الإسلام طوال عدّة قرون، قامت على روايات محرّفة نقلها مسيحيّون متعصّبون، ما أدّى إلى انتشار مجموعة من الاتهامات التي لا أساس لها، والبعيدة عن الموضوعيّة عنه (م. ن).

ويكتب البروفيسور العربي المسيحي «حتّي» حول القرآن ما يلي: «... كان محمّد يحسد اليهود والمسيحيّين أنّ لهم كتابًا مقدّسًا، فقرّر أن يجعل لقومه كتابًا مقدّسًا أيضًا «(م. ن).

أمّا رادول؛ فبعد تمجيده لشخصيّة الرسول ﷺ وحملته الشديدة على ادّعاءات ماراتشي وبريدو وأراجيفهما النابعة من الحقد والتعصّب، يقول: «إنّ شخصيّة الرسول الجوهريّة كمؤلّف أصلي للقرآن في النظام الإسلامي تقوم على أصلين: الحقيقة والصدق والخير...» (م. ن، ٧٢ـ٧٣).

أمّا كتّاب الكتاب الرسمي لجامعة كامبريدج البريطانيّة «تاريخ الإسلام» فقد عزوا كمّية الآراء السلبيّة التي تبنّاها الغربيّون عن الإسلام إلى الأحقاد الصليبيّة، ورسموا تصوّرًا عن المصاعب التي يلاقيها الباحثون الغربيّون عن الإسلام كما يلي: «لم

يتخلّص بعض القرّاء الغربيّين حتّى الآن من تأثير الأحكام المسبقة عنه، والتي ورثوها عن آبائهم في القرون الوسطى؛ إذ أفرزت مرارات الحملات الصليبيّة وغيرها من الحروب التي شنّت على المسلمين اعتبار المسلمين ولا سيّما محمّد تجسيدًا لكلّ شرّ. ولا تزال آثار تلك الأفكار باقية في نمط تفكير الغربيين عن الإسلام».

٢. عدم سماويّة القرآن واختلاقه من قبل محمّد ﷺ

أصدر الفرنسي أندريه دوريه عام ١٦٤٧م ترجمته الفرنسيّة للقرآن الكريم، لتصدر ترجمته الإنجليزيّة بعد عامين وحملت عنوانًا مغرضًا وعدائيًّا «قرآن محمّد»: «كتاب «قرآن محمّد» ـالذي ترجمه دوريه (المبعوث السياسي لملك فرنسا في الإسكندريّة) من العربيّة للفرنسيّةـ صدر مترجمًا للإنجليزيّة بهدف إسعاد الأشخاص الذين يهتمّون بملاحظة الخزعبلات التركيّة التافهة. أمّا تمهيد الكتاب فهو عبارة عن حياة محمّد رسول الأتراك وجامع ومؤلّف القرآن، فضلًا عن تنبيه ونصيحة موجّهة للباحثين المهتمّين بالتعرّف على الإسلام والقرآن وكيفيّة تأليفه...».

ويلاحظ في المقدّمة مدى حالة العداء، كما أنّ ملاحظات المترجم للقارئ المسيحي زادت منها: «ظهرت في أوساط المسلمين فرق ومذاهب كثيرة اختلقت بدعًا لتدلّ بمجموعها على مدى اتّحادهم ضدّ الحقيقة، ما يكشف بدوره أنّ محمّدًا نفسه كان يتوخّى مثل تلك الوحدة... إن طالعتم القرآن الذي يعدّ أساس عمل دين الأتراك، ستتبرؤون منه؛ إذ رغم ترجمة ذلك القرآن لكافة لغات العالم المسيحي تقريبًا، لم يعتنق أحد الإسلام حتّى الآن، اللهم إلّا إذا أجبروا على ذلك أو تحت حدّ السيف...»...

«أيها القارئ المسيحي، ستجد القرآن عنيفًا بشدّة وذا بناء غير متجانس ومضحكًا للغاية ومليئًا بالتناقضات الكفريّة المهينة للمقدّسات والمشحونة بالعبارات النابية والأقوال المعيبة واللاأخلاقيّة والأساطير الهزليّة...».

نقدٌ على ترجمة «أندريه دوريه»

يرى البروفيسور أربري أنّ مثل تلك التخمينات والتقويمات المتسرّعة عن خصائص القرآن تدعو للاستغراب ناهيك عن كونها مغرضة ونابعة من التعصّب، ما يجعل من ترجمة «أندريه دوريه» تجافي الحقيقة والصحّة والصدق؛ ويمكن ملاحظة قصوره في فهمه للآيات ٢٣ـ٢٩ من سورة يوسف حول إغواء امرأة العزيز ليوسف.

ترجمة «جورج سيل» للقرآن

بيّن جورج سيل موقفه في مقدّمة ترجمته القرآنيّة كما يلي: «اتّخذ مترجمو القرآن السابقون موقفهم السيّئ من الإسلام استنادًا لوجهة النظر المسيحيّة أو تعصّبًا لحكم مسبق؛ فقد كان أساس ما انطلقوا فيه حول الإسلام والقرآن خاطئًا، كما أنّهم لم يكونوا يشعرون بالخطر عند تقديم مثل تلك الأدلّة المختلقة والمجعولة... يبدو وكأنّ هناك عاملًا أبعد من تصوّرات العامّة الدينيّة جعلت الإسلام يحقّق مثل ذلك الانتشار العجيب خلال مدّة قصيرة.

إنّ الترجمة المنصفة للقرآن ضرورة ملزمة ومفيدة؛ إذ يمكن لمثل هذا العمل أن يتمّ مع الحفاظ على كامل الاحترام والتقدير لذلك الكتاب، ناهيك عن دوره في التوعية بالأفكار المتعصّبة التي تتبدّى في الترجمات المتعصّبة والجاهلة والمتحيّزة الناشئة عن الجهل، والتي تمّ تقبّلها كحقيقة واقعة. وتلعب تلك المبادرة التوعويّة دورًا فاعلًا في فضح مكر المترجمين

وخداعهم في سياق مواجهة فعّالة مع خداع تلك الجماعة ومكرها... لا سيّما وأن الكتّاب التابعين للكنيسة الكاثوليكيّة بذلوا كلّ ما بوسعهم حتّى الآن في سبيل التصدّي للإسلام وتكذيبه، والحال أنّ مذهبهم مليء بالخرافات والصنميّة، وهم مع ذلك يدافعون عنها... والوحيدون الذين يمكنهم استهداف القرآن بنجاح هم البروتستانت الذي أعتقد جازمًا أنّ إرادة الرب اقتضت تسجيل ذلك الفخر باسمهم».

ترجمة رادول للقرآن

تعتبر ترجمة رادول صرخة واضحة ضدّ الكيديّة والعدائيّة المتعصّبة التي طبعت القرن السابع عشر؛ إذ بالرغم من جزمه بأنّ القرآن حصيلة أفكار محمّد الشخصيّة، إلّا أنّ تصوّراته وانطباعه عن شخصيّة الرسول لم تخل من مدح وتقدير، ولا سيّما خصاله الأخلاقيّة.

يرى رادول أن قضيّة صدق محمّد كرسول لله خاضع للجدل والبحث؛ إذ لو كان أميًّا كما يدّعي المسلمون لكانت النتيجة هروبًا من المشكلة. لأنّ أميّته لا يمكنها أن تؤيّد مدعاهم بإعجاز القرآن الخالد كما يزعمون.

نقد رأي رادول

إنّ قضيّة نزول القرآن وخلوده لا تتعارض البتّة مع أميّة الرسول؛ إذ لو كان الأمر غير ذلك لكان يدعو للاستغراب. فيحاول عدد من المستشرقين رسم صورة عن محمّد وكأنّه غير أمي؛ كي يثبتوا أنّه تلقّى العلوم من شخص ما، ومن ثمّ تفرّغ لدراسة التوراة والإنجيل، ليظهروا القرآن وكأنّه حصيلتها، وتعاليمه خليط مقتبس من تعاليم اليهود والمسيحيّة. علمًا أنّ الرسول بشهادة كلّ من عاصره منذ طفولته حتّى من

مخالفيه، فشلوا في العثور على أصغر دليل وأثر عن تعلّم الرسول عند أحد من البشر. وهذا دليل على أنّ القرآن نزل عليه من الله بوساطة الوحي...

يقول ريتشارد بيل في هذا السياق: «لعلّ ادّعاء محمّد أنّه رسول الله يتلقّى الوحي من الله كي يدعو قومه العرب للإسلام، يجعله عرضة للإنكار والتخطئة؛ إذ نلاحظ من القرآن نفسه أنّ مشركي مكّة كانوا يطلقون على رسائل الوحي القرآنيّة «أساطير الأوّلين» وكان يهود المدينة يسخرون من الرسول في ادّعاء النبوّة. وقد اعتمد الباحثون المسيحيّون على ذلك الردّ والإنكار حتّى ساد اعتقاد راسخ في أوروبا في القرون الوسطى بأنّ محمّدًا كان رسولًا كاذبًا...»

خطا توماس كارلايل الخطوة الأولى نحو تعديل ذلك الانطباع؛ إذ استهزأ بفكرة نسبة الكذب لمؤسّس أحد أكبر أديان العالم. وقد تلقّى من جاء بعده من الباحثين تلك الفكرة بالقبول، فسعوا لإثبات صدق النبي محمّد وإخلاصه، لكنّهم كانوا يبرّرونه بالتشكيك في سلامة الرسول عقليًّا؛ إذ ادعى غوستاف ويل أنّه كان مصابًا بالصرع، بينما ذهب الفيز اشبرنجر بعيدًا حين نسب للرسول ذلك المرض فضلًا عن الهيستيريا.

أمّا تيودور نولدكه فقد دفع احتمال إصابة الرسول بالصرع، لكنّه وصفه بالشخص الواقع تحت تأثير عواطف وأحاسيس جيّاشة لا إراديّة، ما دعا لادّعاء الارتباط بالغيب والألوهيّة، مع التأكيد على الاعتقاد بصدق الرسول وحسن نيّته وإيمانه وإخلاصه....

٣. خرافيّة بعض قصص القرآن

يقول المؤرّخ المعروف إدوارد غيبون حول القرآن ما يلي:

«لا يعثر القارئ الأوروبي غير المسلم على أدنى دافع لإثارة أحاسيسه

في القرآن... إن كانت صياغة القرآن أعلى من الطاقات الإنسانيّة، فكيف بالتحفتين الأدبيّتين الإنسانيّتين الإلياذة وخطب ديموستن؟».

٤. اضطراب النصّ القرآني وإبهامه

يقول توماس كارلايل عن النصّ القرآني ما يلي: «لم أر في حياتي كتابًا شاقًّا ومملًا ومضطربًا ومبهمًا وناقصًا من غير تنظيم وترتيب كالقرآن. ومع ذلك لا دافع لشخص أوروبي كي يفكّر فيه سوى الإحساس بأداء الواجب».

٥. عدم أميّة الرسول واقتباس القرآن من العهدين

أمضى العالم المسيحي اللبناني يوسف درّة حدّاد أكثر من عقدين من الزمان، وهو يقارن بين آيات القرآن والتوراة؛ كي يأتي بشواهد من الآيات على اقتباس القرآن من التوراة، فضلًا عن آيات تؤكّد عدم بعثة الرسول وإنكار نزول الوحي عليه، وكانت حصيلة جهوده كتاب «دراسات قرآنيّة». وكان أهمّ كتب له في تلك السلسلة كتاب «القرآن والكتاب» في ثلاثة مجلّدات، والذي كان الهدف منه إثبات أنّ القرآن مقتبس من التوراة، معتبرًا أنّ مفردة الكتاب في القرآن تشير إلى التوراة.

٦. أسلوب الاتّباع المفرط للألفاظ وسياق عبارات القرآن (الترجمة الحرفيّة) في الترجمة

ويمكن اتّخاذ ترجمة ريجيه بلاشر الفرنسيّة للقرآن نموذجًا للترجمة الحرفيّة ما يجعل العبارات مبهمة، ويعود ذلك لالتزامه بالعلميّة المفرطة ومقاربة القضايا الدينيّة بلغة الأرقام.

٧. القرآن وثيقةً تاريخيةً لنبوّة محمّد

يعتبر المترجم الألماني المعروف والباحث في الشأن القرآني رودي بارت من أبرز مترجمي القرآن للغة الألمانيّة؛ إذ

نالت ترجمته من الاهتمام ما أعيد طبعها مرّات عديدة في كثير من الدول.

ومن مزايا عمله دقّة فهم الآيات وترجمتها، غير أنّه يرى في القرآن وثيقة تاريخيّة على نبوّة محمّد كما صرّح في مقدّمة ترجمته الألمانيّة وكتابه (كتاب محمّد والقرآن) ويؤكّد على أنّ صعوبة فهم الآيات تنحلّ بالرجوع لسائر الآيات. كما تمتاز تلك الترجمة الألمانيّة بالتركيز على الترجمة الصحيحة من خلال تقديم الإيضاحات وتحاشي استعمال اللغة الأدبيّة والشعريّة على حسابها. وبالرغم من نقاط قوّة الترجمة، إلّا أنّها لا تخلو من نقاط ضعف أيضًا.

خلفيّات المستشرقين الإيجابيّة في ترجمة القرآن (آراء المستشرقين الإيجابيّة حول شخصيّة الرسول ﷺ والقرآن)

من بين المستشرقين هناك مجموعة اتّخذت جانب الإنصاف والموضوعيّة في مقاربة الإسلام، ومنهم: توماس كارلايل الإنجليزي، والشاعر الألماني غوته، وجان ديون بارت مؤلّف كتاب «عذر التقصير تجاه محمّد ﷺ» والدكتور توماس بالنتين الذي اعتنق الإسلام لاحقًا، وآن ماري شميل، وعشرات الشخصيّات المنصفة الأخرى.

أمّا البروفيسور أربري فيقوم بدراسة ونقد وتحليل ترجمات القرآن للغات الأوروبيّة واستعراض نقاط قوّتها وضعفها.

يقول مارمادوك بيكتال ـ الأديب الإنجليزي المعروف الذي اعتنق الإسلام لاحقًا ـ عن القرآن وترجمته:

«إنّ الهدف من تأليف هذا الكتاب (ترجمة القرآن) أن يفهم القارئ الإنجليزي طبيعة إدراك مسلمي العالم لكلمات القرآن وماهية ذلك الكتاب السماوي. ولا يمكن القيام بهذه الحركة «التفهيميّة» بمجرّد استخدام لغة مبتذلة وموجزة

وقاصرة، بل ينبغي تبنّي نظرة عميقة تغطّي مساحة تلبية حاجات المسلمين الناطقين باللغة الإنجليزيّة. ولعلّ من المنطقي النقاش بأنّه لا يمكن تقديم كتاب مقدّس والتعريف به بوساطة فرد لا يؤمن به غير مكترث بتعاليم ومحتوى رسالته، لذا يعدّ هذا العمل أوّل ترجمة إنجليزيّة للقرآن قام بها مسلم ناطق بالإنجليزيّة... وهذه الترجمة (الكتاب) حرفيّة تقريبًا، لم أربأ فيها عن بذل أقصى جهد لاختيار أنسب الألفاظ بما يناسب المقام. ولكن مع ذلك كلّه، فإنّ هذه الترجمة لن تكون بمستوى القرآن المجيد الذي يترك تأثيرًا سيمفونيًّا فريدًا يحرّك الأفراد بألحانه وموسيقاه الروحيّة، ويجعل الدموع تسيل من مآقيهم، ويهزّ قلب الإنسان بلحنه المعجز والسماوي...» (أربري، ٨٤ـ٨٦؛ منافي أناري، ٣ـ٤/ ٣٨).

رأي البروفيسور أربري حول ترجمات القرآن

«... ليس من الصعوبة بمكان على الباحث تشخيص الوتيرة المملّة والجامدة لكلّ الترجمات التي طبعت بأسلوبها ترجمات القرون الممتدّة من السابع عشر حتّى العشرين؛ إذ يلاحظ في تلك الترجمات طغيان النزعة العاطفيّة مع إيمان أعمى واستعبادي موجّه للتعامل مع مجرّد ظاهر اللفظ فحسب، ولطالما كانت الضابطة الحاكمة على تلك الترجمات الاكتفاء بالتعامل مع ظاهر الألفاظ وإهمال كلّ ما يتطابق مع عكس روح المعنى...».

ويضيف البروفيسور أربري حول ترجمته: «ما دعاني لاختيار عنوان كتابي «القرآن مترجمًا»، اعتقادي أنّ الكتاب يعتبر جيّدًا ومفيدًا ومناسبًا لفهم رؤية الفرد المسلم العادي، والملتزم والطيب، في سبيل تلبية حاجاته الروحيّة والمعنويّة...».

ويرى بيكتال ـرغم إحاطته بالقرآن واللغةـ أنّ القرآن عصيٌّ على الترجمة؛ إذ يمتاز بخطاب فريد ولحن عربي خاصّ به، حتّى ليبلغ من القوّة والتأثير؛ بحيث يثير دوافع الإنسان ومشاعره إلى حدٍّ لا يمكن وصفه أو تصوّره، ما يجعل من ترجمته ـمهما كانت من القوّة والدقّة والعمقـ نسخةً ضعيفةً وباهتة عن نور النصّ الأصليّ... وما دعاني لتقديم ترجمة جديدة له، تعويض النقص الذي عانت منه الترجمات السابقة لناحية إبراز فصاحته وبلاغته ولحنه المسجّع، التي تكشف بمجموعها عظمة ذلك الكتاب وجلاله وعلوّه...

أمّا البروفيسور ألفرد غيوم المتخرّج في جامعة أكسفورد البريطانيّة، فيقول في كتابه «الإسلام» (ط، لندن، ١٩٥٤م): «القرآن من الكتب العتيقة في العالم والذي لا يمكن ترجمته، وإلّا لَتمّ الإقلال من أهميّته ومكانته كثيرًا؛ فللقرآن لحنه الخاصّ الشجيّ الذي يبعث على موسيقا تؤنس السمع، حتّى مجّد أسلوبه كثير من المسيحيّين العرب، ومدح فصاحته وجماله الأسلوبي العديد من المستشرقين المحيطين باللغة العربيّة وآدابها...».

غنى آيات القرآن معرفيًّا ونورانيّتها من منظور توماس كارلايل

يقول توماس كارلايل حول القرآن: «ترجمة القرآن للّغات الأخرى تُفقِده كثيرًا من جماليّات النصّ العربي القرآني. ولا يمكن لأوروبي أن يستفيد منها كما يفعل القارئ العربي من قراءة النصّ الأصلي؛ فالأوروبي، حين يقرأ صفحات جريدة ما، وهي مكتوبة بأسلوب واضح، يتوخّى تجاوز كثيرٍ من العبارات كي يركّز على المواضيع المفيدة، فكيف بالقرآن الذي تتضمّن كافّة آياته كلّ ما هو مفيد...

إنّ آيات القرآن ـ خلافًا للأحكام الخاطئة التي صدرت حولها من قبل البعض من أمثال برادي ـ هي شرارات نور أطلقتها روح محمّد الطاهرة في خلواته الساكنة. وطالما خرجت من القلب فهي تمسّ القلب قطعًا» (كارلايل، ٨٣ـ٨٥).

الاعتراف بالتقصير من مقام محمّد ﷺ والقرآن من قبل «دافنبورت»

يكتب المستشرق الإنجليزي جون دافنبورت في مقدّمة كتابه القيّم (AN APOLOGY FOR MOHAMMAD AND KORAN) (صدر في العام ١٨٦٩) ما يلي:

«الدراسة الحالية محاولة لتطهير سيرة محمّد من بقع الاتهامات الكاذبة والافتراءات الظالمة التي ألصقت به، دفاعًا عن صدق دعواه، باعتباره أحد أكبر المصلحين والخيّرين في تاريخ البشريّة... وعلينا اعتباره الشخصيّة الأبرز والشخصيّة الفريدة الوحيدة التي يمكن لقارة آسيا كلّها أن تفتخر بابنٍ مثله...».

أمّا في فصل «القرآن والأخلاق»، فيكتب حول القرآن ما يلي:

«... القرآن هو المثل الأعلى للّغة العربية؛ فهو غنيّ بأزهى أشكال التشبيهات وأكثرها إحكامًا. لم يمنع إبهامه وميله للبسط والتفصيل من إبراز قوّته وتأثيره وعمقه وعلوّه؛ وقد شكّلت بمجموعها تلك المعاني التي جذبت غوته الألماني إليها كي يقع تحت تأثيرها...».

ويضيف: «القرآن مجموعة قوانين تغطّي مساحة واسعة بدءًا من واجبات الحياة اليوميّة حتّى الطقوس الدينيّة، ومن تزكية النفس حتّى المحافظة على الصحّة والسلامة، ومن الحقوق العامّة حتّى الحقوق الفرديّة، ومن المصالح الفرديّة حتّى المصالح العامّة، ومن

الأخلاقيّات حتّى الجنائيّات، ومن العقوبات في هذا العالم حتّى الجزاء والحساب في الآخرة».

اعتراف ويليام مونتغمري وات بصدق محمّد حول نزول الوحي

وقد انبرى للدفاع عن الرسول في كتابه (محمّد في المدينة) ورفض حملات المنظّرين الغربيّين العدائيّة عليه في اتّهامه بصدقه بادّعاء النبوّة ونزول الوحي عليه.

أمّا المستشرق والمترجم الفرنسي بارتلمي سنت هيلر، فقد مدح في كتابه «محمّد والقرآن» الذي صدر في العام ١٨٦٥م الأسلوب القرآني وبيانه المعجز، وأضاف: «إذا ترجم القرآن ذهب القسم الأعظم من ملاحة كلامه وقدرته الخاصّة على التأثير، وأصيب لحن كلامه الموزون الدافئ بالبرود، ومع ذلك تتسلّل أنواره من خلال غيوم الترجمة الداكنة...».

فرضيّات المستشرقين حول مصدر القرآن

تعدّدت آراء المستشرقين الغربيّين حول تحديد منبع القرآن ومصدر آياته، يمكن إيجازها بالآتي:

١. وحيانيّة القرآن

صرّح بعض المستشرقين الغربيّين من أمثال: الدكتور موريس بوكاي الفرنسي، جان دافنبورت الإنجليزيين، بأنّ الوحي الإلهي هو مصدر القرآن، وقد نزل على الرسول محمّد ﷺ بوساطة جبريل. وقد اعتنقت هذه الفئة الإسلام نتيجة ما توصّلوا إليه حول القرآن والرسول بعد دراسات معمّقة.

٢. إلهيّة القرآن دون وحيانيّته

أيّدت مجموعة أخرى من الباحثين القرآنيّين غير المسلمين من أمثال: البروفيسور هنري كوربن، الفرنسي

شايغان، إيزوتسو الياباني، توماس كارلايل الإسكتلندي، وجرجي زيدان المسيحي، أنّ معارف القرآن وتعاليمه من العلوّ والرقيّ والمطابقة مع التعاليم الإلهيّة بحيث تدفع للجزم بارتباط ذلك الكتاب بالله والسماء، ما أنقذ عرب الجزيرة في البداية، وكان عاملًا لسعادة مليارات المسلمين طوال التاريخ. إلّا أنّهم تحاشوا التصريح بنزول الوحي على محمّد ﷺ، ما دعاهم لعدم التسليم بوحيانيّة القرآن، ولم يعترفوا بالإسلام كآخر الأديان السماويّة، وبالتالي لم يعتنقوا الإسلام كسابقيهم.

٣. نظريّة النبوغ

رفض مجموعة أخرى من المستشرقين تقبّل قضيّة وحيانيّة القرآن وإلهيّته، لكنّهم اصطدموا بواقع جامعيّة المعارف القرآنيّة في كلّ أبعاد حياة البشر ما يفوق طاقات البشر وقدراتهم العقليّة، وذلك من شخصٍ أمّيٍّ وسط جزيرة العرب المتخلّفة، ما اضطرّهم لطرح نظريّة النبوغ؛ فتعاملوا مع الرسول باعتباره نابغة بل أعظم نوابغ التاريخ البشري، ولهذا استطاع دون مدد سماوي أن يؤسّس لثاني أكبر دين عالمي يلبّي حاجات أتباعه قانونيًّا وعقديًّا.

ومن هؤلاء المستشرقين من فرضت عليه قلّة المصادر المتاحة التوصّل إلى هذه النتيجة، علمًا أنّ أعمالهم تتميّز بأسلوب ناقد منحاز حيالَ التعامل مع وحيانيّة القرآن.

بينما هناك فئة أخرى مغرضة تجاهلت عمدًا كلّ الأدلّة والإثباتات على وحيانيّة الكتاب وسماويّته؛ لعدم تحمّلهم أن يأتي شخص أمّيّ بكل تلك المعارف التي أثبتت بطلان التوراة والإنجيل وخرافيّتهما....

خدعة تبديل اسم دين الإسلام بالمحمّديّة

سعى بعض المستشرقين لاستبدال اسم الإسلام بالمحمّديّة؛ وذلك للإيحاء بأنّ تعاليم الإسلام ليست سوى تعاليم محمّد الشخصيّة، وقد تفتّقت من بنات أفكاره تحاشيًا لربط الإسلام بالوحي وتبريرًا لإلصاق التهم والافتراءات الواهية بالرسول ﷺ، ويشير إدوارد سعيد لذلك الأسلوب والغاية منه، بالقول: «دعوا الإسلام باسم «الدين المحمّدي» أو «المحمّديّة (MOHAMMAIANISM)»...

مجموعة عناوين كتب بعض المستشرقين في ردّ نبوّة الرسول ﷺ ووحيانيّة القرآن

the Originality of the Arabian Prophet. By: Fueck .

Mohamad ،the Man and his Faith. By: to Andrea .

The Influence of Islam on Medieval Europe. By: Watt .

Western Views of Islam in the Middle. By: southern .

The Problem of Mohammed. By: Blachere .

Mohammad. By: M. Cook .

Mohammadism. By: H. A. Gipp .

Muslim Studies. By: ignaz Goldziher .

New Light on the life of the Mohammad. By: Guilume .

Mohammad. By: MaximeRodison .

The Origins of Islam in the Christain Environment. By: Bell .

The Jewish Foundation of Islam. By: Torre. N. Y. M .

Die biblischenErazblungen in Qoran. By: Speyer .

٤. اقتباس القرآن من التوراة والكتب السماويّة السابقة

حاول بعض المستشرقين الفرار من الاعتراف بوحيانيّة القرآن نتيجة جامعيّة معارفه، فطرحوا احتمال اقتباس القرآن من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السابقة، وعملوا على استخراج الشواهد التي تؤيّد رأيهم، ووضعوا الكتب والمقالات في هذا الخصوص؛ إذ قضى الباحث اللبناني المسيحي يوسف درّة حدّاد أكثر من عقدين من الزمان بحثًا عن الشواهد والأدلّة من النصّ القرآني لإثبات تلك النظريّة، فألّف ٨ كتب في هذا الخصوص.

٥. ثقافة العصر

سعى عدد من المستشرقين أن يربطوا مصدر القرآن وآياته بالثقافات والعقائد والتقاليد والأديان والمعارف، التي كانت سائدة في الجزيرة العربيّة بالتزامن مع حياة الرسول ﷺ هناك.

وقد ادّعوا أنّ الرسول استطاع بذكائه ونبوغه الخارق أن يجمع ما بقي من تعاليم الأديان والعقائد السالفة من توحيديّة وغيرها، بعد أن تعلّمها؛ ليقوم بإعادة تنظيمها وترتيبها وإصلاحها كي يخرجها باسم دين جديد سمّاه الإسلام.

وقد تبنّى عدد من الكتّاب المسلمين تلك النظريّة، وروّجوا لها باسم التجديد الديني، فعملوا على إثبات موقفهم من خلال الاستناد لبعض الآيات القرآنيّة، غافلين عن أنّهم بمساعاهم ذلك يستأصلون شجرةً يجلسون على أحد أغصانها.

الخاتمة

١. لقد دخلت حركة ترجمة القرآن ضمن المخطّط الغربيّ الذي يهدف إلى ترجمة الجوانب التي يراها مشرقة في تراثنا الفكريّ والعقديّ والحضاريّ، وذلك باسم المنهج العلميّ وخدمة الحقيقة العلميَّة، ولكنَّ هذا الاتِّصال العلميِّ العميق بالإسلام حضارةً وعقيدةً وشريعةً وتراثًا لم يكنْ له تأثيرٌ عميقٌ في تغيير النظرة الغربيَّة للصورة العقديَّة أو الإلهيَّة أو التاريخيَّة للإسلام، بل على العكس من ذلك، زاد هذا الاتِّصال في تعميق كراهة وسخط الغرب من الإسلام، فتفنَّنوا في ابتداع الوسائل والإمكانيَّات لمحاربته، وكأنَّما تلك الدراسات للإسلام وُضعت لخدمة تلك الإمكانيَّات والوسائل».

٢. لم يكنْ الهدف المبتغى والرئيس من ترجمة معاني القرآن الكريم عند المستشرقين ـدائمًاـ هدفًا علميًّا ومنهجيًّا وأكاديميًّا ومعرفيًّا وثقافيًا فحسب، بل كانت هناك أهدافٌ دينيَّةٌ، ولاهوتيَّةٌ، وتبشيريَّةٌ، وتنصيريَّةٌ، واستعماريَّةٌ، وبراجماتيّة.

٣. هناك نوعان من الترجمة الإنجليزيّة للقرآن: الترجمة المعنويّة التي تعتمد على النثر العتيق وكثافة المحسّنات اللفظيّة والتعابير المستدقّة، والترجمة التواصليّة التي تتيح نقل القرآن للّغة الإنجليزيّة المعاصرة والإعلاميّة البسيطة.

٤. من خلفيّات المستشرقين السلبيّة في ترجمة القرآن: التأثّر بتعاليم الكنيسة والكتاب المقدّس، عدم إلهيّة القرآن واختلاقه من قبل محمّد، خرافيّة بعض قصص القرآن، إملال النصّ القرآني وإبهامه، تعلّم الرسول واقتباسه القرآن من العهدين، القرآن مجرّد وثيقة تاريخيّة على نبوّة محمّد، خشونة أحكام القرآن، تعارض بعض نصوص القرآن مع العلم، الإساءة

للمرأة في القرآن، دعم القرآن للعبوديّة.

٥. من خلفيّات المستشرقين الإيجابيّة في ترجمة القرآن: غنى الآيات القرآنيّة معرفيًّا ونورانيّتها، القرآن هو المثل الأعلى للّغة العربيّة وجامع للمعارف الإلهيّة والأخلاقيّة والقوانين المنظّمة لحياة البشر، صدق محمّد في ادّعاء نزول الوحي القرآني عليه.

٦. من فرضيّات المستشرقين حول مصدر القرآن: وحيانيّة القرآن، إلهيّته دون وحيانيّته، نظريّة النبوغ، اقتباس القرآن من التوراة والكتب السماويّة السابقة، ثقافة العصر.

لائحة المصادر والمراجع

ألف. الكتب

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ أربري، أرتور جان، خدمة وخيانة المترجمين للقرآن (نقد أداء المترجمين الأوروبيين)، ترجمة وتحقيق: محمّد رسول دريايي، طهران، ١٣٨٣ش.

٣ـ تاريخ الإسلام، ترجمة أحمد آرام، طهران، ١٣٧٨ش.

٤ـ سلماسي زادة، جواد، تاريخ ترجمة القرآن في العالم، طهران، ١٣٦٩ش.

٥ـ زماني، حسن، المستشرقون والقرآن، قم، ١٣٨٥ش.

٦ـ بورت، جان ديون، عذر التقصير من محمّد صلى الله عليه وآله والقرآن، ترجمة: غلام رضا سعيدي، قم، ١٣٧٤ش.

٧ـ وات، ويليام مونتغمري، محمّد في المدينة، تعريب: شعبان بركات، بيروت، لا تا.

٨ـ شايگان، داريوش وبرهام، باقر، هنري كوربان، طهران، ١٣٧١ش.

٩ـ سعيد، إدوارد، الاستشراق، ترجمة: عبد الرحيم، طهران، ١٣٧١ش.

ب. مجلّات

١. عبد الرؤوف، حسين، دراسات في الترجمة القرآنيّة (ترجمه پژوهى قرآنى)، ترجمة: بهاء الدين خرمشاهي، ترجمان وحي، العدد ١، السنة ٩.

٢. بل، ريتشارد، مقدّمة على ترجمة القرآن، مراجعة ويليام مونتغمري وات، ترجمة: بهاء الدين خرمشاهي، ترجمان وحي، العدد ٢، السنة ١.
٣. مقدّمة على ترجمة القرآن، مراجعة ويليام مونتغمري وات، ترجمة: بهاء الدين خرمشاهي، ترجمان وحي، العدد ٢، السنة ٥.
٤. إ. ر. قدواني، موجز معجم الترجمات الإنجليزيّة للقرآن الكريم، ترجمة: علي حقّي، العدد ١٠، السنة ٣.
٥. حديدي، جواد، نقد على ترجمة بلاشر، ترجمان وحي، العدد ٢، السنة ١.
٦. منصوري، مسعود، نظرة على بعض نقاط قوّة وضعف، ترجمة: رودي بارت، ترجمان وحي، العدد ٢، السنة ٤.
٧. منافي أناري، سالار، نظرة على الترجمات الإنجليزيّة للقرآن الكريم، ترجمة، العددان ٣ و٤، السنة ٢.

أ. د. محمد كاظم حسين الفتلاوي
باحث وأكاديمي / جامعة الكوفة

مظاهر التوحيد والنبوّة في خطبة السيّدة الزهراء عليها السلام

الكلام مفتاح شخصيّة المتكلّم، والمُعبِّر عن سماته وأفكاره، فهو الكاشف عنها، وهو المرآة العاكسة لثقافة الخطيب الفكريّة، وبراعته الحواريّة وقابليّته التصويريّة، بوصف الأخير وسيلةَ الخطيب في تمثيل العواطف والأفكار التي تختلج في الصدور.

والقرآن الكريم حمل في آياته كلّ المعاني السامية المعبّرة عن المقاصد الكريمة التي خاطبت الوجدان الإنساني، والعقل البشري؛ لتنظيم الحياة في منهجٍ جمع كلّ أساليب الوصول إلى الحقّ سبحانه، وخير مَن تمثّلت فيهم هذه المقاصد هم الذين آمنوا، ومعلوم أنّ سادات المؤمنين ورأسهم هم العترة الطاهرة عليهم السلام، فكان البحث ها هنا في خطبة السيّدة الزهراء عليها السلام؛ فهي ربيبة القرآن والحلقة الموصولة بين النبوّة والإمامة، وهي كما ورد عن مولانا صاحب العصر والزمان الإمام المهدي عليه السلام، في قوله: «وفِي ابْنَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله لِي أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»[1].

ولهذا السبب كان اختيار عنوان البحث: (مظاهر التوحيد والنبوّة في خطبة السيّدة الزهراء عليها السلام في ضوء آيات القرآن الكريم) للوقوف على معاني التوحيد والنبوّة من خلال الخطبة الفدكيّة، والتوظيفات القرآنيّة، وبما أوضحته أقوال المفسِّرين في فهم النصّ القرآني لمعاني (التوحيد والنبوّة).

أهميّة البحث: يرى الباحث أنّ كثيرًا من الباحثين قد تناول أصول الدِّين على وفق نظريّات علم الكلام وقواعده، وآراء الرجال وأصولهم، والمدارس العقديّة وضوابطها، وقد داخل الأمر شيءٌ من التعقيد والغموض، إلّا إنّ الرجوع إلى المنبع الأصيل، واللفظ الصريح المتمثّل في القرآن الكريم وسُنة المعصوم عليه السلام في بيان التوحيد والنبوّة له ذوقه الخاص، ونفعه المثمر على المتلقّي من حيث مخاطبة الجانب النفسي الوجداني، وهذا بطبيعة الحال لا يقلل من شأن البحوث والدراسات التخصّصيّة، ولكن بحثنا ـ كما نبّهنا سابقًا ـ قصر القول على خطبة السيد الزهراء عليها السلام، والنص القرآني، وأقوال المفسِّرين.

هدف البحث: للبحث أهدافٌ عدّة، من أهمّها التأكيد والتذكير بالحقّ العظيم لأصل التوحيد وأصل النبوّة، وبيان مكامن الجانب التربوي في كلام السيّدة الزهراء عليها السلام من خلال خطبتها الفدكيّة.

منهج البحث: كان المنهج الوصفي التحليلي الذي «يعتمد على تجميع الحقائق والمعلومات، ثم مقارنتها وتحليلها وتفسيرها للوصول إلى تعميماتٍ مقبولة»[٢]، معوّلاً عليه في هذا البحث.

أمّا خطة البحث: فقد كانت من مقدمةٍ ومطلبين، المطلب الأوّل عن التوحيد في كلام السيّدة الزهراء عليها السلام، والمطلب الثاني عن النبوّة في كلام السيّدة الزهراء عليها السلام، متلوةً بخاتمةٍ

وقائمةٍ بالمصادر.

وأخيرًا أسأل الله سبحانه القبول، ومن صاحبة الذكرى الرضا، وأنْ يكون كلّ ما كتبناه محتسبًا شافعًا بقدر ما نرجو لا بقدر ما قدّمنا، فبلوغ الكمال بالعلم بقدر جهدنا لا بقدر حجم العلم وسعته، فالتقصير أمرٌ ملازمٌ لبني البشر، والرجاء حافزُ البقاء. والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

المطلب الأول: مظاهر التوحيد في خطبة السيّدة الزهراء عليها السلام في ضوء آيات القرآن الكريم

معلوم أنّ التوحيد أوّل أصلٍ من أصول الدِّين الحنيف، وبه كانت بعثة الأنبياء عليهم السلام، فكان محور الرسالات السماويّة، والدعوة إلى عبادة الواحد الأحد وطاعته.

والمتمعّن في التوحيد يلحظ أنّه من وجوه الرحمة الإلهيّة؛ إذ لولاه لدب الفساد في الكون لتعدد الإلهة، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلا الله لَفَسَدَتا﴾[٣]، فكان التوحيد النعمة الأكبر على هذا الكون وما فيه، وهذا بطبيعة الحال يستوجب تنوع الطاعة بتنوع النعم وكيفيتها، وفي هذا المطلب سيكون منطلق بحثنا الموارد التي أشارت إليها السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها الشريفة، من غير توغّلٍ فيما يبعدنا عن هدف البحث، وقيد عنوانه. وعلى النحو الآتي:

أوّلًا: في شكر النعم قالت السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام: «.. الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدّم، من عموم نعمٍ ابتدأها، وسبوغ آلاءٍ أسداها، وإحسان منٍ والاها..»[٤]، في مطلع الخطبة الشريفة نلحظ الاستهلال الإيقاعي الفنيّ، فتدور «معاني مفردات فواصل وقفها على ذات المحمود المشكور المنعم الملهم المقدِّم...، وقد اعتمد هذا الاستهلال على ركنين أساسين هما

الإيقاع والدلالة، وبهما يُستجلب ذهن المخاطَب نحو استقبال النصّ»[٥]، والذي يعنينا من نص الزهراء عليها السلام هنا هو الأثر القرآني في مضمونه، فكلّ معاني مفردات أنعم، وألهم، وقدّم، ابتدأها، وأسداها، ووالاها..، هي معانٌ نابعةٌ من مضامين قرآنيّة.

فشكر الله وحمده على ما أنعم من المعاني القرآنيّة التي فاضت بها آيات الكتاب العزيز، وهذا الأمر أيضًا من أدب الأنبياء عليهم السلام، وسلوكهم الرباني فهذا خليل الله ابراهيم عليه السلام يصفه القرآن بأنّه كان: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٦]، فهو عليه السلام، بهذا الشكر قد انماز عن غيره من الذين يجحدون أنعم الله عليهم، ناكرين إيّاها بالقول والعمل؛ لأنّ شكره لله تعالى كان «بالقول والعمل، لا كهؤلاء المشركين الذين يجحدون نعمة الله قولًا، ويكفرونها عملًا»[٧]، وكذلك ما ذكره القرآن الكريم عن نبيّ الله نوح عليه السلام، الذي كان شاكرًا لله سبحانه، ويذكر الله شكره بصيغة المبالغة بمعنى كثير الشكر؛ قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[٨]، والظاهر أنّ السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام لها بُعد آخر غير ما تقدّم من الاستهلال في خطبتها؛ فهي عليها السلام أرادت من القوم تذكيرهم بشكر الله، وذكر إحسانه، وما علّمهم الله عليه من أداء شكر أنعمه، كما خاطبت هذه الآية «بني إسرائيل بأنّهم أولاد مَن كان مع نوحٍ، وعليهم أنْ يقتدوا ببرنامج أسلافهم وآبائهم في الشكر لأنعم الله»[٩].

ومن المعلوم أنّ الله سبحانه قد دعا عباده إلى شكر نعمه، ولكن ليس من باب الحاجة إلى ذلك، بل ليكتسب العباد من خلال الشكر لياقةً أكبر ودرجة أعلى، لتشملهم نعمٌ أوفر.

وفي المضمون ذاته نلحظ الأثر القرآني في كلامها عليها السلام، إذ قالت: «..

جمّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتّصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنّى بالنَّدب إلى أمثالها»[١٠]، وهذه المعاني واضحةٌ في الآيات القرآنيّة، فنعم الله تعالى ممّا لا تُعدّ بأرقام، أو تحدّد بجوانب دون أخرى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[١١]، فهذه الآية الكريمة تنبّه على أنّ «ما آتاهم الله كثيرٌ منه معلومٌ، وكثيرٌ منه لا يحيطون بعلمه، أو لا يتذكّرونه عند إرادة تعداد النعم»[١٢].

فالشكر للنعم التي لا تحصى هو تربية للإنسان اتّجاه المُنعِم عليه سبحانه، وفي هذا الشكر نلحظ فوائد أخرى، منها دفع العذاب وزيادة النِعم علينا، قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ﴾[١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١٤]، والحثّ على زيادة النعم بالشكر المذكور في الآية المتقدّمة نلحظه في قول الصديقة عليها السلام: «وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتّصالها»، فيتجلّى لنا أهمية الشكر، وأثر المضمون القرآني الذي عنته السيدة الزهراء عليها السلام في مستهلّ خطبتها.

ثانيًا: الإخلاص تأويل توحيد الله تعالى: من تجلّيات الألوهيّة لله تعالى توحيده، وعدم الإشراك به، وهذه هي دعوة الأنبياء وفحوى رسالاتهم، وقد وضّحت ذلك نصوص آي الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[١٥]، وقال تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[١٦].

وهذه العبادة التي أرادها الله من عباده هي عدم الإشراك به، وعدم الإشراك هو التوحيد المبني على

الإخلاص، فيكون الإخلاص أساس دعوة الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[١٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[١٨]، فالقرآن الكريم كأنّما حصر أوامر الله لعباده في الإخلاصِ له؛ لأنّه الأساس والركن والركين، وهذا المضمون نلحظه في خطبة السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام، إذ قالت: «وأشهد أنْ لا إلهَ إلا الله وحدهُ لا شريك له، كلمةٌ جَعل الإخلاصَ تأويلَها، وضمَّن القلوبَ موصولَها، وأنارَ في التفكير معقولَها، الممتنعُ من الأبصارِ رؤيتُه، ومن الألسنِ صفتُه، ومن الأوهامِ كيفيّتُه»[١٩]، ويوضّح الشيخ المجلسي (ت: ١١١١هـ) معنى الإخلاص هنا، فيقول: «المراد بالإخلاص جعل الأعمال كلّها خالصةً لله تعالى، وعدم شوب الرياء والأغراض الفاسدة، وعدم التوسّل بغير الله تعالى في شيءٍ من الأمور، فهذا تأويل كلمة التوحيد؛ لأنّ من أيقن بأنّه الخالق والمدبّر، وبأنّه لا شريك له في الإلهيّة، فحقّ له ألّا يُشرك في العبادة غيره، ولا يتوجّه في شيءٍ من الأمور إلى غيره»[٢٠].

ولهذا المعنى ذهب الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، فقال: «الإخلاص روح التوحيد، وتطهير الروح من دَنس الشرك بالله، ومنح القلب كرهينةٍ لحبّه، والخضوع والخنوع لأمره»[٢١]، فالإخلاصُ الذي أشارت إليه السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام هو الإخلاص ذاته الذي عنته آيات القرآن الكريم، في كونه تصفية القلب من الشوائب التي تكدر النيّة، وتعكّر صفاء القلب، والإخلاص تطهيرٌ للقلب من التعلّقِ بغير الله (عزّ وجل)، وبه تسمو النفوس، وترتفع عن نظرات الناس وإعجابهم، فالمخلِص لله سبحانه وتعالى لا ينتظر

من الناس حمدًا ولا شُكورًا، ولا ينتظر مدحًا ولا ثناءً؛ لأنّ نفسه لا تتوق إلّا إلى مرضاة الله جلّ وعلا، والوصول إلى مغفرته وعفوه.

نعم؛ إنّ التوحيد فضلًا عن كونه أصلاً من أصول الدِين التي لا يمكن للمسلم أنْ يتغافل عنها، فهو كذلك أوّل حقوق الله تعالى على عباده التي يجب عليهم مراعاتها حقّ رعايتها، فقد أشار الإمام السجاد عليه السلام إلى هذا الحقّ في قوله: «فأمّا حقّ الله الأكبر فإنّك تعبده لا تُشرك به شيئًا، فإذا فعلت ذلك بإخلاصٍ جعل لك في نفسه أنْ يكفيك أمر الدنيا والآخرة، ويحفظ لك ما تُحبّ منها»[٢٢].

ولهذا المعنى كانت إشارة السيّدة الزهراء عليها السلام، وبه نبّهت إلى حقّ الخالق على المخلوق، وهي في محل تقريع الخصوم الذين تناسوا جرّاء غفلتهم عن عظمة الله سبحانه، حقّها، فأقدموا على ظلمها، وتجرّؤوا على مقامها.

ثالثًا: ابتداع الخلق لحكمة لا يليق بمن (توحد بالعز والبقاء)[٢٣] أنْ يخلقنا عبثًا من دون هدف؟ وهل يليق به أنْ يخلق سماواتٍ وأرضين، ومجرّاتٍ وكواكب، وشمسًا، وقمرًا، ونجومًا، وليلًا ونهارًا، ثم تكون حياتنا قصيرةً لا تزيد عن ستين سنةً، يمضي نصفها في الإعداد لها إلى أنْ يستطيع الإنسان الزواج والسكنى في بيتٍ مستقلٍّ وتأمين حاجاته في الثلاثينيّات أو في الأربعينيّات من عمره، ثم لمّا أصبح في الخامسة والخمسين ربما تحصل له أزمة قلبيّة، أيعقل أن يكون هذا الكون كلّه لأجل سنواتٍ معدودةٍ؟ أيقبل ذلك عاقل؟ لماذا خلقنا الله عزّ وجلّ؟ لابدّ من هدفٍ يتناسب مع كماله، ولابدّ من هدفٍ يتناسب مع جلاله، ولابدّ من هدفٍ يتناسب مع قوّته؛ ولذلك ربّنا (عزّ وجل) أجاب عن هذا السؤال في آيتين واضحتين، وفي آيات كثيرة أقلّ

وضوحًا، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٢٤].

فالآية تخبر البشريّة أنّ لها موعدًا عظيمًا يمرّ بسلسلةٍ من العقبات فـ«تحسّركم عند معاينة الموت، ثم اللبث في القبور، ثم البعث، فالحساب والجزاء، فهل تظنون إنّما خلقناكم عبثًا تحيون وتموتون من غير غايةٍ باقيةٍ في خلقكم، وأنّكم إلينا لا ترجعون؟»[٢٥].

بل إنّ خلق الخليقة جميعًا من موجوداتٍ ناطقةٍ وصامتةٍ له حكمةٌ وغايةٌ لا تخفى على لبيبٍ مؤمنٍ بالله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[٢٦]، وهنا نلحظ صيغة الاستنكار والتوكيد و«التسفيه لظنّ الكفار بأنّ الله قد خلق السماء والأرض وما بينهما باطلًا واطمئنانهم به، واندفاعهم بتأثيره وراء الفساد والفجور، ثم معنى التوكيد على مصيرهم الرهيب يوم القيامة»[٢٧].

وهذا الملمح في أصل التوحيد نلحظه في كلمات السيّدة فاطمة عليها السلام، إذ قالت: «ابتدع الأشياء لا من شيءٍ كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلةٍ امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيته، من غير حاجةٍ منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلّا تثبيتًا لحكمته، وتنبيهًا على طاعته، وإظهارًا لقدرته، تعبُّدًا لبريّته...»[٢٨]، فالزهراء عليها السلام ضمّنت خطبتها مفاهيم قرآنيّةً جليلةً تمثّل غاية الموجودات، وفلسفة الإيجاد من العدم، والعودة إلى عالم آخر، وبيان قدرته سبحانه في صنع مخلوقاته، الذي قال: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٢٩]، وإنّ كلّ شيءٍ ممّا يُرى وممّا لا يُرى يصدر منه جلّ في عُلاه، قال تعالى: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٣٠].

والمضمون ذاته نلحظه أيضًا في قول الإمام علي عليه السلام: «الواحد الأحد الصمد

الـذي لا يُغـيّره صروف الأزمـان، ولا يتكأّده صنع شيءٍ كان، إنّما قال لما شـاء: كن فكان، ابتدع ما خلق بلا مثالٍ سـبق، ولا تعبٍ ولا نصب، وكلُّ صـانعِ شيءٍ فمن شيءٍ صنع، والله لا من شيءٍ صـنعَ ما خلق»[٣١].

إذًا الحكمة في خلق المخلوقات من لدن الله سبحانه كما لحظنـاه مـن نـصّ السيّدة فاطمة عليها السلام هو للعمل الصالح في الدنيا، ومن ثم العودة إلى الله تعـالى للحساب والسؤال عمّا عمله الإنسان في حياتـه هـذه، قـال تعـالى: ﴿وَمَـا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُـدُونِ مَـا أُرِيـدُ مِـنْهُمْ مِـنْ رِزْقٍ وَمَـا أُرِيـدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾[٣٢]، وقال تعـالى: ﴿الَّـذِي خَلَقَ الْمَـوْتَ وَالْحَيَـاةَ لِيَبْلُـوَكُمْ أَيُّكُـمْ أَحْسَـنُ عَمَـلاً﴾[٣٣]، فجميـع المخلوقات من الذرة إلى العرش سُـبلٌ متصلةٌ إلى معرفته تعالى، وحججٌ بالغةٌ على أزليّته، والكون جميعه ألسنٌ ناطقةٌ بوحدانيّتـه، والعـالم كلّـه كتـابٌ يقـرأ حروف أشخاصه المتبصّرون على قـدر بصـائرهم؛ لأنّ المتبـصّر يعـرف مـن خلالها وحدانيّة خالقه ومليكه، وكماله سبحانه وتعالى، فيزداد حبّه وتعظيمـه وإجلاله له، وتـزداد طاعتـه وانقيـاده وخضوعه له، وهذه من أعظم ثمرات النظر في المخلوقات وعلّة الوجود.

رابعاً: الثـواب والعقـاب وهمـا مـن شأن الباري سـبحانه في خلقـه، ودليـلٌ من دلائل قدرته، ووسـيلةٌ مـن وسـائل التربيـة التـي يعتمـدها القـرآن الكـريم لصيانة المجتمع مـن غوائـل الانحـراف والشذوذ، لتأديب الجاني وللترهيب من الجناية، ولحثّ المؤمن عـلى أنْ يتمسّـك بدينه، ودفعه إلى الاسـتزادة مـن العمـل الصالح رغبةً فيما عند ربّه، ورجاء عفوه ومغفرته، وهذا المعنى نلحظـه في كـلام الصـديقة عليها السلام إذ قالـت: «ثـم جعـل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصـيته، ذيـادةً لعبـاده عـن نقمتـه، وحياشةً[٣٤] لهم إلى جنّته»[٣٥].

وهـذا المعنـى متولّـدٌ عـن الأثـر القرآني في الترغيب في الثـواب، وهـو واضح المعنى في القرآن الكـريم ومنـه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُـوا إِلَى اللهِ تَوْبَـةً نَصُـوحًا عَـسَى رَبُّكُـمْ أَنْ يُكَفِّـرَ عَـنْكُمْ سَـيِّئَاتِكُمْ وَيُـدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَـوْمَ لَا يُخْـزِي اللهُ النَّبِـيَّ وَالَّـذِينَ آَمَنُـوا مَعَـهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَـيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَبِأَيْمَـانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَـا وَاغْفِـرْ لَنَـا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣٦].

وفي مجال الترهيب يقول سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا وَزِينَتَهَـا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَـا لَا يُبْخَسُونَ، أُولَئِكَ الَّـذِينَ لَـيْسَ لَهُـمْ فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَـا وَبَاطِلٌ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ﴾[٣٧]، وفي هذه الآية الكريمـة سُـنةٌ إلهيّـةٌ دائمـة، وهي أنّ الأعمال الصـالحة والمـؤثّرة لا تضيع نتائجها عنـد الله سـبحانه، مـع فارق وهو أنهّ إذا كان الهـدف الأصـلي منها هو الوصول إلى الحيـاة الماديّـة في هـذه الـدنيا فـإنّ ثمراتهـا في الـدنيا فحسـب، وأمّـا إذا كـان الهـدف هـو (الله) وكسب رضاه من خلال طاعتـه فإنّ تأثيرها وثمارها سـتكون في الـدنيا وفي الآخرة أيضًا حيث تكون النتـائج كثيرة المنافع[٣٨].

وفي سورة النبأ نلحظ فيهـا مقابلـة بين ثواب المؤمنين وعقاب الكـافرين؛ يقـول عـزّ وجـلّ في العقـاب: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا، لِلطَّـاغِينَ مَآَبًـا، لَابِثِينَ فِيهَـا أَحْقَابًـا، لَا يَـذُوقُونَ فِيهَـا بَـرْدًا وَلَا شَرَابًـا، إِلَّا حَمِيمًـا وَغَسَّـاقًا، جَـزَاءً وِفَاقًـا، إِنَّهُـمْ كَـانُوا لَا يَرْجُـونَ حِسَابًا، وَكَـذَّبُوا بِآَيَاتِنَـا كِـذَّابًا، وَكُـلَّ شَيْءٍ أَحْصَـيْنَاهُ كِتَابًـا، فَـذُوقُوا فَلَـنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[٣٩].

وفي الثـواب يقـول تعـالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِـينَ مَفَـازًا، حَـدَائِقَ وَأَعْنَابًـا، وَكَوَاعِـبَ أَتْرَابًـا، وَكَأْسًـا دِهَاقًـا، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْـوًا وَلَا كِـذَّابًا، جَـزَاءً

مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾[٤٠]

يقول المفسِّر السعدي (ت: ١٣٧٦هـ): «لمّا ذكر حال المجرمين ذكر مآل المتقّين فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي: الذين اتّقوا سخط ربهم، بالتمسّك بطاعته، والانكفاف عمّا يكرهه فلهم مفاز ومنجى، وبعد عن النار»[٤١].

والقرآن الكريم حافلٌ بالآيات الكريمة التي تحمل في ثناياها الثواب والأجر الجزيل، وأخرى تحمل العقاب والتهديد والوعيد لتكون النفوس بين هاتين الوسيلتين تتأرجح إنْ مالت النفس إلى الدعة والخمول والكسل والانحراف عن سواء السبيل قرّعتها آيات العذاب والعقاب، وإنْ أقبلت على خالقها ونشطت في طاعته وعبادته وعمل الخيرات سمعت آيات الوعد والثواب فزادت نشاطًا ورغبةً في ذلك.

والحكمة الإلهيّة في تدبير شؤون الناس عدّت الجزاء على العمل ركنًا من أهم أركان العمليّة التربويّة، ولابدّ أن يشتمل على الثواب والعقاب، والترغيب والترهيب؛ لأنّه عامل مشوّقٌ ودافعٌ إلى التمسّك بمكارم الأخلاق والقيم القرآنيّة، فالإنسان بطبيعته يحب أنْ يرى ثمرة أعماله ونتيجة جهده سواء كانت ماديّة أم معنويّة، وعلى هذا فطرَ اللهُ سبحانه خلقَه.

خامسًا: العدل الإلهي: ونذكر ها هنا أصل العدل وذلك لأن بالعدل يتم التوحيد، ومن دون العدل لا يمكن إثبات النبوة والإمامة والمعاد، قال العلامة الحلي (ت: ٧٢٦هـ): (إعلم أن هذا الأصل (العدل) عظيم تبتني عليه القواعد الإسلامية، بل الأحكام الدينية مطلقاً، وبدونه لا يتم شيء من الأديان)[٤٢].

وقد أشارت السيّدة الزهراء عليها السلام لما يتعلّق بالعدل الإلهي وما يجب على

الإنسان من الاعتقاد به، وقد كانت تريد بهذه الكلمات التي وردت تجاه القوم الذين غصبوا حقّها أنْ تذكرّهم بذلك الخالق العادل الذي لا يحيف ولا يجور في حكمه أبدًا، حيث قالت وهي تخاطب العاصين بعد أنْ ذكرت لهم أدلةً دامغةً على حقّها في فدك، ومطالبتها بردّها إليها فقالت عليها السلام: «فدونكها مخطومةً مرحولةً تلقاك يوم حشرك، فنِعمَ الحَكَم الله، والزعيم محمد صلى الله عليه وآله، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ولكلّ نبأٍ مستقرّ، وسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه، ويحلّ عليه عذابٌ مقيم»[٤٣].

وهذه المعاني السامية والكلمات المزلزلة من ربيبة الوحي المحمّدي من أعظم المعاني التحذيريّة في التهديد والوعيد والانذار، وأنّه لا ينفع الإنسان إلّا عمله وما قدّمه من خيرٍ، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[٤٤]، وفي معناها يقول العلامة الطباطبائي: «تصريحٌ بالتهديد، وإنباءٌ عن الوقوع الحتمي، وقد ظهر ممّا تقدّم وجه صحّة خطاب المشركين بما سيبتلى به الأمّة الإسلاميّة من تفرّق الكلمة، ونزول الشدّة، فإنّ الأعراق تنتهي إليهم، وليس الناس إلاّ أمّة واحدة، يؤخذ آخرهم بما اكتسبه أوّلهم، ويعود إلى أوّلهم ما يظهر في آخرهم، علموا ذلك أو جهلوا، أبصروا من أنفسهم ذلك أو عموا»[٤٥].

فهذه الكلمات التي أوردتها الزهراء عليها السلام في خطاب ظالميها فيها من معاني الوعيد ما يذهل عقل اللبيب إنْ أراد أنْ يُعمل عقله ويتفكّر في عواقب أمره حيث غضب الله تعالى وسخطه في قبال متاعٍ دنيويّ قليلٍ زائل.

وعليه من أراد النجاة أنْ يتأمّل عمق هذه الكلمات حتى يكون على بينةٍ تامّةٍ من كلّ سلوكٍ يقوم به تجاه الآخرين، إذ إنّ يوم القيامة يومٌ لا كسائر الأيام حيث

يكون الحاكم هو الشاهد، ذلك يوم الفزع الأكبر فلا ينفع فيه الندم، ولا الاعتذار، ولا طلب العفو؛ لذا كانت إرشادات العترة الطاهرة عليهم السلام تحذّر الإنسان من مغبّة الإعمال السيّئة في ذلك اليوم حيث تكون العدالة التامّة التي لا ظلم فيها مطلقًا.

فالعدل في عند السيّدة الزهراء عليها السلام عاملٌ مهمٌ في تقويم الإنسان من حيث بنائه النفسي والاجتماعي والاقتصادي الذي تقوم على أساسه التعاملات في المجتمع فتحفظ من خلاله الحقوق، ويراعى فيه الضعيف فتتألّف القلوب، وهذا الظاهر من معنى كلامها إذ قالت: «وجعل العدل تنسيقًا للقلوب»(٤٦)، فإذا كان العدل بين الناس والتواصي بالحقّ والمعروف والإنصاف، ممّا يؤلّف القلوب ويرسّخ الوئام بينهم، فكيف إذًا بعدل الله تعالى في خلقه وهو الذي لا يُظلم عنده أحد ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(٤٧).

المطلب الثاني: مظاهر النبوّة في خطبة السيّدة الزهراء عليها السلام في ضوء آيات القرآن الكريم

وفي هذا المطلب من البحث سيكون الكلام عن ملامح أصل النبوّة، وكيف وظّفت السيّدة الزهراء عليها السلام هذا الأصل في مضامين عمليّةٍ واقعيّةٍ في خطبتها الشريفة، وهو ما سنحاول بيانه على النحو الآتي:

أولاً: قالت السيّدة الزهراء عليها السلام: «وأشهد أنّ أبي محمّدًا عبدُهُ ورسولُهُ»(٤٨)، وفي هذا المقطع من كلام السيّدة فاطمة عليها السلام تؤكّد وتذكر أنْ سيّد الكونين ونبيّ ربّ العالمين وخاتم المرسلين هو أبوها، وفي هذا كلّ الفخر والشرف والمقام في الدارين، وأنّ لها هذه الخصيصة في الأبوّة الحقيقيّة والشرف دون أحد منكم أيها العرب، وفي هذا ملمحٌ للتقريع بحقّ المخاطبين، وهذا الملحظ أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[٤٩].

ومعنى الآية الكريمة أنّ النبيّ ﷺ لم يكن «أبًا لأحدكم على سبيل الحقيقة، ولكنّه كان رسولًا من عند الله تعالى ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وكان أيضًا خاتم النبيين، بمعنى أنّهم خُتموا به، فلا نبيّ بعده، فهو كالخاتَم والطابَع لهم. ختم الله تعالى به الرسول والأنبياء، فلا رسول ولا نبيّ بعده إلى قيام الساعة»[٥٠].

والإشارة إلى العبوديّة نلحظ مضمونها في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾[٥١]، والمراد بِعَبْدِهِ هنا خاتم أنبيائه محمّد ﷺ، والإضافة للتشريف والتكريم، وأوثر التعبير بلفظ العبد؛ للدلالة على أنّ مقام العبوديّة لله تعالى هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلّها؛ إذ لو كان هناك وصفٌ أعظم منه في هذا المقام لعبّر به، وللإشارة أيضًا إلى تقرير هذه العبوديّة لله تعالى وتأكيدها، حتّى لا يلتبس مقام العبوديّة بمقام الألوهيّة، كما التبسا في العقائد المسيحيّة، حيث ألّهوا عيسى عليه السلام، وألّهوا أمّه مريم، مع أنّهما بريئان من ذلك[٥٢].

ثانيًا: قالت السيّدة الزهراء عليها السلام: «فأنار اللهُ بأبي محمّد ﷺ ظُلَمَها، وكشف عن القلوب بُهَمَها[٥٣]، وجلى عن الأبصار غُمَمَها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصّرهم من العَماية، وهداهم إلى الدّين القويم، ودعاهم إلى الصّراط المستقيم»[٥٤]، وهنا تذكر السيّدة الزهراء عليها السلام بأنّ بعثة أبيها كانت بأمرٍ إلهيّ، وأنّ مقام النبي ﷺ مقامٌ رسالي؛ وأنّ دعوته للحقّ سبحانه، وأثره على الناس واستجابتهم له كان بعد أنْ أزاح ستار الجهل عن العقول، وشحذ

القلوب باليقين، فكانت النتيجة الخروج من الظلمات الاجتماعيّة والدينيّة، والاستضاءة بنور الإسلام وتعاليم القرآن، ومن ثَم السعادة في الدّارين لهم، وهذا المعنى نلحظه جليًّا في القرآن الكريم وفي مواطن عدّة، منها في قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[٥٥]، و» الدعاء إلى الله هو تبليغ التوحيد والأخذ به، ومكافحة الكفرة. بإذنه هنا معناه: بأمره إيّاك»[٥٦]، ولازمه الإيمان بدين الله تعالى، وتقييد الدعوة بإذنه سبحانه يجعلها مساوقةً للبعثة التي حَمّل أعبائها العظيمة نبيّه ﷺ فمنحه «استعدادات ذاتيّة: فقد أعطاه جوهرًا ممتازًا، وذكاءً متوقّدًا، وإرادةً حديديّة، وعزمًا راسخًا، وعلمًا وفيرًا وتشخيصًا صائبًا، وإلّا فلن يتمكّن شخصٌ ضعيفٌ من القيام بهذه الرسالة الكبيرة، وسينتفي غرضها»[٥٧].

ولهذا وصف القرآن المجيد النبيّ ﷺ قائلًا ﴿سِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، ويعني «كونه بحيث يهتدى به الناس إلى سعادتهم، وينجون من ظلمات الشقاء والضلالة فهو من الاستعارة»[٥٨].

ثالثًا: قالت السيّدة فاطمة عليها السلام في وصف رسول الله ﷺ ومهامه الرساليّة: «فبلّغَ الرسالةَ صادعًا بالنذارة، مائلًا عن مدرجة المشركين»[٥٩]، وفيه:

ـ **(فبلّغ الرسالة)**: أي بلّغ الأمر المُرسَل به من السماء، والتبليغ هنا يشمل كلّ المعارف القرآنيّة والإسلاميّة، ومن أهمّ تلك الأمور هو تبليغ الوصيّة فيمن يستخلف رسول الله ﷺ بعد رحيله، وهذا أمرٌ مرجعيّته القرآنيّة واضحةٌ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[٦٠]، وفي هذه الآية «خطابٌ للنبيّ ﷺ، وإيجابٌ عليه تبليغ ما أنزل إليه من ربّه، وتهديدٌ له إنْ لم يفعل، وأنّه

يجري مجرى إنْ لم يفعل ولم يبلغ رسالته»[٦١].

والأمر الخطير الذي يرتهن به جميع ما بلّغ به النبيّ ﷺ خلال ثلاث وعشرين سنةً من عمر الدعوة الشريفة هو استخلاف الإمام علي عليه السلام، وتنصيبه وصيًّا من بعده ﷺ، وهذا الأمر هو ما دفع السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام إلى مجابهة القوم في خطبتها محلّ البحث، والاحتجاج عليهم بأرض فدك، و «أنّ النزاع حقيقة في أصل الخلافة»[٦٢].

ويؤكّد أنّ المراد من التبليغ في الآية الكريمة هو استخلاف الإمام علي عليه السلام، ما قاله الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تفسير الآية، إذ قال: «إنّ الله تعالى لمّا أوحى إلى النبيّ ﷺ أنْ يستخلف عليًّا كان يخاف أنْ يشقّ ذلك على جماعةٍ من أصحابه، فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعًا له على القيام بما أمره بأدائه»[٦٣].

ـ (صادعًا بالنذارة): و (صادعًا) حالٌ من ضمير (بلّغ)، وهو من الصّدع، بمعنى الإظهار، وهذا المضمون مرجعيّته القرآنيّة نلحظها في قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[٦٤]، يقول المفسِّر ابن عاشور: «والصدع الجهر والإعلان، وأصله الانشقاق، ومنه انصداع الإناء، أي انشقاقه. فاستعمل الصدع في لازم الانشقاق وهو ظهور الأمر المحجوب وراء الشيء المنصدع، فالمراد هنا الجهر والإعلان. وما تؤمره هو الدّعوة إلى الإسلام»[٦٥].

و (النذارة): أي التخويف والتحذير من غضب الله، وهذا جزءٌ من مهام النبي ﷺ الرساليّة، وهذه الوظيفة واضحة المعنى في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٦٦]، أي إنّك يارسول الله ﷺ منذرٌ «لهم، تنذرهم بأسَ الله أن يحلّ بهم على شركهم»[٦٧].

ـ (مائلاً عن مدرجة المشركين): أي

إنّ رسول الله ﷺ مبتعدًا عن طريق المشركين، ومذهبهم ومسلكهم، مترفعًا بسموّ أخلاقه، وعظيم دينه عن مجاراة أخلاقهم المنحرفة وعاداتهم السيّئة، فهو ﷺ معرضٌ عنهم، وعن سخريتهم واستهزائهم. وهذا البيان من السيّدة الجليلة عليها السلام مرجعيته القرآنيّة واضحةٌ باهرة، قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[٦٨]، إذ إنّ «الإعراض عن المشركين هنا بمعنى الإهمال»[٦٩].

رابعًا: قالت السيّدة الزهراء عليها السلام: «داعيًا إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة»[٧٠]، وهي في محل بيان صفات النبي الخاتم ﷺ وجهده الرسالي في تبليغ تعاليم السماء بسلاح المنطق والدليل والبرهان، وهذا تعبيرٌ واقعيٌّ عن التزام النبي ﷺ بأمر السماء في أسلوب الدعوة، وقد مثّل لهذا القدوة الحسنة في الأخلاق العالية، وهذا المعنى واضحٌ في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[٧١].

وهذه الكلمات القرآنيّة التي ذكرتها السيّدة الزهراء عليها السلام على قصر حروفها تحمل معاني عميقةً ومهمّةً لابدّ أنْ يتحلّى بها كلّ داعيةٍ إلى الدِين الحقّ، وتمثّل كذلك مكارم الأخلاق الحميدة، لهذا وجدنا من المناسب في هذا المقام الوقوف على بيانها على النحو الآتي[٧٢]:

١ـ **(الحكمة): إصابة الحقّ بالعلم والنقل، فالحكمة من الله تعالى**: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفة الموجودات، وفعل الخيرات[٧٣].

وهي بهذا بمعنى العلم والمنطق والاستدلال، وهي في الأصل بمعنى (المنع)، وقد أطلقت على العلم والمنطق والاستدلال لقدرتها على منع الإنسان من الفساد والانحراف.

فأوّل خطوةٍ على طريق الدعوة إلى الحقّ هي التمكّن من الاستدلال وفق

المنطق السليم، أو النفوذ إلى داخل فكر الناس، ومحاولة تحريك عقولهم وإيقاظهم، كخطوةٍ أولى في هذا الطريق.

٢ ـ **الموعظة الحسنة**: وهي الخطوة الثانية في طريق الدعوة إلى الله، بالاستفادة من عملية تحريك الوجدان الإنساني، وذلك لما للموعظة الحسنة من أثرٍ دقيقٍ وفاعلٍ على عاطفة الإنسان وأحاسيسه، وتوجيه مختلف طبقات الناس نحو الحقّ.

قال الراغب الأصفهاني (ت: ٤٢٥هـ): الوعظ: زجرٌ مقترنٌ بتخويف[٧٤]، وقال الجرجاني: الموعظة هي التي تُليّن القلوب القاسية، وتُدمع العيون الجامدة، وتُصلح الأعمال الفاسدة[٧٥].

وفي الحقيقة فإنّ (الحكمة) تستثمر البُعد العقلي للإنسان، و (الموعظة الحسنة) تتعامل مع البُعد العاطفي له.

إن تقييد (الموعظة) بقيد (الحسنة) لعله إشارةٌ إلى أنّ النصيحة والموعظة إنّما تعمل عملها في الطرف المقابل الموجَّه له إذا خلت من أيّة خشونةٍ أو استعلاءٍ وتحقيرٍ ونحو ذلك ممّا يثير فيه حسّ العناد واللجاجة وما شابه ذلك؛ فكم من موعظةٍ أعطت عكس ما كان يؤمل منها بسبب أسلوب طرحها الذي يُشعر الطرف المقابل بالحقارة والإهانة، كأن تكون الموعظة أمام الآخرين، ومقرونةً بالتحقير، أو يستشم منها رائحة الاستعلاء في الواعظ، فتأخذ الطرف المقابل العزة بالإثم ولا يتجاوب مع تلك الموعظة. لكن يترتب الأثر الإيجابي العميق للموعظة على المتلقّي إذا كانت (حسنة).

خامسًا: وقالت الصديقة الزهراء عليها السلام: «يكسر الأصنام، وينكث الهام، حتّى انهزم الجمع وولّوا الدبر، حتّى تفرّى[٧٦] الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق[٧٧] الشياطين، وطاح[٧٨] وشيظ النفاق[٧٩]، وانحلّت

عقد الكفر والشقاق»[٨٠].

ونلحظ هنا أنّ السيّدة الزهراء عليها السلام ما زالت تصف مهام النبي الخاتم صلى الله عليه وآله في تبليغ الرسالة السماويّة، ثم نجدها قد انعطفت من حيث أسلوب النبي صلى الله عليه وآله في تبليغ الدعوة؛ فبعد أنْ كان أسلوبه (الحكمة والموعظة الحسنة) تحوّل الى أسلوب الشدّة والحزم ومنه القتال!

وهذا لا يعني وجود تناقضٍ أو تغييرٍ في منهجيّة أسلوب الدعوة بلا حكمةٍ أو سببٍ يلزم هذا التغيير، وذلك أنّ نوع أسلوب الدعوة محكومٌ بالمقام والظرف المتعلّق بالمدعو (الناس)؛ فمتى ما كان منهم الإعراض والعصيان وعدم إعمال العقل والتفاعل مع الحكمة والموعظة الحسنة، ومن ثم التكبر والطغيان لا يكون حينها إلّا المجابهة بالشدّة، وفي الأسلوب أيضًا من الحكمة؛ إذ يكون أسلوب الدعوة متغيّرًا بتغيّر الظرف والمقام، ولا يكون على وتيرةٍ واحدةٍ، فهذا خلاف الحكمة.

كما ان هذا الأسلوب في الدعوة الذي ذكرته السيّدة الزهراء عليها السلام له مرجعيّته في آيات القرآن الكريم، فهو مقتبس من نهج القرآن في آليات الدعوة، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[٨١]، أي «بالغ في جهادهم والغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم»[٨٢].

نعم؛ فللجهاد صورٌ عديدةٌ، منها الجهاد باليد، والجهاد بالحجّة والبيان، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد، واللسان والسيف والبيان. فمن كان كافرًا محاربًا معاندًا يكون جهاده بالوعظ والإرشاد وبالتهديد والوعيد والقتال، أي إنّ «الجهاد ضد الكفار قد يكون مسلحًا أو غير مسلح»[٨٣]. أمّا من كان ذا منطقٍ وفكرٍ ومذعنًا للإسلام بذمّةٍ أو عهدٍ،

فإنه يُجاهد بالدليل والحجّة والبرهان، ويُبين له محاسن تعاليم الإسلام، ومساوئ الشرك والكفر(٨٤).

وأما مَن كان من المنافقين فإنّ التاريخ الإسلامي لم يحدّثنا أنّ النبي الخاتم ﷺ قد قاتل المنافقين لمجرد نفاقهم، بل كان ﷺ يحاول كسبهم وإطفاء فتنتهم بالطرق السلميّة، وهذا نلحظه في قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إنّ رسول الله ﷺ لم يقاتل منافقًا قط إنّما كان يتألّفهم»(٨٥)، ويؤكّد هذا المعنى المفسِّر الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في قوله: «إنّ المراد من الجهاد ضد المنافقين إنّما هو توبيخهم وإنذارهم وتحذيرهم، بل وتهديدهم وفضحهم، أو تأليف قلوبهم في بعض الأحيان»(٨٦).

ويعرِّف المفسِّرون الموعظة الحسنة بأنّها ما في القرآن الكريم من الزواجر والوقائع بالناس، يذكِّرهم بها؛ ليحذروا بأس الله سبحانه(٨٧). وقالوا عند تفسير الآية: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾(٨٨): أي «أراد بالموعظة هاهنا الزاجر؛ أي: جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنَّكال في مقابلة ما ارتكَبوه من محارم الله، وما تحيَّلوا به من الحيل، فليحذر المتقّون صنيعهم؛ لئلّا يصيبَهم ما أصابهم»(٨٩).

إذًا فالموعظة الحسنة هي نوعٌ من أنواع الجهاد، وتعني التذكير والنصح والتخويف والزجر، فهي بهذا تُرادِف التذكير والنصح والإرشاد، ولها أشكالٌ عديدةٌ كما تقدّم، وينسجم أسلوبها مع المقام والظرف.

ممّا تقدّم من كلام السيّدة الزهراء عليها السلام وما تضمّن من ملامح عن أصل النبوة، يستفاد تأكيد أنّ النبوّة أصلٌ من أصول الدِين الإسلامي المقدّس، وعلى المسلمين كافة الالتزام بها وصيانتها ورعايتها، لئلّا تنصدع أركان الرسالة الإسلاميّة،

ومن ثَمّ تعود الجاهليّة العمياء إلى ساحة الوجود.

الخاتمة:

وفي نهاية هذا البحث أحط الرحال في خاتمته لأُدوّن فيها ما اعتقده خلاصاتٍ معرفيةً مستمدّةً من كلام السيّدة الزهراء عليها السلام في حقّ أصل التوحيد، وأصل النبوّة وعلى النحو الآتي:

إنّ أصل التوحيد لا يمسّ الواقع العقدي القلبي فحسب، بل إنّ السيّدة الزهراء عليها السلام أشارت إلى ملازمات التوحيد، وأثره على السلوك والأخلاق.

إنّ مقصد السيّدة الزهراء عليها السلام الأعظم من خطبتها، وما فيها من مضامين يكمن في صلاح الفرد والأمّة، وترسيخ القيم، واستنهاض للهمّة حين يصيب جسد الأمة وروحها النكوص والتقهقر.

وضحّت السيّدة الصدّيقة عليها السلام مكانتها من الوحي، وسموّ مقامها عند صاحب الرسالة، وبهذه المقدّمات كلّها تكون قد مهّدت إلى دفع الارتياب فيما سوف تقوله لمستمعيها من الصحابة، فلا يكون هناك شكّ في كلامها.

حذّرت السيّدة الزهراء عليها السلام الأمّة من مخالفتها لعهودها ومواثيقها مع نبيّها، ولا يختلف ذلك بوجوده صلى الله عليه وآله حيًّا بينهم أو بعد موته، حيث إنّ حياة النبيّ بشريعته هي الحياة إلى يوم القيامة.

الموعظة الحسنة لا تعني فقط الدعوة إلى دِين الله تعالى بأسلوبٍ رقيقٍ وليّن، وإنّما تعني أيضًا الدعوة إلى دِين الله تعالى بالغلظة والحزم حين يكون المعاند متجبّرًا متغطرسًا، وهذا من الموعظة الحسنة.

اتّضح للباحث من خلال البحث أنّ النصّ القرآني وكلام المعصوم عليه السلام، وتوضيح المفسِّر لآيات القرآن الكريم، تُرسم خارطة الفهم للقيم العلميّة والعمليّة لسلوك الناس عامّة.

قائمة المصادر والمراجع:

خير ما نبدأ به: القرآن الكريم
ابن عاشور محمّد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، مؤسّسة التاريخ العربي، بيروت، (د. ت).
ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار صبح، بيروت، ط٤، ٢٠٠٧ م.
الجرجاني علي بن محمد (ت: ٨١٦هـ)، كتاب التعريفات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٣م.
حسن القبانچي الحسيني، شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ.
الراغب الأصفهاني (ت: ٥٢٤هـ)، المفردات في غريب القرآن، دار القلم، بيروت، ٢٠٠٤ م.
السعدي عبد الرحمن بن ناصر (ت: ١٣٧٦هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥ م.
سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط٣٤، ٢٠٠٤م.
الطبري (ت: ٣١٠ هـ)، جامع البيان عن تأويل القرآن، دار أحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت).
الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ)، البيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد طيب العاملي، الأميرة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠١٠ م.
عبد الرحيم بدر، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٤م.
العلامة الحلي (ت: ٧٢٦هـ)، نهج الحقّ وكشف الصدق، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.
فضل علي القزويني (ت: ١٣٦٧هـ)، حياة الزهراء بعد أبيها الرسول صلى الله عليه وآله، تحقيق: السيّد أحمد الحسيني، العتبة الحسينيّة المقدّسة، ٢٠١٤ م.
القرطبي محمد بن أحمد (ت: ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: د. مجدي محمد سرور، دار البيان العربي، القاهرة، ٢٠٠٨ م.
المجلسي (ت: ١١١١هـ) محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسّسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.
المجلسي (ت: ١١١١هـ) محمد باقر، شرح الخطبة الكبرى للصديقة الكبرى فاطمة الزهراء، إعداد: أسعد السيد كاظم القاضي، باقيات للطباعة والنشر، قم، ٢٠١٢ م.
محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتاب العربي، بغداد، ٢٠٠٩ م.
محمد عزّة دروزة (ت: ١٩٨٤م)، التفسير الحديث ترتيب السور حسب النزول، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ٢٠٠٠ م.
مهدي صالح سلطان (الدكتور)، خطبة الزهراء عليها السلام سيدة النساء ـ قراءة حديثة وحوار جديد ـ، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، بغداد، ٢٠١٤ م.

ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥ م.
ناصر مكارم الشيرازي، الزهراء عليها السلام خير نساء العالمين، مكتبة الكوثر، بغداد، ٢٠١٣م.

الهوامش:

[١] المجلسي، بحار الأنوار، ٥٣/ ١٨٠.
[٢] عبد الرحيم بدر، مناهج البحث العلمي، ص٢٣٤.
[٣] سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.
[٤] المجلسي، بحار الأنوار، ٢٩/ ٥٨٤.
[٥] د. مهدي صالح سلطان، خطبة الزهراء عليها السلام سيدة النساء قراءةٌ حديثةٌ وحوارٌ جديدٌ، ص٤٣.
[٦] سورة النحل، الآية: ١٢٠ ـ ١٢١.
[٧] سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٢٠١.
[٨] سورة الإسراء، الآية: ٣.
[٩] ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٨/ ٢٩٥.
[١٠] المجلسي، بحار الأنوار، ٢٩/ ٥٨٤.
[١١] سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.
[١٢] ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ١٢/ ٢٥٩.
[١٣] سورة النساء، الآية: ٤٧.
[١٤] سورة إبراهيم، الآية: ٧.
[١٥] سورة الإسراء، الآية: ١١١.
[١٦] سورة الأنعام، الآية: ١٦٣.
[١٧] سورة البينة، الآية: ٥.
[١٨] سورة غافر، الآية: ٦٥.
[١٩] المجلسي، بحار الأنوار، ٢٩/ ٥٨٤.
[٢٠] شرح الخطبة الكبرى للصديقة الكبرى فاطمة الزهراء، ص١٨.
[٢١] الزهراء خير نساء العالمين، ص١٠٠.
[٢٢] شرح رسالة الحقوق، ص٢١.
[٢٣] من دعاء الإمام أمير المؤمنين ع، المجلسي، بحار الأنوار، ٨٤/ ٣٤١.

[٢٤] سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.
[٢٥] محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٥/ ٦٣.
[٢٦] سورة ص، الآية: ٢٦.
[٢٧] محمد عزة دروزة، التفسير الحديث، ٢/ ٣١٣.
[٢٨] المجلسي، بحار الأنوار، ٢٩/ ٢٣٨.
[٢٩] سورة النمل، الآية: ٨٨.
[٣٠] سورة الرعد، الآية: ١٦.
[٣١] الكليني، الكافي، ١/ ١٣٥.
[٣٢] سورة الذاريات، الآية: ٥٦ ـ ٥٧.
[٣٣] سورة الملك، الآية: ٢.
[٣٤] تقول: حشت الصيد أحوشته، إذا جئته من حواليه لتصرفه إلى الحبالة، ولعلّ التعبير بذلك لنفور الناس بطباعهم عمّا يوجب دخول الجنة.
[٣٥] المجلسي، بحار الأنوار، ٢٩/ ٢٢١.
[٣٦] سورة التحريم، الآية: ٨.
[٣٧] سورة هود، الآية: ١٥ ـ ١٦.
[٣٨] ظ: ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٦/ ٤٩٤.
[٣٩] سورة النبأ، الآية: ٢١ ـ ٣٠.
[٤٠] سورة النبأ، الآية: ٣١ ـ ٣٦.
[٤١] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص١٠٠٦.
[٤٢] نهج الحق وكشف الصدق، ص٧٢.
[٤٣] المجلسي، بحار الأنوار، ٢٩/ ٢٣٨.
[٤٤] المجلسي، بحار الأنوار، ٢٩/ ٥٨٤.
[٤٥] الميزان في تفسير الميزان، ٧/ ١٣٩.
[٤٦] المجلسي، بحار الأنوار، ٢٩/ ٢٣٨.
[٤٧] سورة فصلت، الآية: ٤٦.
[٤٨] المجلسي، بحار الأنوار، ٢٩/ ٥٨٤.
[٤٩] سورة الاحزاب، الآية ٤٠.
[٥٠] د. محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، ١٢/ ٣٢٤.

[٥١] سورة الاسراء، الآية ١.
[٥٢] د. محمد طنطاوي، التفسير الوسيط، ٧/ ٣٣٢٦.
[٥٣] البُهَمْ جمع بهمة بالضمّ، وهي مشكلات الأُمور. غممها: الغُمَمُ: جمع الغمّة، يقال: هو في غمّة أي في حيرة ولبس.
[٥٤] المجلسي، بحار الأنوار، ٢٩/ ٥٨٤.
[٥٥] سورة الاحزاب، الآية: ٤٦.
[٥٦] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٠٠.
[٥٧] ناصر مكارم الشيرازي، الزهراء عليها السلام خير نساء العالمين، ص١٠٤.
[٥٨] محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٦/ ٣٣٠.
[٥٩] المجلسي، بحار الأنوار، ٢٩/ ٥٨٤.
[٦٠] سورة المائدة، الآية: ٦٧.
[٦١] الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٣/ ٥٣٤.
[٦٢] فاضل علي القزويني (ت: ١٣٦٧هـ)، حياة الزهراء عليها السلام بعد أبيها الرسول صلى الله عليه وآله، ص١٠٦، ظ: ناصر مكارم الشيرازي، الزهراء عليها السلام خير النساء، ص١٥٧.
[٦٣] الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٣/ ٥٣٤، المجلسي، بحار الأنوار، ٣٧/ ٢٥٠.
[٦٤] سورة الحجر، الآية: ٩٤.
[٦٥] تفسير التحرير والتنوير، ١٣/ ٧٠.
[٦٦] سورة الرعد، الآية: ٧. وفي معنى (الهادي) فإنّ للمفسرين آراء في المقصود منه، إلّا إنّهم أجمعوا عند ذكر هذه الآراء على الرأي الذي يرى أنّ المراد بالهادي هو الإمام علي عليه السلام، وقد ذكروا في ذلك تفسير ابن عباس إذ قال: «وضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده على صدره فقال: «أنا المنذر» ثم أومأ إلى منكب علي رضي الله عنه وقال: «أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي»». ظ: الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، ١٩/ ١٢، وابن كثير وإنْ أنكر هذا الحديث، لكنّه ذكر تفسيرًا عن طريق الجنيد (ت: ٢٩٨هـ) يقول الهادي هو علي بن أبي طالب، ظ: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٤٩٩، وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: «رسول الله صلى الله عليه وآله المُنذِر، وعلي الهادي، والله ما ذهبتَ منا وما زالتَ فينا إلى الساعة». المجلسي، بحار الأنوار، ٢٣/ ٤، وعلّق العلامة محمد حسين الطباطبائي قائلًا: «أقول والرواية تشهد على ما قدّمناه أنّ شمول الآية لعلي عليه السلام من الجرى وكذلك يجرى في باقي الأئمّة، وهذا الجرى هو المراد ممّا ورد أنّها نزلت في علي عليه السلام». الميزان في تفسير القرآن، ١١/ ٣٢٨.

[٦٧] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٦/ ٥٣.
[٦٨] سورة الحجر، الآية: ٩٤.
[٦٩] ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٨/ ١١٨.
[٧٠] المجلسي، بحار الأنوار، ٢٩/ ٥٨٤.
[٧١] سورة النحل، الآية: ١٢٥.
[٧٢] ظ: ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٨/ ٣٧٠، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٧٣١.
[٧٣] ظ: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص١٢٦.
[٧٤] ظ: المصدر نفسه، ص٥٢٧.
[٧٥] ظ: الجرجاني، كتاب التعريفات، ص٣٠٥.
[٧٦] تفرّى: أي انشق، يقال تفرّى الليل عن صبحه.
[٧٧] الشقاشق: جمع شِقْشِقَة بالكسر وهي شيء كالرئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج.
[٧٨] طاح: هلك وسقط.
[٧٩] الوشيظ بالمعجمتين: الرذل والسّفلة... وفي بعض النسخ: الوسيط بالمهملتين: أشرف القوم نسبًا، وأرفعهم محلاً، وهو أيضًا مناسب.
[٨٠] المجلسي، بحار الأنوار، ٢٩/ ٥٨٤.
[٨١] سورة التحريم، الآية: ٩.
[٨٢] ظ: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٣٥٩.
[٨٣] ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٨/ ٤٦٤.
[٨٤] ظ: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٣٥٩.
[٨٥] المجلسي، بحار الأنوار، ١٩/ ١٦٣.
[٨٦] الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٨/ ٤٦٤.
[٨٧] ظ: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٧٣١.
[٨٨] سورة البقرة، الآية: ٦٦.
[٨٩] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١/ ١٣٧.